الدولة الأيوبية
في تاريخ مصر الإسلامية

دكتور عبد المنعم ماجد

دار الفكر العربي

Bibliotheca Alexandrina
0098884

الدولة الأيوبية فى تاريخ مصر الإسلامية
التاريخ السياسى

(٥٦٧-٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠م)

بقلم

أ.د/ عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب

والخبير الوطنى لمركز الدراسات البردية

فى جامعة عين شمس

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤ - ٢٧٥٢٧٩٤

٩٥٣,٠٧٣٩٣ عبد المنعم ماجد.
م ن دو
الدولة الأيوبيـة فى تاريخ مصـر الإسـلاميـة: التـاريخ السـياسى (٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ/ ١١٧١ ـ ١٣٥٠م)/ بـقلم عبـد المنعم ماجد. ـ ط٢ ـ القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٧.
١٩٢ ص؛ ٢٤ سم.
بيليوجرافية: ص١٦٩ ـ ١٨٣.
يشتمل على ثبت بالأعلام وآخر بالأماكن
تدمك : ٢ - ١٠٠٤ - ١٠ - ٩٧٧.
١ ـ مـصـر ـ تـاريخ ـ العـصـر الأيوبى. ٢ ـ الـدولة الأيوبية. أ ـ العنوان.

أصبح المُلك بعد آل عليّ

مشرقًا بالملوك من آل شادي

محتويات الكتاب

المقدمة:

أ ـ التمهيد. ---------------------------------- ٧

ب ـ المصادرالتاريخية. ----------------------------- ٩

جـ ـ أسماء ملوك الأيوبيين فى مصر. ------------------- ٢١

الفصل الأول:

أحوال الخلافة العباسية، وظهور السلاجقة. ----- ٢٣

الفصل الثاني:

اغتصاب الأرض العربية على يد الفرنجة. -------- ٣٣

الفصل الثالث:

الصمود، ورد الفعل الفرنجى. ------------------ ٥٥

الفصل الرابع:

ظهور صلاح الدين، وتأسيس الدولة الأيوبية. --- ٧٥

الفصل الخامس:

انتصار صلاح الدين فى حِطّين، ودور العساكر

المصرية البارز فى استرداد بيت المقدس. -------- ٩٣

الفصل السادس:

رد الفعل الفرنجى، والهدنة مع الصليبيين. ------- ١١١

الفصل السابع:

الأيوبيون،والحركة الصليبية بعد موت صلاح الدين. ـ ١١٩

الفصل الثامن:

سقوط الدولة الأيوبية فى مصر فى يد المماليك. --- ١٣٧

الخاتمة: ١٦٧

الكشاف: ١٦٩

١ ـ جدول المصادر والمراجع. ------------------- ١٦٩

٢ ـ جدول الأعلام والأماكن. -------------------- ١٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أ ـ التمهيد

يتناول هذا الكتاب التاريخ السياسى لدولة الأيوبيين، التى أسسها صلاح الدين بن أيوب في مصر، وهم الذين حكموها أكثر من ثمانين سنة من وقت سقوط الخلافة الفاطمية على أيديهم، إلى وقت قيام دولة سلاطين المماليك، فى الفترة من ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، إلى ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، حيث غلب على ملوكها التلقّب فى أوراقهم الرسمية بلقب الملوك، على عكس الفاطميين قبلهم الذين تلقَّبوا بالخلفاء، والمماليك بعدهم الذين غلب عليهم التلقُّب بالسلاطين، مما يهيئ لهذه الدولة دراسة متخصصة فى تاريخ مصر الإسلامية.

ولكن لا نستطيع أن نربط تاريخ الأيوبيين بمصر وحدها، مثلما يربط بها تاريخ الفاطميين، الذين اتخذوا مصر قاعدة لحكمهم، واشتمل على أقطار متعددة في المغرب والمشرق؛ لأن الأيوبيين بعد صلاح الدين تفككت وحدتهم، وتكونت لهم دول متعددة، وأصبحت لهم رءوس كثيرة؛ ولأن الدولة الأيوبية لم تظهر نتيجة لظروف مصر وحدها، وإنما خلقتها ظروف المسلمين بعامة بضعفهم وتفرقهم، مما أتاح الفرصة لأعدائهم من دول أوربا، أو ما عرفوا بالفرنجة،إلى اقتطاع أجزاء من بلادهم، بعد أن أنشبوا فيها أظافرهم.

ومع ذلك، فإن سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر وظهور دولة الأيوبيين، ماكان يعود بمصر إلى الوراء؛ لتكون مجرد ولاية فى مُلك الخلافة العباسية التى بقيت في الشرق وحدها بعد زوال خلافة الفاطميين، حيث كانت مصر فى عهدها دولة عظمى بكل المقاييس حربيـًا واقتصاديًا وحضاريًا. وعلى العكس، فإن مصر فى وقت حكم دولة الأيوبيين قد زاد دورها عن ذى قبل فى العالم الإسلامى فى ظل وحدة الحكم الخلافى العباسى، وأصبح لأهلها الفاعلية الأساسية فى وحدة

العرب ومصير الإسلام، وكان موقعها المحورى المتميِّز من شأنه أن يجعلها تقوم أكثر بهذا الدور الوحدوى للعرب والمسلمين، فهى تقع تمامًا فى وسطهم "Juste au Milieu".

وحتى نظم مصر السياسية فى زمن الدولة الأيوبية تطورت هى الأخرى تطورا كبيرا عنها فى الفترة السابقة. ويؤكد على ذلك ظهور تعابير اصطلاحية تركية كثيرة، بالإضافة إلى التعابير الاصطلاحية الحربية والفارسية السابقة، التى كانت رسخت فى نظام مصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامى؛ وذلك لأن العصر التركى قد ساد أكثر فى مصر منذ قيام هذه الدولة، واستمر فيها إلى العصر الحديث القريب.

ويؤكد على دور مصر البارز فى الحقبة الأيوبية تسميتها بمصر، وأهلها بالمصريين، مثلما كان الحال منذ الفتح العربى، إلا أنه بسبب إسلام المصريين واستعرابهم، ودخولهم فى زمرة المسلمين والعرب، فإن كلمة مسلم أصبحت تشملهم، مثلما شملت المسلمين فى أقطار أخرى، أما كلمة عربى، فهى فى مفهومها أصبحت تمثل اتجاها جغرافيًا، يشتمل على الشعوب التى تتكلم العربية، وتمتد من المحيط إلى الخليج.

والله ولىّ التوفيق.

أ. د. عبد المنعم ماجد

ب ـ المصادر التاريخية

ولحسن الحظ أنه توافرت مادة تاريخية غزيرة للدولة الأيوبية فى مصر، بمنعطفاتها ومؤثراتها، تُلقى لنا ضوءًا ساطعًا عليها، تأتى فى مقدمتها مصادر من الدرجة الأولى، متمثلة فى أوراقها الرسمية فى شكل: رسائل ومراسلات جمعها القاضى محيِّى الدين المصرى (ت ٧ من ربيع الآخر سنة ٥٩٦هـ/ ٢٦ يناير ١٢٠٠م)[١]، الذى عمل من قبل مع الفاطميين، وكان صاحب ديوان الإنشاء فى عهدهم، كما أصبح كاتبًا لشيركوه السلجوقى لما وزر لهم فى عهد الخليفة العاضد، آخر الخلفاء الفاطميين، ثم وزر لصلاح الدين لما قامت الدولة الأيوبية من بعدهم، وصحبه فى حروبه، وبقى فى خدمته إلى أن توفى، وفى خدمة ملوك الأيوبيين من بعده، حيث إن هذه الرسائل أغلبها بشارات بالانتصارات المستطابة على الفرنجة من أهل أوربا. وقد كان القاضى الفاضل قطبًا فى الكتابة الإنشائية، وخاصة أن صناعة القلم كانت راسخة فى مصر، ولها أساتذتها فيها، ويعد القاضى الفاضل أحد أربعة معالم فى تاريخ كتابة النثر الفنى[٢]، وهم: ابن المقفع، والجاحظ، وابن العميد، والقاضى الفاضل.

كذلك أوراق رسمية أخرى للأيوبيين، متمثلة فى حجج المدارس[٣] فى عهدهم، إذ اعتبرت المدارس من وسائل نشر المذهب السنى[٤]، بعد قضائهم على

---

(١) لدينا مخطوطة فى المكتبة الأهلية (B. N.)، برقم 6024، من إنشاءات القاضى الفاضل. عنه: صبح الأعشى، ١ ص ٩٧.

انظر. فتحية النبراوى، إنشاءات القاضى الفاضل، دراسة وتحقيق وتعليق، القاهرة، ١٩٨٠؛

Ency of Isl, (Art Kádí al-Fádil,) 2ed, tIV P. 376;

Horst-Adolf: Beitrage zur Ayyúbidicshe Diplomatic. Freiburg, 1968.

(٢)أنظر. نعمات أحمد فؤاد، دراسات فى الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٨٥، ص ٤٤٧.

(٣) وهى توجد محفوظة فى دار المحفوظات بالقاهرة.

(٤)صبح الأعشى، ٣ ص ٣٤٢.

المذهب الفاطمى، حيث كان مذهبهم، ومذهب الدولة العباسية، أو فى شكل وثائق محفوظة فى دير سانت كاترين النائى فى سينا[١]، صدرت عن ملوك الأيوبيين فى مصر لتأمين رهبانه وزواره، وحسم الضرر عنهم، حيث إن أغلبها رد على التماسات وشكايات منهم، وأهميتها فى مضمونها وصياغتها التى تبدأ بالبسملة، وبها ألقاب الملوك الأيوبيين والتاريخ الهجرى، أوفى شكل أوراق اليهود التى وجدت فى قاعة بمعبد لهم بالفسطاط، اشتهرت باسم: الجنيزة «Geniza»[٢] تتناول أحوالهم، وخاصة نشاطهم الاقتصادى، وهى مكتوبة فى أغلبها بالعربية، أو فى شكل نصوص ومعاهدات تجارية[٣]، بين دولة الأيوبيين وجمهوريات إيطالية، وبخاصة بيزة والبندقية وجنوة وفلورنسا، وأغلبها مكتوب باللغة الإيطالية الدارجة المسماة: «Vulgare»، ومع ذلك، فليست لأغلبها نصوص عربية مقابلة.

وفوق ذلك وجدت مصادر من الدرجة الأولى عنهم متمثلة فى آثارهم، ومنها: قلاع لظروف الحروب فى وقتهم مع الصليبيين، أشهرها قلعة جبل المقطم فى القاهرة، أو ما عرف بقلعة الجبل، حيث توجد كتب متخصصة عنها، أو عن المدارس والخوانق والربط، وهذه الأخيرة ابتكرها صلاح الدين[٤]؛ لميله الشديد إلى التصوف والمتصوفة، ومع ذلك فما يهمنا منها فى مصادرنا نقوشها التى جمعها «Van Berchem» فى: «Corpus»[٥]، و Sauvaget و Wiet وCombe، فى موسوعتهم: "Répertoire"[٦].

---

(١) بالتفصيل، انظر
Atiya: The Arabic Mss of Mt Siniai., Baltimore, 1955.;
جوزيف نسيم، دراسة فى وثائق العصرين العصر الفاطمى والأيوبى المخطوطة بمكتبة دير سانت كاترين بسيناء، فصلة من مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ١٩٦٥.

(٢) هى كلمة آرامية أوعبرية؛ لتعنى قاعة دفنت بها أوراق، حتى لايدنس اسم الله فيها، ولعل فيها معنى جنازة العربية، ولما هدمت القاعة تسربت هذه الأوراق لمكتبات أوربا وأمريكا.

(٣) توجد فى ارشيفات هذه المدن، وقد نشر بعصها أمارى وغيره. أنظر:
Amari, Diplomi Arabi del Archivio. Fiorentino. 1873.

(٤) صبح الأعشى، ٣ ص ٣٤٣.

(٥) أنظر: Matériaux Pour un Corpus Imscriptionum, Arabicorum. Première Partie. T2. Egypte, 1930.

(٦) أنظر: Répertoire Chronologique, d'épigraphie arabe. Le Caire., 1931 sqq. (ظهر منها حتى الآن ١٨ جزءًا). ولها فهرست لتسهيل البحث فيه. وما يتعلق بالمدارس يوجد فى: R C E A, IV, p. 176, No. 3449.

كذلك من مصادر الدرجة الأولى عنهم السكة وهى عملتهم، حيث سُكت فى أماكن متعددة فى مصر والشام وبلاد الجزيرة الفراتية، وتوجد تآليف عنها، من ابن بعرة الذهبى ـ منصور الذهب ـ (حوالى ٧ هـ / ١٣ م)(١)، فى كتابه: كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، الذى ربما يكون كتبه من أيام الأيوبيين، وأيضًا من المقريزى(٢)، من عهد دولة سلاطين المماليك، فى كتابه: شذور العقود فى ذكر النقود، إلا أنه فى وقتنا زاد الاهتمام بالسكة كمصادر تاريخية هامة، ويهمنا منها السكة الأيوبية، التى جمعها المؤرخون الحديثون مع غيرها فى المكتبات العامة، وصورها، مع ترتيب أزمنتها، ودولها، فى جداول، مثلما فعل: Lane-Poole فى: "Catalogue" (٣).

ثم نذكر عيون المؤلفات الموثوق بها، ومنها المعاصرة لدولة الأيوبيين، وهى كثيرة، بسبب تداخل تاريخهم فى التاريخين الفاطمى والمملوكى؛ إذ إن دولتهم فى أول نشأتها قامت على أنقاض خلافة الفاطميين، وأنها استخدمت المماليك التى فى جيشها، وهم الذين قضوا عليها وحلوا مكانها فى حكم مصر، إلى وقت العثمانيين، بالإضافة إلى المعلومات التاريخية وأحداثها فيها، وتتضمن وثائق عديدة نقلت من أصولها، بعضها نصوص كاملة، ليس من السهل إحصائها.

---

(١) تحقيق عبد الرحمن فهمى، القاهرة ت ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦. نشرت وترجمت بعض نصوصه من Eh-renkreutz فى: BSOAS, 1958, Vol XV. Part 3., 442 - 447. وربما ألفه فى عصر الملك الكامل محمد.

(٢) ط النجف ١٣٥٦ هـ، وترجمة De Sacy، بعنوان:

Traité des Monnaies Musulmanes. Paris, 1797.

(٣) أنظر.

Lane-Poole: Catalogue of the Collection of arabic Coins. Preserved in, Khedivial Library;

: Catalogue of the Oriental Coins in the British Museum. LoVols. London 1875, - 1890;

Paul Balog: The Ayyubids Jeton. Congresso. Napoli, 1967, p. 121 - 125.

فنذكر كتاب أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م): الاعتبار أو حياة أسامة[١] وهو عاصر الفاطميين الأواخر، وقيام الدولة الأيوبية، ووصفه المؤرخون الحديثون الأوربيون بالجنتلمان "Gentleman"؛ لقيامه بالسفارة للأيوبيين، أما العرب في وقته اعتبروه بطلاً للفتوة الإسلامية.

ويكتب الأصفهاني - عماد الدين الكاتب أو العماد الكاتب - (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، ولد بأصفهان[٢]، ثم ذهب إلى الشام، وعمل عند نور الدين السلجوقي مشرفًا على ديوان إنشائه في دمشق، ثم لازم صلاح الدين، وعمل كاتبًا له في الشام، نائبًا عن القاضي الفاضل في مصر، وأصبح يذهب معه في كل تنقلاته، واعتبر مؤرخه الحربي، وقد شبهه القاضي الفاضل لحماسه في الكتابة عن حروب صلاح الدين بأنه: كالزناد الوقاد[٣]. فكان يكتب له معاهداته واتفاقياته، وله فيها أسلوب بليغ جدا، وكأنها برقيات، ويمكن مقارنة أسلوبه بأسلوب القاضي الفاضل، حيث كان قد تتلمذ على يديه. فمن كتبه: الفتح القسى - أي البليغ - في الفتح القدسى، سماه كذلك تنبيهًا على جلال قدره، وهي تسمية القاضي الفاضل للكتاب، أما هو فسماه: الفتح القدسى[٤]، وفيه يتناول حروب صلاح الدين مع الفرنجة لسبع سنين فقط، وبخاصة استرداد بيت المقدس على يد المصريين بالذات[٥]، والبرق الشامى[٦]، وفيه يتناول بتفصيل الأحداث الأيوبية السياسية والحربية، وله مختصر بعنوان: سنا البرق الشامى[٧]، من الفتح البندارى الأصفهاني (٦٤٣هـ / ١٢٤٥م)، وتاريخ دولة آل سلجوق[٨] وفيه يتناول نشأة

---

(١) تحقيق وترجمة فرنسية من Derenbourg، ط. Paris، ١٨٨٦ - ١٨٨٩، ١٩٤٤، وتحقيق وترجمة إنجليزية من Hitti، ط. Princeton، ١٩٢٩ - ١٩٣٠، وترجمة ألمانية من Schumann، ط. Innsbruck، ١٩٠٥، وترجمة روسية من Sale، ط. Moscou، ١٩٥٨.

(٢) عنه: وفيات، ٢ ص ٣٠٥، ٣٠٦.

(٣) النجوم، ٦ ص ١٧٨ س ٥.

(٤) ط. مصر ١٢٩١هـ/ ١٨٧٢. ولدينا طبعة أخرى غيرمستعملة، من تحقيق محمد صبيح، القاهرة ١٩٦٥، وتحقيق Landberg، ط Leiden، ١٨٨٨؛ وترجمت بعض أجزائه من Kraemer في ١٩٥٢، وأيضًا من: Massé.

(٥) انظر. بعده.

(٦) ضاع معظمه، ولم يبق منه غير مجلدى ٣ و ٥، ويوجدان في مخطوطة: ط. Code: Or. Leiden. 1562،

(٧) تحقيق وتقديم فتحية النبراوى، القاهرة ١٩٧٩.

(٨) تحقيق Derenbourg، ط. Paris، ١٨٨٩، وتحقيق مصر ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م. وهو غير كتاب الحسينى، صدر الدين، أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق إقبال، لاهور ١٩٣٣.

السلاجقة، والأخبار التاريخية منذ قيام دولة صلاح الدين من سنة ٥٦٢هـ / ١١٦١م إلى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م، وله هو الآخر اختصار من الفتح البندارى أيضًا، وخريدة القصر وجريدة أهل العصر[١]، وهو مؤلف ضخم به أخبار الشعراء الذين كثروا فى عهد صلاح الدين من مصر والشام والعراق والمغرب؛ بسبب تغنيهم بانتصاراته.

وكتابى ابن الجوزى - أبو الفرج - (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م): المنتظم فى تاريخ الأمم الملوك[٢]، وفيه يتناول أخبارًا كثيرة عن علاقات الأمم والدول، وكتاب سميه ابن الجوزى - سبط - (ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م): مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان[٣]، وفيه تناول فترة حرجة بين سقوط دولة الأيوبيين، وقيام دولة سلاطين المماليك، وسرد تفاصيل زائدة عن تنافس السلاجقة والفاطميين على ببت المقدس، وتحركات الفرنجة فى فلسطين.

وكتاب ابن الأثير[٤] - عزّ الدين - (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م): الكامل فى التاريخ[٥]،وهو من خيار التواريخ على حسب قول المؤرخ ابن خلكان، ويزيد من أهميته فى أنه يعرض الأحداث على حسب السنين، وأن ابن الأثير نفسه كان شاهد عيان على حروب صلاح الدين، فهو من آل أثير الذين اشتهروا بالكتابة والتأليف، وله كتاب آخر بعنوان: التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية[٦]، وفيه يتناول تاريخ الدولة الأتابكية فى الموصل ببلاد الجزيرة، بعد تفكك الدولة الأيوبية، التى أسسها صلاح الدين، فابن الأثير تربى فى كنفها، إذ إنه موصلى المولد.

---

(١) وهو فى عشر مجلدات، ولم ينشر منه إلا أجزاء، تحقيق احمد أمين وشوقى ضيف، القاهرة ١٩٥١، وتحقيق فى الشام من غير تاريخ، وفى بغداد ١٩٥٥، وفى تونس ١٩٦٦.

(٢) ط. فى الهند من Krenkow، حيدر آباد ١٣٥٧، ١٣٥٨ هـ. نشرت منه الأجزاء من ٥ - ١٠، كما حقق منه الجزء ١٧، بيروت ١٩٩٢؛ انظر. Ency of Isl., (Ibn al-Djawzi) 2 ed, t 3, p. 751 - 2.

(٣) نشر بعضه، وهو الجزء الثامن من Jewett، فى Chicago، ١٩٠٧، و ط حيدر آباد فى جزئين ١٣٧٠هـ / ١٩٥٢م. عنه:

Ency of Isl, (art Ibn al-Djawzi) 2 ed, t 3, p 752 - 3.

(٤) وفيات الأعيان، ١ ص ٤٩٤، ٤٩٥.

(٥) حققه النجار ونخبة من العلماء، القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٨٨٥م. فى ١٢ جزءًا. كان له أخان: أشهرهم الأديب: ابن الأثير، ابوالفتح.

(٦) تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م.

وكتاب ابن شداد ـ بهاء الدين ـ (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين[١]، وفيه يتناول سيرة صلاح الدين وفتوحاته، فقد كان ابن شداد قاضى عسكره فى القدس.

وكتاب ابن العديم ـ كمال الدين ـ (٦٦٢هـ / ١٢٦٣م): زبدة الحلب من تاريخ حلب[٢]، الذى خصصه للكلام عن حلب، التى كانت من أهم الأتابكيات السلجوقية، والحلب هو ما يحلب من الناقة، والزبد هو خلاصته، مما يؤكد على دسامة مادة الكتاب التاريخية.

وكتاب أبى شامة ـ عبد الرحمن ـ (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م): الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية[٣]، ولد فى دمشق، وقضى بقية حياته فى القاهرة، وله كتاب آخر بعنوان: الذيل على الروضتين[٤]، عبارة عن تراجم لرجال القرنين السادس والسابع، وفى كليهما ينقل عن مؤرخين كثيرين، وبخاصة عن القاضى الفاضل.

وكتاب ابن شداد ـ عز الدين ـ (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة[٥]، وهو كتاب تاريخى وجغرافى يهتم بمدينتى حلب ودمشق، وفيه يتكلم عن ملوك الأيوبيين المتأخرين.

---

(١) ط. مصر ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م، وتحقيق الشيال، ١٩٦٤، له ترجمات متعددة: لاتينية ١٧٧٥م، وإنجليزية من Conder ١٨٩٧، وطليانية من Gabriel، كما حققها DeSlane فى R.H.C.Or H, 1884، حيث يوجد له ملحق من شاهنشاه بن أيوب (صاحب حماة) بعنوان: منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة، وفيه يتناول تاريخ الفاطميين على الخصوص، أما عن كتابه فهو بعنوان: مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨. وهنا نذكر مخطوط آخر من: الحنبلى ـ عز الدين ـ (٨٧٦ هـ/ ١٤٧١م)، بعنوان: شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، حيث يسير فيه على نهج ابن شداد فى الإعجاب بآل أيوب، ويوجد مصوراً فى مكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٤٠٣١ تاريخ، المجلد السابع عشر. وله كتاب آخر بعنوان: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.

(٢) حققه سامى الدهان فى جزئين، دمشق ١٩٥١، وله ترجمة من Blochet بعنوان:
Histoire d, Alep. Paris, 1895 - 1898.

(٣) نشر فى جزئين، بإشراف عبد الله بن مسعود، القاهرة ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨هـ / ١٨٧٢، وحقق مع دراسة من حلمى محمد أحمد، فى جزئين، القاهرة ١٩٥٧م ـ ١٩٦٢، وله ترجمة فى:
R.H.C.H or IX, 1898; V, 1906
وعن أبى شامة، انظر. Ency of Isl, (art AbúShâma) 2cd, tI, p. 154

(٤) نشر عزت العطار، القاهرة ١٣٦٦ / ١٩٤٧.

(٥) الجزء الأول، تحقيق D.Sourdel، دمشق ١٩٥٩، والثانى تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥٦، وط. =

وكتـاب ابن واصل ـ محمد بن سالم ـ (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م): مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب[١] وفيه يتناول بتفصيل تاريخهم إلى عهد السلطان بيبرس المملوكى، وهو عاصر نجم الدين أيوب، وشاهد عيان لحملة ملك فرنسا لويس التاسع على مصر، مما يؤكد تداخل تاريخ دولة الأيوبيين فى تاريخ دولة سلاطين المماليك فى مصر.

ثم نذكر تآليف معاصرة للأيوبيين تناولت نظم دولتهم السياسة والاقتصادية، وبخاصة مواردها المالية فى مصر، وتفاصيل دواوينها، إذ كان لا بد للدولة الأيوبية أن تنظم دولتها من جميع النواحى، حتى تتفرغ لأهدافها الحربية، وإن كانت فى نظمها وارثة لنظم الخلافة الفاطمية[٢]، وأغلبها من تأليف كبار المتخصصين فى النواحى المالية وفى مقدمتهم المخزومى ـ أبو الحسن ـ (ت ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) وكان من كبار كتاب الفاطميين، حيث استمر أفراد أسرته يعملون كتابًا للأيوبيين من بعدهم: المنهاج فى علم خراج مصر[٣]، وله مختصر: المنتقى من كتاب المنهاج فى علم الخراج[٤]؛ والشيزرى (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م): نهاية الرتبة فى طلب الحسبة[٥]، الذى ألف فى عهد صلاح الدين وابن مماتى (ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م): قوانين الدواوين[٦]، وعثمان النابلسى (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، وهو مؤرخ الدواوين

بيروت ١٩٥٧، وتحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٥٦، وتحقيق يحيى عبادة، دمشق ١٩٧٨، وتحقيق من Anne - Marie، فى Bulletin d, Etudes Orientales xxll-xxxlll, 199، وله ترجمة مذيلة بعنوان: Description de la Syric du Nord . Damas, 1984

(١) قام بتحقيقه والتقديم له الشيال، فى ٣ أجزاء، ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠، ومن ٤ ـ ٥، تحقيق حسنين ربيع، ١٩٧٢ ـ ١٩٧٧، ويوجد مخطوطًا بدار الكتب، برقم ٥٣١٩، ومخطوطًا فى (B.N.) برقمى 1702,1703

يوجد كتاب آخر لابن واصل بعنوان: التاريخ الصالحى، وهو مختصر، وله صورة شمسية بمكتبة كلية آداب إسكندرية.

(٢) رسالة الماجستير: نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبى عام ١٩٨٣، من أحمد فؤاد السيد (بإشرافى).

(٣) مخطوط بالمتحف البريطانى B.M. Ms, no, : Add 23483

وله دراسة بالفرنسية من Cahen، وهو مكتشف لمخطوطته؛ بعنوان: Makhzúmiyyát. Leiden, 1977، كما وجدت لها دراسة سابقة من حسنين ربيع Oxford, 1972

(٤) تحقيق Cahen، ومراجعة راغب، فى Ann Islamo، عدد ٨، القاهرة ١٩٨٦؛ وله ملخص فى: Ann Islamo, No 8.

(٥) تحقيق الباز العرينى، القاهرة ١٩٤٦. ويوجد موسعًا فى كتاب ابن الأخوة (ت ٧٣هـ/ ١٣٢٩م): معالم القربة فى أخبار الحسبة، تحقيق Levy، ط. Cambridg، ١٩٣٨

(٦) تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣.

الأيوبية وعمل فى دواوين السلطان الكامل، حفيد صلاح الدين: لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية(١)، وله كتاب آخر عن تاريخ الفيوم(٢)، أشبه بتقرير إدارى عن الإقليم فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بعنوان: إظهار صنعة الحى القيوم فى تراتيب بلاد الفيوم، ورسالة لمجهول ألفت لصلاح الدين عن: السلاح(٣)، فيها معلومات ثمينة عن الفن الحربى فى وقته، ومما يؤيد هذا الرأى أن المؤلف يذكر اسم صانع الأسلحة: أبا الحسن الأبرقى الإسكدرانى، الذى كان يمارس مهنته فى صنع الأسلحة من أيام الفاطميين.

وتوافرت أيضًا مادة قيمة ومعاصرة من تراث رحالين مسلمين، زاروا مصر فى وقت الأيوبيين. وهى حقبة من الزمان زخرت بأحداث الحروب الصليبية، فى ظروف كانت فى غاية الحرج للمسلمين جميعًا، ضمت مذكرات ومعلومات جغرافية، بالإضافة إلى أنهم شهود عيان على العصر، فكتبهم أشبه بالمعاينة للمنطقة من النواحى السياسية والاقتصادية والدينية والحضارية، أبرزت الإنجازات والسلبيات، ومنهم: الهروى الموصلى (ت ٦١١هـ/ ١٢١٥م)، الملقّب بالسائح الهروى لكثرة تنقلاته فى المشرق، فى كتابه: الإشارات إلى معرفة الزيارات(٤)، حيث كان مولعًا بزيارة أضرحة الأولياء والمقامات، وكان يكتب بخطه اسمه على حوائطها؛ مما جعله يدون النقوش التى رآها، ويذكر كثيرًا من الأبنية، كما كانت له معرفة بفنون الحرب وأسلحتها، فربط بين السياسة والحرب فى كتابه: التذكرة الهروية فى الحيل الحربية(٥)، وابن جبير الأندلسى (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)، فى كتابه: رحلة(٦)، الذى كتبه بأسلوب الرحالة المتجول، وقد قام بعدة رحلات متتالية

---

(١) تحقيق Cahen فى: Bull d, Etud. Or. Damas XVI, 1958-60

(٢) ط. القاهرة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧، وتحقيق Moritz، القاهرة ١٨٩٩، ودراسة من Cahen فى Arabica, III, 1956, P. 8 - 30

(٣) عنوانه فى الترجمة Un Traité D'armurérie ، فى: B.E.O, txII, annécs 1947-8, p. 103 - 163

(٤) حققه Sourdel، دمشق ١٩٥٢. عنه:
Ency of Isl , (árt al-Harawí al, Moúsilí 2ed. t 3, p. 178.
تسميته بالهروى؛ نسبة لهراة فى أفغانستان حاليًا.

(٥) تحقيق وتعليق مطيع المرابط، دمشق ١٩٧٥.

(٦) طبع فى مصر فى ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٦، وتحقيق من حسين نصار، بيروت، وحقق على يد Wright فى مجموعة de Goeje، وله ترجمة طليانية من Schiaparalli، وفرنسية من Gaud، وإنجليزية من Broadelung، وانظر أيضًا ما كتبه عنه كراتشكوفسكى فى: تاريخ الأدب الجغرافى، وله ترجمة عربية، ١ ص ٣٠٠.

الفترة الأيوبيـة المتداخلة في تاريخي الفاطميين والممـاليك، والقلقشندى (ت ٨٣١ هـ/ ١٤٢٨م). صبح الأعشى فـى صناعة الإنشا[١]، وبه نصوص وثائقـية، منها سجلا تعيين شيركوه وصلاح الدين فى وزارة الفاطميين، والمقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) الذى نشأت به وبتلاميذه نوعية جديدة فى تاريخ مصر الإسلامية، وكتابه بعنوان: المواعظ والاعتـبار بذكر الخطط والآثار[٢]، ويختص بخطـط القاهرة التى اتسعت اتسـاعًا كبيـرًا، حتى عُرفت بالمدينة الكـبرى، بعد أن ألحقت بهـا عواصم مصر الإسلامية السابقة، وامتدت إلى قلعة الجبل، وله كتاب آخر بعنوان: السلوك لمعرفة دول الملوك[٣]، وكلاهما فيه تفاصيل مـسهبة عن الأيوبيين في مصر والشام وبلاد الجزيرة وغيـرها، والعينى (ت٨٥٥ هـ/ ١٤٥٢م): عقد الجـمان فى تاريخ أهل الزمان[٤]، وابن تغـرى بردى ـ أبو المحـاسن ـ (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة[٥]، وفيه يتناول حقبة الأيوبيين مع غيرهم فى تاريخ مصر الإسلامية عامًا بعد عام بإسهاب كبير، مع توالى ذكره لمنسوب مياه فيض النيل، وله كـتاب آخر هـام، بعنوان: حوادث الدهور[٦]، تناول فيـه تاريخ الدولة الأيوبية، والسـيوطى (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): حسن المحاضـرة فى أخبار مصر والقاهرة[٧]، وابن العماد (ت ١٠٨٩ / ١٦٧٩): شـذرات الذهب فى أخبار من ذهب، وغيرهم[٨].

---

(١) ط. وزارة الثقافة، ومن قبل طبع دار الكتب، وترجمة لبعضه من .Wust

(٢) ط. بولاق ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣، فى جزئين، وفـى أربعة أجزاء ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧، وترجـمة لبعـضه من: Bouriant, Casanova, Griveau, Wust, Wiet؛ انظر. الشيال، التـاريخ والمؤرخون فى مصر. ١٩٥٨، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ وله فهرست من هريدى، المعهد الفرنسى (X x / 2) ١٩٨٣.

(٣) تحقـيق زيادة (١، ٢ / ٦ أقسـام)، القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨، وعاشـور (٣و٤) القاهرة ١٩٧٠،وترجـمة لبعضه من: Blochet, Quatremère

(٤) مخطوط بدار الكتب برقم ١٥٨٤ تاريخ.

(٥) ط. وزارة الثقافة، ومن قبل دار الكتب، وترجمة من :Juynboll, Popper

(٦) تحقيق Popper، ط. Barkeley

(٧) فى جزئين، القاهرة ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩.

(٨) ط. القاهرة ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ.

الفترة الأيوبية المتداخلة في تاريخي الفاطميين والمماليك، والقلقشندى (ت ٨٣١ هـ/ ١٤٢٨م). صبح الأعشى فى صناعة الإنشا[١]، وبه نصوص وثائقية، منها سجلا تعيين شيركوه وصلاح الدين فى وزارة الفاطميين، والمقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) الذى نشأت به وبتلاميذه نوعية جديدة فى تاريخ مصر الإسلامية، وكتابه بعنوان: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار[٢]، ويختص بخطط القاهرة التى اتسعت اتساعًا كبيرًا، حتى عُرفت بالمدينة الكبرى، بعد أن ألحقت بها عواصم مصر الإسلامية السابقة، وامتدت إلى قلعة الجبل، وله كتاب آخر بعنوان: السلوك لمعرفة دول الملوك[٣]، وكلاهما فيه تفاصيل مسهبة عن الأيوبيين في مصر والشام وبلاد الجزيرة وغيرها، والعينى (ت٨٥٥ هـ/ ١٤٥٢م): عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان[٤]، وابن تغرى بردى ـ أبو المحاسن ـ (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة فى تاريخ مصر والقاهرة[٥]، وفيه يتناول حقبة الأيوبيين مع غيرهم فى تاريخ مصر الإسلامية عامًا بعد عام بإسهاب كبير، مع توالى ذكره لمنسوب مياه فيض النيل، وله كتاب آخر هام، بعنوان: حوادث الدهور[٦]، تناول فيه تاريخ الدولة الأيوبية، والسيوطى (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة[٧]، وابن العماد (ت ١٠٨٩ / ١٦٧٩): شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، وغيرهم[٨].

---

(١) ط. وزارة الثقافة، ومن قبل طبع دار الكتب، وترجمة لبعضه من .Wust

(٢) ط. بولاق ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣، فى جزئين، وفى أربعة أجزاء ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧، وترجمة لبعضه من: Bouriant, Casanova, Griveau, Wust, Wiet؛ انظر. الشيال، التاريخ والمؤرخون فى مصر. ١٩٥٨، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ وله فهرست من هريدى، المعهد الفرنسى (X x / 2) ١٩٨٣.

(٣) تحقيق زيادة (١, ٢ / ٦ أقسام)، القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨، وعاشور (٣و٤) القاهرة ١٩٧٠، وترجمة لبعضه من: Blochet, Quatremère

(٤) مخطوط بدار الكتب برقم ١٥٨٤ تاريخ.

(٥) ط. وزارة الثقافة، ومن قبل دار الكتب، وترجمة من :Juynboll, Popper

(٦) تحقيق Popper، ط. Barkeley

(٧) فى جزئين، القاهرة ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩.

(٨) ط. القاهرة ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ.

وأخيرًا، نذكر مؤلفات الحروب الصليبية أو ماسماه المسلمون حركة الفرنج، وهى فى غاية الأهمية للفترة الأيوبية فى مصر؛ لسبب أن الدولة الأيوبية قضت حياتها كلها فى كفاح مع الفرنجة، وهم سكان أوربا الذين تحركوا نحو الشرق الإسلامى بموجاتهم المكثفة والشرسة؛ ليس بهدف الاستعمار فيه فقط، وإنما أيضًا بمشروع مبيت للاستيطان فى فلسطين، التى تعتبر واسطة العقد فى المنطقة العربية، وباستعادة الأرض المقدسة من المسلمين: De Recuperatione Sanctae Terre؛ بحيث سجلوا حتى خطوط سير حملاتهم Itineraria. وقد ورد معظم ماكتب عنها فى الموسوعة الفرنسية الكبيرة المعروفة باسم: "Recueil"[1]، التى جمعت نصوصها ومعظمها من الشاهد العيان، منذ بداية القرن الثالث عشر، وموزعة بين أصناف من المؤرخين الذين كتبوا عنها: فمنهم اليونانيين، مثل "Jean Phocas" و"Niketas"، ومن الارمن: متى الرهاوى "Mathieu d'Edesse"، ومن الأوربيين بخاصة وليام - وليم - الصورى "Willemero Terensi"[2] وهو مستشار لعمورى "Amauri" ملك بيت المقدس، وشاهد عيان على حروبه مع الفاطميين، ومن مؤرخين عرب، ذكرت لهم فيها بعض تآليفهم التى تناولت الحروب الصليبية بغزو بلادهم؛ حيث قام De Slane، بترجمة وتحقيق نصوصها العربية. ومع ذلك؛ فإن بعض هذه الكتب المعاصرة للحروب الصليبية ذكرت فى كتب أخرى، مثل: Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades[3]، بإشراف Riant، وفى: Bibliographie des Croisades[4]؛ بإشراف Michaud. كذلك ظهرت مؤلفات للسريان، وهم مؤرخون من أصل عربى عن قوانين مملكة بيت المقدس اللاتينية[5]، مثل: قوانين "Assises" - أو أسس - بالإضافة إلى مصادر بيزنطية، مثل: كتاب أناكومنينا "AnnaComnenus" فى قصائدها الكسياد "Alexiadis"[6].

---

(١) إنظر:
Recueil des Historiens des Croisades (R.H.C) 16 Vols. Paris, 1841 - 1956: Historiens arméniens 2 Vols., Historiens grecs 2 Vols, Historiens occidentaux 5 Vols, Historiens orientaux 5 Vols.

(٢) ظهرت له ترجمة من حسن حبشى وتعليق فى عدة أجزاء، بعنوان: الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٩١ - ٩٤، وعنوان الكتاب الأصلى هو: الأعمال التى تم إنجازها فيما وراء البحر.

(٣) انظر: Archive de L'Orient Latin," فى: (A.O.L. 11 - 224. Paris, 1881).

(٤) فى جزئين، ١٨٢٢م. وله مؤلف بعنوان: Histoire des Croisades. 4 Vols. Paris, 1841 - 1852

(٥) بتاريخ ١٨٤١ - ١٨٤٣م.؛ انظر: Assises de Jerusalem R.H.C.occ t.II.

(٦) ترجمة حسن حبشى، القاهرة.

أما المؤرخون الحديثون وهم متخصصون "Ex - professo"؛ فإنهم تناولوا تاريخ الدولة الأيوبيـة؛ وبخاصة من المستشرقين، الذين زاد اهتمامهم بتاريخها بسبب الصراع الصليبى معها، فنذكر منهم:

Lane - Poole, Grousset, Runciman, Ashtor, Strauss, Elisséef , Tourneau, D. Sourdel, J. Sourdel Thomine, Benrard Lewis, Hodgson, Cahen, Creswell, Gabrielli, Abel, Champdor, Gottaschalk, Ehrenkreutz , Casanova, Bassietti, Kahle, Smith, Lófgren, Norgate, Marin, Hitti, Gibb, Slaughter, Gaston - Paris, Sauvaget,

أما المؤرخون الحديثون فى مصـر، الذين كرسوا لها دراسات، فنذكر منهم: جـمال الديـن الشيـال، والبـاز، وعاشـور، وحـسن حبـشى، وحـسين مؤنس، وسعداوى، وفتحية النبراوى، وسوريال عطية، وسوسن نصر، وزبيدة عطا، وبدر الدين، وياسين الحموى، وأبو حديد، وسعيد العريان، وصلاح البحيرى، وأحمد بيلى، وحسنين ربيع، وحمزة، وكامل حسين، ومصطفى زيادة، وسليمان صائغ، وعلى بيومى، وفاروق عمر، وأحمد فؤاد (رسالة ماجستير بإشرافى).

جـ - أسماء ملوك الأيوبيين فى مصر

	هجرى	ميلادى
* صلاح الدين يوسف.	٥٦٧ .	١١٧١
* العزيز عثمان عماد الدين.	٥٨٩ .	١١٩٢
* المنصور محمد ناصر الدين.	٥٩٥ .	١١٩٨
* العادل أبو بكر سيف الدين.	٥٩٦ .	١٢٠٠
* الكامل محمد ناصر الدين.	٦١٥ .	١٢١٨
* العادل الصغير (الثانى) سيف الدين.	٦٣٥ .	١٢٣٨
* الصالح نجم الدين أيوب.	٦٣٧ .	١٢٣٩
*المعظم توران شاه.	٦٤٧ .	١٢٤٩
* عصمة الدين أم خليل «شجرة الدر».	٦٤٨	١٢٥٠
* الأشرف موسى (ابن السعود).	٦٤٨ .	١٢٥٠

الفصل الأول

أحوال الخلافة العباسية، وظهور السلاجقة

كان ظهور السلاجقة فى فترة احتضار الخلافة العباسية؛ فمنذ مدة انقسمت أملاكها الواسعة بين حكام مستقلين؛ بحيث لم يتبق لها غير بغداد العراق، وأصبح الخليفة نفسه أشبه بشبح لاسلطان له تحت وصاية المتغلب عليه من قواده الأتراك الأقوياء؛ فظهرت لهم وظيفة أمرة الأمراء[1]، التى أبطلت الوزارة والدواوين، وأصبح لمتوليها كل السلطة من دون الخليفة، ولهذا أطلق المؤرخون على الخلفاء العباسيين: الخلفاء المستضعفين[2]؛ كما أطلق المؤرخون على خليفة تركيا - فى وقت ضعفها - الرجل المريض.

ولم يقف ضعف الخليفة العباسى عند حد أن يسيطر عليه رجل أقوى منه، ولكن تطور الأمر إلى أن سيطرت عليه أسرة من الديلم الشيعية، تخالفه فى المذهب، وتحكم معه وارثا عن وارث. ففى أثناء تنازع القواد الترك المستبدين به فى بغداد، تمكنت أسرة بنى بويه[3] - على اسم جدها أبى شجاع بويه - من دخول العراق؛ حيث كان أجدادها يعيشون كجند مرتزقة أو على صيد السمك. وكان أول ظهورها بين قبائل الديلم البدوية، وهى من أصل فارسى، وتقيم فى الجنوب الغربى من بحر قزوين، ولم يكن الأمويون ومن بعدهم العباسيون قد تمكنوا من فتح بلادهم؛ إلا أنهم اكتسبتهم الدعوة الشيعية وتحولوا إلى الإسلام فى أواخر القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى؛ حيث اعتنقوه على المذهب الزيدى، من فوق الشيعة الأولى، التى كانت من أسباب قيام الخلافة العباسية، وزوال

(١) ابن الأثير، الكامل، ٦ ص ٢٥٤. ظهرت أمرة لأول مرة فى عهد الخليفة العباسى الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩هـ / ٩٣٤ - ٩٤١م).

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨ س ٣.

(٣) الكامل، ٦ ص ٢٣٠ ومابعدها؛ المقريزى؛ النزاع والتخاصم، ص ٦٤؛ ابن خلدون، المقدمة، ص١٥٨؛ انظر. Ency. de L'I Sl. (Art Búyides) TI, P. 827 - 828.

الخلافة الأموية. ومنذ ذلك الحين بدأت تظهر لبنى بويه أطماع فى أملاك الخلافة، على أيدى زعماء لهم. ولكنهم على أيدى بنى بويه، كوّنوا دويلات قوية فى إيران ونواحيها، ودخل بهم أحمد بن بويه إلى بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، وتلقّب بمعز الدولة، وعزل الخليفة المستكفى، وولى بدلاً من المطيع لله حتى يطيعه. فكانوا بنو بويه مع الخلفاء العباسيين، أكثر استبدادًا من القواد الترك السابقين؛ وذلك لأنهم كشيعة لم يكن عندهم باعث مذهبى على الطاعة للخلفاء السنة؛ فكانوا يعزلونهم ويسملون عيونهم لو يقتلونهم. كذلك أصبح الواحد منهم؛ يسك العملة باسم شاهنشاه أى ملك الملوك، ويخطب له على المنابر، ويقرن اسمه باسم الخليفة العباسى فى خطب المساجد، وتضرب له الدفوف ـ الطبول ـ أمام قصره فى الضحى والعشى، وهذا تكريم لم يكن يحظى به غير الخليفة من قبل(١).

* *

ولكن نازع الشيعة البويهيين فى السيطرة على الخليفة العباسى أسرة السلاجقة(٢)، على اسم سلجوق(٣) ـ بمعنى القوس الحديد ـ ابن يقاق أو دقاق، وهذا الأخير كان يعتبر من زعماء قبائل الغزّ التركية، وهم من أبناء عمومتهم، وكان ملكهم اسمه يبيجو، وكان سلجوق هو قائد جيشه ـ سوباشى ـ إلا أنه حدث نزاع بينهما، وكان الملك يحقد عليه؛ مما جعل سلجوق ينتقل إلى بلاد الإسلام بمساعدة زوجة الملك، إذ كان سلجوق، مع أنه كبير السن؛ إلا أنه قوى البنية، متمرس بالقتال ومشهور فيه. ويظهر من تاريخهم الأول أنهم جاءوا من أعماق القارة الآسيوية، وأنهم نزحوا من شمال بحر قزوين إلى جنوبى روسيا الحالية، وعاشوا على ضفاف نهر إتل ـ الفولجا ـ ثم انتقلوا إلى نواحى بلاد ماوراء النهر الإسلامية(٤)، وأنهم كانوا وثنيين فى أغلبهم، وأن بعضهم كانوا مسيحيين، ولكن لما نزحوا الى ناحية خُوارزم أصبحوا أكثر استعدادًا لقبول الإسلام؛ واسم

---

(١) النجوم، ٤ ص ١٤٢.

(٢) الحسينى صدر الدين، اخبار الدولة السلجوقية؛ عماد الدين، تاريخ دولة آل سلجوق؛ السلوك؛ ١ / ١ ص ٣٠ ومابعدها؛ انظر. Ency. de L'Isl. (Art Seljúkides) éd, t4, p.216 Sqq. يقصد بالغزّ الترك والتركمان والقفشق. السلوك، ١ / ١ ص ٣١ ،حاشية ٧.

(٣) الحسينى صدر الدين، أخبار الدولة السلجوقية، ص ١،٢.

(٤) عنها، انظر. معجم البلدان، ٧ص ٣٧٠ ومابعدها. المقصود بالنهر جيحون.

الغزّ على مايبدو أطلق على قبائل الترك التى دخلت فى الإسلام، وربما سلجوق هو أول من أدخل الغزّ فى الإسلام ؛ ولكنهم اشتهروا بالاسم الفارسى تركمان، أى أنهم مسلمون بحق وإيمان، وأنه تعطر قلبهم بالإسلام ؛ مع أن الإسلام نشأ بعيدًا عنهم،وكانوا بدوًا رحلاً أشبه ببدو العرب، ولا يعرف لهم مواطن استقرار، ولا يهتمون بالزراعة أو التجارة، وكان همهم الوحيد الاشتغال بالجندية. ويذكر أحد المؤرخين أن السماء كما يقولون أصبحت تمطر تركًا، وبلغ الإعجاب بهم حتى أن المؤرخ الخوارزمى قال: من لم يكن له عبد، فليلحق تركيًا به؛ بحيث أصبحوا يؤلفون أغلب جيوش دول الإسلام، وانتهى بهم سلطان العرب تمامًا بانتهاء العصر العباسى الأول تقريبًا؛ بل تطور الحال إلى أن أصبحوا حزبًا له وجوده فى دول إسلامية كثيرة. والواقع أنهم لم يكن يسعون فى حروبهم إلى التخريب؛ وإن كانت فيهم غلظة، ولذلك لما دعاهم الخليفة بالرحمة بالعباد؛ تقبلوا خطابه بكل احترام وتباهوا به.

وقد بدأ ظهور السلاجقة السياسى، منذ أن تداخلوا مع بقايا السامانيين ـ إحدى الدول الفارسية فى بلاد ماوراء النهر ـ إذ إن السامانيين كانوا يطلبون عون الغزّ هؤلاء ضد أعدائهم فى الدول المجاورة فى وسط آسيا؛ فدخل الغز فى خدمتهم، وربما أخذوا الإسلام عنهم(1). ولما ساءت علاقة الغزّ بالسامانيين، انتقلوا إلى بلاد خراسان فى جنوبى منطقة ماوراء النهر، بقيادة طغرلبك حفيد سلجوق(2)؛ حيث كانوا هجرة جامحة تجتاح كل شىء، وهى بلاد واسعة كانت تخضع لدولة مجاهدة تقوم على حدود الهند، وهى الدولة الغزنوية، تعمل على تحويل الهنود للإسلام. ولكن حدث نزاع جديد بين الغزّ وهذه الدولة الغزنوية؛ فحاربها السلاجقة واستولوا على أملاكها منذ سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨م(3)، وكوّنوا لهم دولة من دول الأطراف، وانتشروا فى نواحى متعددة، حتى دقوا أبواب العراق. فلما استدعاهم الخليفة العباسى القائم بأمر الله فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥م؛ لإنقاذه من الشيعة البويهيين فى العراق، وكانوا طردوه من منصب

(١) أنظر: بارتولد، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة عربية، ص ٥٧.
(٢) بتفصيل: وفيات الأعيان، ٢ ص ٤٣٨ ومابعدها.
(٣) الدولة السلجوقية، ٢ ص ٤٣٨ ومابعدها.

الخلافة، أسرع طغرلبك بتلبية ندائه، وأعاده إلى رتبته. وبذلك أصبح السلاجقة أصحاب السيطرة فى بغداد؛ حيث اتخذ طغرلبك لنفسه لقب سلطان، ونقشه على العملة الإسلامية(١)، ولأول مرة، وهو اللقب الذى ورد فى القرآن بمعنى القوة والنفوذ، وكان يطلق على الخلفاء وحدهم(٢).

ومن المحقق أنه لم تتحسن أحوال الخلافة العباسية بمجىء السلاجقة إلا من الناحية الروحية، بالقضاء على الدولة البويهية الشيعية، التى كانت تسيطر عليهم وتخالفهم فى المذهب؛ إذ المسألة لم تتعد تغيير المتغلب عليهم "Changer de Maître"، فهم مثل البويهيين جعلوا الخلافة اسمًا بلا مسمى. ولكن الأهمية الكبرى لمجىء السلاجقة جاءت من أنهم كانوا أول هجرة تركية حقيقة فى العالم الإسلامى؛ فتحت الباب على مصراعيه لهجرة أفواج الأتراك من وسط آسيا إلى الشرق الإسلامى؛ مما جعل التاريخ الإسلامى إلى عصرنا الحديث القريب، يتسم بسيادة الترك.

ولقد أصبح من أهداف السلاجقة الثابتة الاستحواذ على ثقة الشعوب الإسلامية بمهاجمة أعداء الإسلام، وبرزت فكرة الجهاد وتأكدت عندهم؛ بحيث عادت بهم المشاعر الإسلامية قوية، وأصبح الدين عند السلاجقة هو كل شىء. فطغرلبك رئيس البيت السلجوقى كان محافظًا على صلاة الجماعة، ويصوم يومى الإثنين والخميس من كل أسبوع. فانكمشت بهم القوميات والعصبيات، ولم يتعصب السلاجقة لجنسهم، ويرون أن الدين الإسلامى يجب أن يكون سنيًا، وهو مذهب الخلافة العباسية والالتفاف حولها، وأنها الوسيلة الوحيدة لكى تسير بها الشعوب الإسلامية معًا فى طريق واحد، وخصوصًا أنهم أظهروا لها احترامًا كبيرًا(٣)، على عكس البويهيين الشيعة، الذين أذلوها وعملوا على إلغائها؛ بحكم الاختلاف فى المذهب، فتباهوا بها، وتباركوا بالتقرب منها؛ بحيث إن الخليفة

(١) أنظر. Lane - Poole: Catalogue of Oriental Coins, 3, p. 28; Ency. de "Isl (Art Sultán) t4, 568. sqq.

(٢) الطبرى (Annales)٣: ٤٢٦.

(٣) آل سلجوق، ص ٣.

العباسى بادلهم الإحساس؛ فالقائم العباسى حرص على أن يصاهر طغرلبك، فتزوج من ابنة أخيه أرسلان خاتون.

فعلى أيدى السلاجقة ظهرت المدرسة الفقهية، التى بلورت فكر السلاجقة السنى فى القرن الرابع الهجرى، واشتهرت بالمدرسة النظامية، وهى أول مدرسة منظمة، بُنيت فى الإسلام؛ إذا استثنيت منها مدارس الفاطميين، نسبة إلى من أقامها وهو المفكر والمعلم والوزير السلجوقى نظام الملك (ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م)[١]؛ بحيث عممت فى القرنين الخامس والسادس الهجريين، وانتشرت فى مدن العراق وفارس وخراسان، وبخاصة فى بغداد عاصمة الخلافة، وكانت نحو الثلاثين، كما يذكرالرحالة ابن جبير[٢] (٥٠٤ ـ ٦١٤ هـ / ١١٤٥ ـ ١٢١٧م)، فكان تعيين مدرسيها من صلاحية هذا الوزير. حقًّا إن السلاجقة نشأوا أميين، إلا أنهم كان لهم احترام للفكر الإنسانى، وإن صبغوه بصبغة الإسلام، فكان المذهب الأشعرى[٣] السنى، وهو مذهبهم، يختلط بالفكر الشافعى الذى كان يدَّرس أيضًا فيها؛ إذ كان هو الآخر فى حرب مع المذهب الشيعى. وقد اعتبر هذا الوزير أن التعليم فى المدرسة ضمن الوسائل الأخرى فى حرب المذهب الشيعى. كما تحولت المساجد هى الأخرى فى خدمة المذهب السنى، واعتبرت امتدادًا للمدرسة، بل أحرقت أجزاء من كتاب إخوان الصفا وهم شيعة ببغداد، ونهى الناس عن قراءته، وقتل من الشيعة جماعة منهم.

ففى عهد ألب أرسلان[٤] السلطان السلجوقى الثانى، الذى جاء بعد وفاة عمه طغرلبك فى سنة (٤٥٥ هـ / ١٠٦٣م)، امتد السلاجقة من العراق إلى شمال الجزيرة، وتمكنوا من السيطرة على قبائل الأرمن، وهى عناصر مجهولة الأصل، كانت تعيش بجوار الفرس منذ الزمن القديم، وتحولت إلى المسيحية، ونشأت لها دويلات مستقلة؛ نتيجة لضعف الخلافة العباسية، وقد اعتبر الأرمن الجزء الضعيف فى جبهة الروم ـ بيزنطة ـ ولم يكونوا مخلصين لهم، ولهذا لم

---

(١) كتاب: سياست نامه، ترجمة العزاوى، القاهرة ١٩٧٥.
(٢) رحلة، ص ١١٤؛ انظر. حسين أمين، تاريخ العراق السلجوقى، بغداد ١٩٦٥، ص ٢١٨ وما بعدها.
(٣) أنظر بعده. (فصل ظهور صلاح الدين).
(٤) عنه بتفصيل: وفيات الأعيان، ٢ ص ٤٤٢ ومابعدها؛
Ency de L'Isl, (art Alp Arslán) tI, p.34, 2 éd, tI, p. 40 - 42.

يتضامنوا معهم فى الوقوف أمام السلاجقة، لما واصلوا الزحف الى أبواب آسية الصغرى. فهاجم السلاجقة الروم بجيش بلغ عدده أكثر من ستمائة ألف فارس، جاءوا بهم من شتى المدن الإسلامية، وجهزوه بكل شىء، ومعهم العربات الحربية، ووراءهم قطعان الماشية والأغنام للغذاء. فحاربوا ملك الروم رومانوس الرابع ديوجينوس "Romanos IV Diogenes" - يسميه العرب أرمانوس - الذى جاء هو الآخر لملاقاتهم فى جيش كبير من جنسيات مختلفة، فى ثمانين وخمسمائة ألف بطريق - أى قائد - مع كل بطريق أكثر من ألفى فارس، ومائة ألف نقاب وحفار، ومعهم العرادات والمسامير والمجانيق، ومنها منجنيق عليه ألف ومائتان رجل، وكان أقطع البطارقة الأرض حتى بغداد. وبعد حرب ضروس بينهما، وقعت فى يوم الجمعة فى ملاذكرد أو منازكرد فى عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م[١] - بلدة على الفرات الأعلى فى مدخل آسية الصغرى - تمكن أحد أتباع ألب أرسلان - واسمه شادى - من أسر الملك الرومى، بعد أن أبيد الجيش الرومى كله. فأمر ألب أرسلان بطرح رومانوس تحت قدميه، وراح يضربه بالمقارع ويرفسه، وهو يقول له: ألم أرسل لك فى السلام، فأبيت. وقد كان هذا النصر السلجوقى سببًا فى أن فتحت أبواب آسية الصغرى أمام شعوب الترك، الذين بقوا فيها إلى وقتنا الحاضر، وقضى نهائيًا على خطر الروم على الشرق الإسلامى، وأصبح الترك يعرفون للأوربيين باسم "Tourkoi"، وإن لم يعودوا فى نظرهم مجرد قبائل. فكان ما قام به السلاجقة بانتصارهم على الروم هو كرد فعل لما حدث فى العالم الإسلامى من تمزق وضعف، وتجديدًا للنشاط الإسلامى.

وفى عهد ملكشاه[٢]، سلطان السلاجقة الثالث، الذى خلف أباه ألب أرسلان فى سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م، وعرف بالملك الصياد[٣]، لهوايته رياضة

---

(١) آل سلجوق، ص ٣٥ ومابعدها، انظر: Cahen:
La Campagne de Mantzikert d' après Les Sources Musulmanes. Ext de Byzantion, t Ix, facc 2, Bruxelles, 1934, 214; Ency. de L' Isl. (Art Malâzgerd)t 3, p.214

(٢) عنه بالتفصيل، انظر. وفيات الأعيان، ٢ص ٥٨٦ ومابعدها.

(٣) الراوندى، راحة الصدور، ص ١٣١، ١٣٢.

الصيد، فكان إذا فتح بلادًا أقام فيها أبراجًا من حوافرها وقرونها. فقد أصبحت دولة السلاجقة ذات آمال كبار فى إخضاع المسلمين جميعًا للخلافة العباسية السنية القائمة فى بغداد؛ كوسيلة لإعادة وحدة المسلمين؛ بعد أن تخلصوا من الروم أعداء الإسلام التقليديين، منذ ظهور الإسلام، وهم الذين لم تستطع دول الإسلام قبلهم تحقيقه، ويعتبر انتصارًا لا يدانيه أى انتصار إسلامى سابق. فاستولى السلاجقة على الموصل، وقضوا على سيطرة القبائل العربية فى إقليم الجزيرة[١]؛ حيث كانت هذه القبائل العربية تساند العناصر الشيعية فى بغداد؛ فى ثورتها على الخلافة العباسية السنية.

كذلك قرر ملكشاه لأخيه تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان فتح الشام ومصر، وحتى المغرب[٢]؛ حيث كانت الشام ومصر تحت حكم خلافة الفاطميين منذ أكثر من قرنين، واعتبر السلاجقة أنفسهم أعداء لها، مثلما كان العداء بينها وبين العباسيين على النفوذ. فقد كان الفاطميون شيعة، ولم يكن الدين عندهم مثلما كان عند السلاجقة هو كل شىء، وإنما كان البشر أيضًا متمثلاً فى الإمام الفاطمى، الذى ظهرت له الهوية المصرية الإقليمية، واشتهر بالخليفة المصرى، ودولته فى مصر بدولة المصريين. وقد زاد الخطر السلجوقى السنى على خلافة الفاطميين من أن أتسز بن أوق ـ المعروف بالأقسيس ـ وهو أحد قواد الترك الفاطميين سابقًا؛ وقد أصبح يعمل لحساب تُتُش هذا، فاستولى أتسز على دمشق، وخطب فيها للخليفة العباسى فى ٤٦٧هـ أو ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥م أو ١٠٧٦م[٣]، ومنع فيها الأذان الشيعى ب(حىّ على خير العمل)، وفرح أهل دمشق فرحاً عظيمًا لرجوع السنة إليها، لتخليصهم من سوء تصرف الولاة الفاطميين فيها، ولدينا نقوش منذ ذلك التاريخ باسم الخلفاء العباسيين[٤]، فلم يظهر للفاطميين عملة فيها[٥]، كما سقط بيت المقدس[٦]، الذى كان فى أيدى

(١) ابن الأثير، الدولة الأتابكية، ص ١٣، ١٧.
(٢) آل سلجوق، ص ٦٥؛ الكامل، ٨ ص ١٢٦ (وهذا الأخير يقول أقطعه الشام).
(٣) الكامل، ٨ ص ١٢٢. وقيل ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠م.
(٤) أنظر: Répertoire, t7, p. 214,: Van Berchem: Inscr Arabes de Syrie, p. 12 Suiv, 90 Suiv'; Ency de L, Isl. (Art Damas) t. I, p. 930.
وايضًا مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، القسم الأول، نشر حيدر آباد ١٩٥١.
(٥) أنظر: . Lane - Poole: Hist. Of Eg., p. 161, n (1),
(٦) ابن القلانسى، ذيل، ص ١٦٦.

الفاطميين منذ مجيئهم إلى مصر. ويعتبر كتاب المؤرخ سبط بن الجوزى المصدر التاريخى، الذى انفرد بأخبار مفصلة عن تحركات السلاجقة نحو بيت المقدس؛ فقد كان للفاطميين فيه نائب سماه السلاجقة نائب المصرى. كذلك سقطت حلب التى كانت فى أيدى العرب المرداسيين، التابعين للفاطميين أيضاً فى أيدى السلاجقة فى ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م[١]، وهى التى هوجمت من قبلهم فى عهد السلطان السلجوقى الثانى ألب أرسلان. ويذكر المؤرخون أن مملكة الفاطميين فى مصر اضطربت بسبب تغلب أتسز على أكثر بلاد الشام الفوقانى[٢]؛ بحيث أصبح على حدود مصر، إلا أن الفاطميين تمكنوا من صده، وهزم أتسز على يد بدر الدين الجمالى الوزير الفاطمى القوى، فقتل تُتُش أتسز، ربما لسوء سيرته فى أهل الشام أيضًا. حقًا تمكن الفاطميون من استرداد بيت المقدس على يد الوزير الأفضل الفاطمى ابن بدر الجمالى، من سقمان الذى كان السلاجقة عينوه عليه بعد قتل أتسز وهو من أسرة الأراتقة[٣]؛ إلا أنهم لم يتمكنوا من استرداد دمشق التى دافع عنها تُتُش بنفسه.

ومع ذلك، فإن الدولة الفاطمية فى مصر وجنوب الشام الذى تبقى لها بعد استيلاء السلاجقة على شماله وقفت لهم بالمرصاد على أمل استعادتها، تارة بإثارة أهل الشام ضدهم، وتارة أخرى بالحرب؛ بحيث تمكن الفاطميون من استعادة بعض مدن الشام مثل: صُور وأفامية. كذلك كانت الإسماعيلية الشرقية أو فرقة الباطنية أو الفداوية، وهى فرقة شيعية منشقة على الفاطميين، وذات تنظيم دقيق، تنفذ مايطلب منها من قتل كبار السلاجقة، وامتد نشاطها إلى أرجاء المشرق الإسلامى والشام والعراق ومصر؛ بحيث إن أتباعها هم الذين قتلوا نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور فى ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨م[٤]. فكان السلاطين من أبناء ملكشاه يحاربونهم بتخريب قلاعهم.

---

(١) الكامل، ٨ص ١١٠، ١٢٣.

(٢) نفسه، ٨ ص١٢٦. ربما استولى عليها ألب أرسلان فى ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠م.

(٣) ابن القلانسى، ذيل، ص ٦٠؛ ابن الصيرفى، الإشارة، ص ٦٠. هم ترك سيطروا فى دياربكر من نهاية القرن ٥ هـ / ١١ م إلى ٩ هـ / ١٥م، وبرزوا فى عهد السلطان ملكشاه السلجوقى. عنهم بتفصيل: Ency of Lsl, (Art Artukides)2 ed, TI, P. 662 Sqq؛ وبعده.

(٤) آل سلجوق، ص ٦٨؛ الكامل، ١٠ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦.
عنهم: الشهر ستانى، الملل، تحقيق Curton، ص ١٢٠؛ انظر:
Ency de L'Isl. (Art Ismâiliyya) t2, p. 526

ولكن هذه الدولة السلجوقية الفتية سرعان مادب فيها دبيب الانفصال بعد وفاة ملكشاه فى ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م؛ فقد كانت تحمل فى أساس نشأتها جرثومة الانحلال؛ إذ كان السلاطين السلاجقة قد جروا على عادة توزيع أملاكهم بين أبنائهم الأمراء على أن يكفلوا تربيتهم إلى قوادهم، الذين يسمونهم بالأتابكة، وهى لفظة تركية مفردها أتابك، ومركبة من كلمة «أتا» بمعنى أب، وكلمة «بك» بمعنى السيد أو الأمير، أى الذى يربى أولاد الملوك[1] فكان هؤلاء أشبه بالوزراء المستبدين، وسرعان ما ينفردون بالسلطة من دون أسيادهم. فنظام الملك فى كتابه: سياست نامه، منَ الأفكار التى يشرحها وكان لها أثرها فى دولتهم هى أن السلاجقة يعتبرون المُلك الذى ملكوه ملكية خاصة لزعمائهم كباقى الأملاك، ولهذا يقسمونه فيما بينهم"Quota"، دون أى اعتبارات أخرى. كذلك أوجدوا نظامًا جديدًا فى عطاء الجند لم يكن معروفًا من قبل على نطاق واسع؛ بجعل هذا المُلك إقطاعًا لهم،وإن كان نظامهم الإقطاعى لايمس الحرية الشخصية، مثلما كان الحال فى أوربا.

فلما توفى ملكشاه، وترك من الأولاد أربعة[2]، انقسمت دولته بينهم فى العراق والجزيرة وإيران وخراسان؛ حيث كان من يحكم هذا الأخير يعتبر السلجوقى الأعظم. هذا فضلاً عن أنهم ومن بعدهم أبناؤهم كانوا يتنافسون على السيطرة على الخليفة الضعيف فى بغداد، وكان من يسيطر عليه منهم يتخذ لقب سلطان. يضاف إلى ذلك أن أبناء تُتش ومعهم أتابكتهم كانوا يتنافسون فى الشام[3]؛ وأن أعمام ملكشاه وأبناءهم كانوا يتنافسون فى ولايات المشرق بكِرمان وبَلخ وخُوارزم وطُخارستان[4]؛ كما أن بعض أقارب السلاطين أو الأتابكة كانوا يستقلون ببلاد صغيرة أو كبيرة مبعثرة هنا وهناك، مثل: الموُصل وأنطاكية، والرُها، وأذربيجان، وآسية الصغرى، وغيرها[5].

* * *

(١)انظر. حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص ١٢٢ ومابعدها.
(٢) آل سلجوق، ص ٧٦. وهم: بركياروق ومحمود ومحمد وسنجز
(٣) الكامل، ٨ص ١٨٤؛ النجوم، ٥ص ١٥٥.
(٤) الكامل، ٨ ص ١١٣،. مثلا: دقاق فى دمشق، ورضوان فى حلب.
(٥) نفسه، ٨ ص ١٠٣. مثل بوران فى الرها، وياغى سيان فى أنطاكية، وكربوقا فى الموصل.

والخلاصة أن الدولة السلجوقية، التى كان يخضع لها مسلمو الشرق، أصبحت بعد ملكشاه عبارة عن دويلات متحاسدة، تخضع لأبناء السلاطين وأقاربهم وأتابكتهم، غمرتها حروب داخلية، وصراعات بين سلاجقة وسلاجقة، وأن الخلافة العباسية بقيت على حالها من الضعف الشديد.

الفصل الثانى

اغتصاب الأرض العربية على يد الفرنجة

هذا التمزق الذى شغل مسلمى الشرق، جعلهم لايستطيعون الصمود أمام التدخل الأجنبى، الذى كان يتربص بهم، ويريد الانقضاض عليهم، وجاء من قبل أهل أوربا، الذين عرفوا لهم باسم: الفرنجة أو الإفرنج أو الفرنج[1] "Francos"؛ نسبة إلى أمة عرفت بهذا الاسم فى أوربا، فأطلقوه على كل أمم أوربا عمومًا كما أن حروبهم معهم عرفت لذلك بحركة الفرنج[2]، أما هؤلاء فأطلقوا عليها الحروب الصليبية "Cruzada"، أو ماسماها الأوربيون الحديثون فى لغتهم الفرنسية "Croisades"، والإنجليزية "Crusades"، على أساس أنهم مسيحيون يحملون فى زيهم الصليب "Crux"[3]، الزاهى اللون، شارة الخلاص، واعتبرت حركتهم حركة مقدسة من قبل الفرنجة "Gesta Dei per Francos".

وقد اختلف فى تفسير دوافع الحروب الصليبية[4]، أو حروب الفرنجة، فمنها ما هو مادى مثل طمع الأوربيين فى خيرات الشرق، أو دينى بالتعصب ضد المسلمين، وبخاصة أن الأوربيين بدأوا يرون ضرورة ضم البلاد التى ظهر فيها المسيح، واعتبارها بلادًا مسيحية؛ كما أن هذه الحروب اعتبرت تكفيرًا للخطيئة. وفى رأينا أن السبب الرئيسى لهذه الحروب، هو أن ميزان القوى بين الشرق

---

(١) معجم البلدان، ١ص ٢٩٩ ، ٣٠٠. يقول إنهم نسبة إلى جد اسمه أفرنجش.
(٢) النجوم، ٥ص ١٤٦ ص٣.
(٣) انظر: Gesta Francorum, tranl. into English by Somerset. England, 1945, p. 12, 15;
(٤) انظر: Alphandry et Dupont La Chrétienté et L'idée de Croisade. Les Premières Croisades . Paris, 1954;
Bloomington: Crusade,Commerce and Culture, 1962. P. 152qq;:
Ency. of Isl. (Art Crusades), 2ed, t2, P. 63 Sqq.

والغرب قد تغيَّر بضعف المسلمين وتمزق وحدتهم؛ كمظهر من مظاهر الصراع البشرى؛ إذ كان مقدمة لما عرف فى التاريخ الحديث بالمسألة الشرقية: "La Question d'Orient".

ومع ذلك، فهذه الحروب الصليبية قد أتت فى مظهرها الأول بسبب الحج المسيحى "Passagium"، وهو الحج إلى الأماكن المتصلة بذكريات المسيحية فى فلسطين، وبخاصة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس،وهى تسمية عربية الأصل عَرفت فى وقت الصليبيين، وسموها «Jerusalem» وتعنى الطهارة أو القداسة أو بيت الله[1]، أو حتى المكان المرتفع. ومع ذلك فإنها فى وقت الفتح العربى، غلبت عليها تسمية أخرى هى إيلياء، واعتبرت عاصمة لفلسطين، وإن كانت هذه التسمية رومانية الأصل، نسبة إلى عائله "Aelia" العريقة، التى ينتمى إليها الإمبراطور الرومانى هادريان "Hadrianus" (٣٧ ـ ١٣٨م): تمجيداً له. كذلك كانت لها تسميات أخرى فى اللغة العبرية، منقولة عن أصل عربى، أشهرها أورشليم أو"Urishlem"، التى اتخذها اليهود عاصمة لهم فى أيام نبيهم سليمان "Soloman"، وهى محرفة عن سالم؛ نسبة للملك سالم اليبوسى، مؤسس مملكة اليبوسيينى الكنعانية العربية الأصل، التى قضى عليها نبى يهودى آخر وهو داود، حتى أنه كان أطلق اسمه عليها: مدينة داود؛ فكل تسمياتها إذن من أصل عربى أو آرامى أو كنعانى أو عبرى محرَّفَ عنها.

ويدعونا هذا إلى أن نتكلم عن الحج المسيحى بالتفصيل، وليس لدينا ما يدل على وجود عقائد مسيحية قديمة عنه، أو أنه فرض دينى كما هو عند المسلمين. و يظهر أنه بدأت تظهر له شعائر بقيام الدولة البيزنطية ـ الروم ـ التى ورثت الرومان فى الشرق، وأخذت بدين المسيح، ودانت بتعظيمه، واعتبرته إمبراطورها "Christos Basilieus". فيروى المؤرخون ـ ومنهم العرب ـ أن هيلانه "Helena"، أم قسطنطين "Constantinus" الأكبر،أول إمبراطور لهذه الدولة المسيحية، ارتحلت الى القدس فى طلب الخشبة، التى صلب عليها المسيح،وكانت فيها رقدته الأخيرة، فأخبرها القساوسة بأنه رمى بخشبته على الأرض، وألقيت عليها القمامات والقاذورات، فاستخرجت الخشبة وبنيت مكانها كنيسة، بناها

(١) وليام الصورى، ترجمة، ٢ص ٨؛ معجم البلدان، ١ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤، ٨ص ١١٠ وما بعدها؛ انظر:
Ency, de l'Isl, (art Kuds)2ed, V, P. 322 Sqq.

الأسقف مكسيموس "Maximus"[١]، بأمر من قسطنطين الأكبر، عرفت باسم: كنيسة القيامة المبجلة، أو كنيسة القمامة لوجود هذه القمامة. ثم بنى البيزنطيون كنيسة أخرى فى بيت لحم المجاور للقدس على المكان الذى ولد فيه المسيح[٢]. فكان المسيحيون يذهبون إلى القدس لزيارة هذه الأماكن المقدسة؛ وأصبحت لهم مزارًا أشبه بالكعبة للمسلمين. وقد منعت غزوات الفرس للشرق الزيارات، وحين استرجع هرقل «Heraclius» - إمبراطور بيزنطة - الشام منهم فى ٦٢٢م[٣]، عاد النصارى للحج زرافات.

ولما جاء المسلمون كفاتحين لفلسطين، صمم أسقف بيت المقدس اليونانى واسمه سفرونيوس "Sophronius"، على تسليم بيت المقدس للخليفة عمر ابن الخطاب نفسه، على أن يمنح النصارى الأمان لدينهم وكنائسهم. فقبل الخليفة طوعًا، وقدم إلى فلسطين فى سنة ١٧ هـ / ٦٣٨م، وهو راكب بعيرًا أحمر، وخلفه جفنة مملوءة بالتمر وقربة ماء، ودخل القدس، التى سلّمها إليه الأسقف، ومنح عمر أهلها النصارى الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم، وقد صالحهم وحدهم دون اليهود، وامتنع من أن يصلى فى كنيسة القيامة، وصلى خارجها على سلالمها، حتى لايحولها المسلمون إلى مصلى[٤]، ويذكر وليام (وليم) الصورى فى كتابه عن الحرب الصليبية أو تاريخه الكبير نقلاً عن مؤلف مجهول عاصر الحروب الصليبية فى كتابه[٥]: "Gesta Francorum et Hierosolymitanorum Aliorum" أن الخليفة عمر أمر بإعادة بناء الهيكل فيها، وكانت بقيت منه أطلال، ورصد له قدرًا كبيرًا من المال، وجلب لبنائه العمال، وحمل إليه عن طيب خاطر شتى مواد البناء اللازمة من الرخام والخشب، حتى استوى على الصورة التى رآها؛ كما أوقف الخليفة عمر على الهيكل كثيرًا من الأملاك، وزوده بمصابيح لاتنطفئ؛ وأنه فى وقته رممت كنائس كثيرة أخرى بما فيها كنائس مصر.

وكان من استمرار العداء بين العرب والروم فى عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم الأمويين، أن توقف الحج المسيحى إلى هذه الأماكن من خارج أرض

---

(١) وليم،ص٧. توجد مدينة قدس بالأردن، وهى ليست بيت المقدس؛ أنظر: اليعقوبى، البلدان، بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م، ص ٩٨ - ٩٩.
(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢.
(٣) المسعودى، التنبيه، ص ١٤٧.
(٤) سعيد بن بطريق، ٢ص ١٧؛ اليعقوبى، تاريخ، تحقيق Houtsma، ط. Lug - Bat.، ١٨٩٣، ص ١٦٧ - ١٦٨.
(٥) أنظر. وليم ،ترجمة، ١ ص ٦٦.

الإسلام. ولما قامت الدولة العباسية، أخذ الحج المسيحى يزداد وبخاصة بالنسبة لسكان أوربا، الذين كانوا قد تحولوا الى المسيحية؛ وذلك لأن العباسيين فى عهد هرون الرشيد، كانوا على علاقة طيبة بأكبر دولة للفرنجة، وهى دولة شرلمان، وتبودل السفراء بينهما حاملين الهدايا. ويذكر مؤرخو الفرنجة وحدهم أن هرون الرشيد، جعل للإمبراطور شارلمان، حق الإشراف المعنوى على بيت المقدس، وأنه أرسل له جملة هدايا، منها مفاتيح كنيسة القيامة[١]، وأنه جعل هذا المكان المسيحى من أملاكه؛ حتى كان النصارى فى فلسطين قد أصبحوا وهم يعيشون فى ظل ملكهم شارلمان؛ كما يقول وليام(وليم) الصورى[٢]؛ وأن السلام قد رفرف فى عهد هرون بجناحيه، وأن هرون جدير بكل ثناء. ولهذا ازداد اهتمام أهل أوربا بالحج؛ إلى بيت المقدس، وبدأت تظهر تقاليده بينهم؛ كما ظهرت بين مسيحيى الشرق؛ بحيث إنهم بنوا فى بيت المقدس نزلاً وأديرة؛ وأن هيئات خاصة، أشهرها جماعة الكلونيين، التى نقلت نظام الرهبنة من مصر؛ كانت تحرض الأوربيين على زيارة الأماكن المقدسة. كذلك كانت بيزنطة من ناحيتها، تسهّل مهمة حجاج أوربا، ولاسيما أن الدولة العباسية؛ جنحت نحو السلم مع الروم، وتركت جهادهم[٣]. غير أنه منذ أن حرم البابا فى روما بطريرك القسطنطينية ـ بيزنطة ـ ووقف منه موقف عداء ظاهر، وقف البيزنطيون موقف العداء من حجاج أوربا؛ وإن كان هؤلاء غالبا مايأتون من بلادهم إلى الأراضى المقدسة عن طريق البحر مباشرة. فكان تسامح خلفاء العباسيين مع المسيحيين السبب فى استمرار الحج المسيحى.

ولما أسس الفاطميون خلافتهم فى مصر، وكانت أعظم دولة فى وقتها، وتستند إلى أيديولوجية مذهبية تختلف عن أيديولوجية مذهب العباسيين، فهم شيعة والعباسيون سنة، استولوا على الشام من ولاة العباسيين، وتوقف الحج

---

(١) نفسه، ص ١٦٨؛ انظر. ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ص ١٣٤.

(٢) وليم الصورى، ترجمة،١ ص ٦٧.

(٣) ابن صاعد، ص ١٤٨؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٠.

المسيحى إلى بيت المقدس؛ بسبب العداء بين الروم والفاطميين، ولاسيما أنه فى ذلك الوقت كانت تحرك ملوك الروم دوافع صليبية[1]، دفعتهم إلى السعى فى استعادة الأراضى المقدسة،ولعله السبب الأول فى غزو الفاطميين للشام فى أول قيام دولتهم.

وقد بلغ العداء أقصاه حينما أصدر الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمى الثالث فى مصر، أمره بهدم كنيسة القيامة[2]، ولدينا نص الأمر بذلك؛ فقد أصدر سجلاً إلى واليه على القدس، كتبه أحد أقباط مصر،جاء فيه[3]: «أمر الإمامة إليك بهدم قمامة، فاجعل سماءها أرضًا، وطولها عرضًا»؛ فهدمت بعض أجزائها، ويقول وليم (وليام) الصورى؛ إنه سوى البناء بالأرض[4]. ويبدو أن الحاكم بأمر الله لم يهدمها بقصد وقف الحج المسيحى، بل لأن أمنية الروم الأولى قد أصبحت الوصول إلى بيت المقدس. وقيل أيضًا أن السبب جاء من أنه فى أثناء صلاتهم، وترديدهم: كيرياليسون "Kyrie elison" - اللهم رحمتك - كانوا يطلقون فجأة فى السماء نارًا، ويعطرونها عطرًا خاصًا، مظهرين أنها نور ينزل من السماء، لكى يقنعوا المسلمين بحقيقة دينهم[5]،ولاسيما أن تسامح العزيز بالله - والد الحاكم بأمر الله، الذى صاهر أسقف بيت المقدس - جعل النصارى يتمادون فى إظهار شعائر دينهم. ويقوى من هذا السبب، هو أن الحاكم بأمر الله فى الواقع لم يهدم غير هذه الكنيسة؛ فلدينا سجل بمنح الأمان لبقية كنائس بيت المقدس. كذلك قيل إن سبب هدمها، أن ملك القسطنطينية هدم جامع المسلمين فيها[6]؛ المسمى: جامع القسطنطينية، فعمل الحاكم بأمر الله على هدمها على سبيل الانتقام. ومع ذلك فنرجح أن السبب الرئيسى فى هدمها؛ هو رغبة الروم فى

(١) بتفصيل، انظر. ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر، الطبعة الرابعة.
(٢) يحيى الأنطاكى، ص ٤٩١ - ٤٩٢ (٢٨٣ - ٢٨٤)؛ انظر. ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ٩٩ ، ١٠٠.
(٣) الكامل، ٧ص ٢٤٠؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢٣٠ - ٢٣١؛ انظر: عنان، الحاكم، ص ٦٩؛ ماجد، الحاكم، ص ١٠٠.
(٤) الحروب الصليبية، ترجمة حبشى،١ ص ٧.
(٥) ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٦٧؛ انظر.
De Sacy: Druzes, cccxxxvI - II
(٦) الخطط، ٢ص ١٦٩ س٩.

الاستيلاء على بيت المقدس ـ كما ذكرنا ـ ولاسيما أن الحاكم فى الوقت ذاته أرغم جالية الروم الخروج من مصر ولعلهم من النصارى الذين كانوا على عقيدة الروم ذاتها، وهى عقيدة غير عقيدة القبط ؛ حيث كان بعض الروم يعملون فى قصره، وكانت لهم حارة خاصة فى القاهرة[١]؛ وإن سمح لهم ـ على الرغم من عداوة الروم ـ بالانتقال إلى بلادهم بكل مايملكون[٢]؛ كما أن بعض نصارى بيت المقدس، من غير العرب، هاجروا أيضًا إلى بلاد الروم[٣]، وتوقفت الزيارات.

ولقد أثار هدم الحاكم لكنيسة القيامة غضب النصرانية عمومًا، وإن أسرع الروم بالتودد إلى الحاكم وخلفه[٤]؛ مما أوجد ميلاً إلى الاعتقاد بأن إعادة بناء كنيسة القيامة قد تم فى عهد الحاكم، أو ابنه الظاهر الذى جدد الاتفاقية، التى كانت بين الحاكم والملك الرومى باسيل الثانى "Basilios II"؛ كما جدد الروابط الودية مع خلفه الملك رومانوس الثالث أرجيروس "Romanus III Argyrus"[٥]. كذلك أرسل ملك الروم ميخائيل الرابع البفلاجونى Michael IV Paphlagoni[٦]، المعاصر للمستنصر بن الظاهر؛ مهندسيه لإصلاح كنيسة القيامة. وعلى كل حال عاد النصارى من الروم والفرنجة إلى زيارة بيت المقدس، ويشيد وليام الصورى[٧]؛ بما نعم به النصارى فى أيام الفاطميين، من معيشة راضية بين المسلمين، مثلما كانوا فى عهدى عمر وهرون من قبل.

---

(١) نفسه، ٣ص ١١٢؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢٢١ (فى آخر الصفحة).

(٢) يحيى الأنطاكى، ص ٢٠٧؛ انظر. ماجد، الحاكم بأمر الله، ص ١٠١.

(٣) يحيى الأنطاكى، ص ٥١٩ (٣١١)؛ انظر. أسد رستم، ٢ ص ٦٤.

(٤) النجوم (ط. دار الكتب)؛ ٤ ص ١٩٢؛ انظر. ماجد، الحاكم، ص ١٣٣.

(٥) وليم (وليام) الصورى، ترجمة، ص ٧٣؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢٤٣؛ Cedrenus: Synopsis Historiae Copus Scriptionum Historiae byzantinae, ed. Bekker (C.S.H.B), 1838 -9, 11, p. 259 - 260. اسد رستم، الروم، ٢ص ٦٤.

(٦) الكامل، ٨ ص ١١٦؛ Dolger: Regesten der Kaiserukunden des Ostromischen Reiches. Berlin - Munich, 1924, 834 - 843. ؛ أسد رستم؛ الروم، ٢ص ٦٥.

(٧) وليم الصورى، ترجمة،١ ص ٧٥.

ولكن لما هاجم السلاجقة أملاك الفاطميين فى الشام، ساءت أحوال نصارى بيت المقدس، وتوقفت الزيارات إليه؛ لأنهم حينما عملوا على أخذه من الفاطميين، وهاجمه القائد التركى المسمى أتسز أو الأقسيس[١]، من قبل تُتش أخى السلطان ملكشاه السلجوقى، نهبه وقتل كثيرًا من أهله، حتى من التجأ منهم إلى المسجد الأقصى، مما أغضب تُتش على أتسز وقتله، وولى غيره واسمه سكمان أو سقمان. غير أن الفاطميين عادوا بعسكر من مصر، لاسترداد بيت المقدس من السلاجقة، بقيادة وزيرهم الأفضل - وهو لقبه - فى سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م؛ وذلك بمعاونة أهله، وأنابوا فيه رجلاً من قبلهم عرف بافتخار الدولة مع حامية مصرية؛ بقيت فيه إلى وقت مجىء الصليبيين[٢].

ومهما يكن؛ فإن فرنجة أوربا اتخذت شكوى الحجاج إلى بيت المقدس ذريعة لحرب المسلمين فى الشرق. فكلف البابا إربانوس الثانى "Irbanus II" - إربان - (١٠٨٨ - ١٠٩٩م)؛ رجل الدين الفرنسى بطرس الناسك أو الراهب "Pierre L'Ermite"[٣] (١٠٥٠ - ١١١٥م)، بالدعوة الى حرب المسلمين؛ لتخليص الأماكن المقدسة للنصارى منهم، وكان من قبل زار القبر فى وقت سيطرة السلاجقة عليه، وقال إنه رأى السيد المسيح الذى قال له: «لقد جاء الوقت لتطهير الأماكن المقدسة»[٤]، بحيث اعتبرت أوربا المسلمين العدو الأول لها.

---

(١) الكامل، ٨ ص ١١٠، ١٢٦، ١٨٩. نفى كثير من المؤرخين، ومن بينهم نصارى، تعصب السلاجقة ضد النصارى، فمثلاً كانوا يعفون كنائس هؤلاء من الضرائب؛ انظر.
Dulaurier.Paris, Chronique de Mathieu d'Edesse, continuée par Gregoire Le Prétre, trad. 1858, pp. 156, 201;
Osman Turan : Les Souverains Seljoukides et Leurs Sujets Non Musulmans. Stvdia: Islamica. Paris, 1953, p. 65 - 100.

(٢) الكامل، ٨ص ١٨٩؛ النجوم، ٥ص ١٤٨؛ وبعده.

(٣) انظر . . Hagenmeyer:
La Vrai et le Faux sur Pierre L' Ermite, trad Rynaud. Paris, 1885.
قيل فى سبب حقده على المسلمين؛ هو ماقاساه على أيدى الأتراك فى بيت المقدس.

(٤) وليام، ترجمة، ص ٤.

وهكذا خرجت الدعوة من فرنسا لحرب المسلمين؛ إذ إنها لم تكن قد نسيت غارات المسلمين فى أراضيها وقت فتحهم الأندلس، وأنها هى التى دافعت عن المسيحية فى الموقعة المعروفة عند المسلمين باسم بلاط الشهداء، لكثرة من سقط من قتلى المسلمين؛ بمن فيهم قائدهم عبد الرحمن الغافقى فى سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢م. فعقد البابا فى كلير مون فران "Clermont Ferrand" ـ أكليرمنت ـ بجنوب فرنسا مؤتمرًا فى عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م، اجتمع فيه الفرنجة من جميع مناطق أوربا، وخطب فيه كل من البابا وبطرس حاضين على حرب المسلمين، فقال البابا فى خطابه[١]: «إنه من الواجب على النصارى أن يحموا أرواحهم بالذهاب فى طريق المسيح، واذا لم يستطيعوا فليقدموا أموالهم»، وقال بطرس الراهب: «إنى نظرت قبر المسيح محتقرًا ومهانًا، وزواره مضطهدين. فصرخ الحاضرون بالحرب، وهم يرددون: الله يريد ذلك Diex Le Volt -Dieu Le Veut - وهى العبارة التى أصبحت صرخة المسيحية فى حرب المسلمين.

وقد كان أول أفواج من الصليبيين أغلبهم من الفقراء ـ فقراء المسيح Pauper Christi - ـ جاءوا من كل مكان من أوربا، يقودهم بطرس الراهب[٣]؛ حيث تحركوا بحشودهم الزاحفة عبر وسط أوربا فى الطريق ذاتها التى سار فيها من قبل الإمبراطور قسطنطين الأكبر، بعد تحوله إلى المسيحية. فقتلوا اليهود فى طريقهم، ولكى يحصلوا على مايمسك رمقهم كانوا يسلبون وينهبون. ويصف لنا المؤرخون اليونان وغيرهم، هذه الموجة الصليبية المتعصبة؛ بأنها تتكون من جماعات من الأفاقين، الذين لايستحقون مشاهدة قبر المسيح. فلما وصلوا الى أسوار القسطنطينية فى ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م، نصحهم ملكها إلكسيوس كومنينوس "Alexius Comnenus"؛ بألا يتسرعوا فى العبور إلى آسية الصغرى. ويظهر ذلك فى قصائد آنّاكومنينوس"Anna Comnenus"، ابنة هذا الملك، وكانت شاعرة، وبخاصة فى قصيدتها المسماة: "Alexiadis"، حيث يظهر احتقارها للمتبربرين الفرنجة، الذين أساءوا التصرف وأحرقوا القصور، ونهبوا الكنائس فى القسطنطينية

---

(١) وليام، ترجمة، ١ ص ٩٤.

(٢) عن خطابه، انظر. بتفصيل مقالة أحد المعاصرين:
The First Crusade, The Account Of Eyewitness and Participants, reprinted. Gloucester, 1958.

(٣) أنظر. Gesta, p. 12 - 13.

ذاتها. فأمرهم الملك بالرحيل مباشرة نحو الشرق، ولاسيما أنه خاف من أن تسخط عليه أوربا من منعهم؛ كما كان يسره بطبيعة الحال أن يحاربوا الأتراك السلاجقة، الذين احتلوا أجزاء من بلاده في آسية الصغرى؛ منذ انتصارهم في موقعة ملاذكرد. وتروى مصادر الفرنجة أن السلاجقة قاتلوهم بقيادة شخص اسمه سليمان "Solimanus"، الذى لايمكن أن يكون سليمان بن قتلمش[١]، مؤسس أمارتهم فى آسية الصغرى، ـ وكان قتله تُتش أخى ملكشاه حاكم الشام فى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م ـ كما حارب سليمان الروم واستولى على أنطاكية منهم، حتى لدينا إشادة بهذا الفتح[٢]؛ وأشبهوه بالانتصار فى موقعة ملاذكرد، وخلفه ابنه المسمى قلج أرسلان، أى سيف الأسد[٣]. وقد انتصر الترك السلاجقة على الصليبيين، وأحرقوا من هرب منهم فى الغابات، أو ألقوا بهم فى البحر؛ واضطر بطرس الراهب قائدهم إلى النجاة بنفسه. ولايعتبر المؤرخون الحديثون هذه الحملة، حملة صليبية بالمعنى الصحيح، بل هى تمهيد للحملة الصليبية الأولى.

وفى الوقت ذاته قامت تجمعات أخرى كبيرة[٤] ، معظمها من فرسان الفرنجة، وكانت أكثر تنظيمًا من السابقة، ولذلك أصبح خطرها شديدًا على المسلمين، واعتبرها المؤرخون الحديثون الحملة الصليبية الأولى. وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون؛ ارتبط اسمهم بهذه الحملة، مثل: الأخوين جود فروى الملقّب دى بويون "Godefroi de Bouillon" ـ يسميه العرب فى كتبهم كندفرى أو كندهرى ـ وأخيه بودوان أو بلدوين " Baudouin" (أو Baldwin)؛ الملقّب دى بولونيا de Boulogne ـ ويسميه العرب: بغدوين أو بردويل ـ وقد جاء الاثنان من فرنسا على رأس أهل اللورين "Les Lorrains"، وكذا القائد ريموند "Les Pro- vencauxRaymond IV de Saint Gilles"، الذى جاء على رأس أهل البروفنس ، ثم هوخ"Hugues" أخو الملك الفرنسى، الذى قاد أهل غالة؛ أما الملك نفسه وهو فيليب الأول"Philippe lèr" (١٠٦٠ ـ ١١٠٨م)؛ فلم يأت لأنه كان قد حرم من البابا، الذى كانت له سيطرة على ملوك أوربا، ثم بوهيموند "Bohemond" ـ

---

(١) عنه: وفيات الأعيان، ١ ص ٧١.

(٢) ابن القلانسى، ذيل، ص ١٩٠.

(٣) انظر: Ency. De l'sl. (Art Kilidj Arslán) t2, p. 1065

(٤) انظر: Gesta,: 14Sqq؛ وأيضًا ماأورده: الكامل، ٨ص ١٨٥ ومابعدها.

يسميه العرب بيمنت أو بيمند ـ وهو الذى جاء على رأس النورمان من إيطاليا، ومعه ابن أخيه تانكريد "Tancrid" أو Tangrid ـ يسميه العرب طنكرى ـ الذى وجد فى دعوة البابوية طموحه. ويبدو من هذا التجمع الجديد أن الحملة لم يكن لها رئيس؛ وإن وصف جود فروى بأنه زعيمها، ووصف بأنه رجل طويل، وشعره أشقر، ويقال فى مصادر الفرنجة: أن الطيبة كانت بادية على وجهه.

وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة، نحو الشرق من طرق متعددة، بعضها عن طريق جبال الألب ونهر البو، أو عن طريق وسط أوربا من ألمانيا وهنغاريا، أو عن طريق البحر الأدرياتى. فلما وصلو إلى القسطنطينية فى سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧م؛ ليعبروا بحر مرمرة ـ وهو الخليج المجاور له[١] ـ إلى بلاد الترك السلاجقة فى آسية الصغرى، لم يمكنهم ألكسيوس من العبور، وطلب منهم البقاء فى ضواحى القسطنطينية؛ حتى يحلفوا له يمين الولاء. وربما كان ألكسيوس يفكر أن الفرنجة قد يستعيدون له بعض الأراضى التى أخذها السلاجقة، أو أى بلد كان فى يد الروم سابقًا؛ وأنه يسمح لهم بأن يحكموها باسمه. وعلى الرغم من أن الفرنجة لم تعجبهم هذه المساومة من ألكسيوس، فإنهم حلفوا له يمين الولاء، وأقسموا له بالكتب المقدسة على ذلك[٢]؛ إذ كان هدفهم قتال المسلمين قبل كل شىء[٣]. وليطمئن ألكسيوس على خططه؛ أصبحت جيش الفرنجة جيشًا بيزنطيًا بقيادة تاتيكيوس "Tatikios"؛ ووعدهم بأن يلحق بهم بقوة كبيرة من جيشه.

فلما وصل هذا الزحف الصليبى إلى آسية الصغرى، حارب الصليبيون الترك السلاجقة فيها. فأول مكان هاجموه نيقية أو أنيقية "Nicaea" [٤]، بلدة من أعمال إسطنبول، تقع على بحيرة، كانت لقلج أرسلان، وكان حصارها أشبه بحصار

---

(١) عنها، انظر: معجم البلدان، ٣ص ٤٦٠، ٤ ص ٣٢٨

(٢) وليم، ترجمة، ٢ ص ٥٨.

(٣) انظر: Gesta, p. 15 - 20؛ انظر: إشارة ابن الأثير لاختلافهم. (الكامل، ٨ ص ١٨٦ س٥).

(٤) انظر Ibid, P. 21 - 24؛ النجوم، ٥ ص ١٤٦؛ معجم البلدان، ٨ص ٣٦٠؛ انظر. Ency de l'Isl. (Art Iznik) t2p. 600

الطروادين؛ بحيث إن الصليبيين جاءوا بسفن جروها من القسطنطينية بالثيران. وقد حاول الترك السلاجقة استنقاذها على غير جدوى؛ إذ لم ينقطع وصول الإمدادات برًا وبحرًا، وكانت كثيرة. وبعد أكثر من سبعة أسابيع قرر الترك تسليمها إلى ملك بيزنطة، من دون الفرنجة؛ مما يبين استمرار النزاع بين البيزنطيين والفرنجة. فقبل ملك الروم ذلك منهم فى رجب من سنة ٤٩٠هـ / يونية ١٠٩٧م، وحمل الأسرى إلى القسطنطينية؛ وقد بقيت نيقية فى أيدى البيزنطيين إلى وقت مجىء الأتراك العثمانيين.

وكان أول نصر للفرنجة فى سهل درولیه (Dorylée) "Dorylaeum" ـ قرب إسكى شنهر ـ التى انتصر فيها جودفروى، وقتل قلج أرسلان، أميز السلاجقة سابق الذكر، ونجد أن مؤلف أعمال الفرنجة Gesta Francorum ـ وهو مجهول ـ يتكلم عن شجاعة الترك السلاجقة، ومقاومتهم الشديدة للصليبيين. وبالانتصار الفرنجى فيها؛ فتح طريق فروجه "Phrygie" وغيرها، ولاسيما أنه قد سهّل زحفهم فيها؛ وصولهم إلى بلاد الأرمن المسيحية[١].

وبعدها توقف الفرنجة امام أنطاكية العظيمة لحصانتها[٢]؛ فقد كانت محصنة طبيعيًا بالجبال وبأسوار وبروج وحصون متقدمة، ولأن جماعات مسلمة من مدن عديدة خرجت لنصرتها من: حلب ودمشق والقدس. وبعد أن حاصرها الصليبيون مدة تسعة أشهر، وبنوا أمامها قلعة، جمعوا حجارتها من قبور الموتى، استولوا عليها من صاحبها التركى ياغيسيان أو ياغى سيان ـ سماه الأوروبيون Cassian ـ فى جماد الأولى سنة ٤٩١هـ / مارس ١٠٩٨م؛ وذلك بفضل خدعة رجل اسمه فيروز أو زرد، وهو أرمنى كان قد أسلم، وكان يدافع مع المقاتلين المسلمين فى أحد بروجها، فسلّم البرج للصليبيين؛ مما جعل بقية البروج الأخرى تتداعى. وقد

---

(١) عنها: انظر: معجم البلدان، ٤ص ٥٧.

(٢) الكامل، ٨ص ١٨٥ـ ١٨٦ ;Gesta, p. 34 Sqq

هرب الأمير السلجوقى، أو أنه قُتل وأخذت رأسه إلى الفرنجة؛ كما يقول ابن الأثير، فلما دخلوها ذبحوا معظم أهلها المسلمين؛ بحيث لم تعد ترى الأرض من كثرة الجثث[1]. ومع أن سلاجقة الشام وبلاد الجزيرة، ومعهم العرب، ساروا لاستعادتها؛ بقيادة كربوقا أو كربوغا التركى أمير الموصل، وكادوا يستولون عليها، وبات الفرنجة فيها محاصرين وليس لهم ما يأكلونه؛ إلا أن تكبر كربوقا، وانقسام القواد، أضاع هذه الفرصة، وأدى إلى انهزام المسلمين هزيمة منكرة[2]؛ وكان الفضل فى انتصار الفرنجة فى أنطاكية، يرجع إلى النورمان على الخصوص.

فى ذلك الوقت، حاول الفاطميون فى مصر وقف زحف الصليبيين، بعد أن عجز السلاجقة عن صدهم، بالدخول فى مفاوضات معهم[3]. ولا نصدق ماقيل من أن الفاطميين؛ خانوا المسلمين، أوأنهم هم الذين استدعوا الصليبيين إلى الشام؛ ليستعينوا بهم ضد السلاجقة أعدائهم؛ ومن الغريب أن بعض المؤرخين الحديثين يؤيدون ذلك[4]. ولكن ينفى هذا الرأى أنَّا رأينا؛ كيف كان الفاطميون دائمًا حماة الإسلام؛ فاستماتوا فى الدفاع عنه؛ حينما هاجم الروم فى الشام، ثم إن ابن الأثير صاحب هذه الرواية، وهو من بلاد الجزيرة فى شمال العراق، هو نفسه يتشكك فيها، ويقول: «والله أعلم»[5].

والواقع أن قبول الفاطميين للتفاوض مع الفرنجة تبيِّن موضوعيتهم فى معالجتهم للمشكلات الخطيرة. ففى أثناء حصار الفرنجة لأنطاكية العظمى، كان الأمل كبيرًا فى صمود السلاجقة، الذين كانوا حتى وقتذاك موضع ثقة المسلمين؛ بسبب انتصاراتهم الباهرة والحاسمة على الروم؛ إلا أنه بسبب انقسامهم وتحاسدهم

---

(١) انظر. Gesta, p. 51.
(٢) انظر. Ibid, p. 53؛ الكامل، ٨ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٣) هذا من أقوال الصليبيين. وليم الصورى، ترجمة، ص ٣٠٥.
(٤) مثلاً: مؤنس، نور الدين محمود، ص ٩٨ ـ ٩٩؛ عاشور، الحركة الصليبية، ١ ص ١٩٧. هذا الأخير يستند فى معظم مصادره إلى مراجع حديثة.
(٥) الكامل، ٨ص ١٨٦ س ٣، ٤.

سقطت أنطاكيـة فى أيدى الصليبيين؛ حيث تذكر المصـادر الأفرنجية[1] وحدها أن الفاطميين فى أثناء حصار أنطاكية سـعوا إلى التفاوض مع الفرنجة، وقبلوا أن يأتى وفد منهم إلى القاهرة. ومع ذلك بقى وفدهم لمدة عام مـهملاً من قبل الفاطميين. ولكن الفاطميين لما سـقطت أنطاكية فى أيدى الفرنجة؛ فإنهم أعـادوا الوفد الفرنجى إلى أنطاكية؛ وأصحبوهم رسلاً من قبلهم، بعرض مؤداه [2]: أن يَسمح للحجاج غير المسـلمين من الفرنجة وحدهم بزيارة بيت المقـدس، ويكونون فى أفواج، وكل زمرة منهم لا تتعدى المـائتين أو الثلاث مائة؛ على أن يضمن الفاطميـون سلامتهم فى كل مـرة. ولكن الفرنجـة اعتبـرت عرض الفـاطميين لهـم إهانة كبـرى؛ بعد انتـصارهم العظيم فى أنطاكـية، وأعلنـوا أنهم لن يقبلوا الذهاب إلى القـدس فى فئات، وسوف يدخلونهـا بحد سيوفهم، ويستولون عليـها، وعلى بلاد الفاطميين أيضًا.

ولو أيَّدت المصـادر الأفرنجيـة وحدها وقـوع هذه المفاوضـات الفاطمـية مع الصليبيين؛ فـيحتمل أن تكون بالأولى مع الروم وليس مـع اللاتين، وكانت عادية فى السياسـة الفاطمية الذين عقـدوا معهم هدنات من قبل؛ مـثلما حدث فى زمن الخليفة الحاكم بأمـر الله؛ كما ذكرنا؛ كما لم يكن فى بال الروم وقتـذاك؛ استعادة بيت المقدس، أو كان لهم خطباء يدعون لحرب المسلمين. وعلى العكس كانت من مراسـيم البلاط البـيزنطى "De Ceremonis"؛ أن يحـتل العـرب على مـائدة الإمبـراطور البيزنـطى مقاعـد أعلى من مقاعـد الفرنجـة. . فهذه المفـاوضات بين الفاطميين والروم، حتى إذا كانت صحيحـة؛ فإنها أصبحت فى مصلحة المسلمين؛ لأنها جعلت المعسكر المسيحى ينقسم على نفسه، مع أنه كاد يتوحد بغزو الصليبيين للشرق العربى.

ويؤكد على ذلك أنه لما احـتل الفرنجة أنطاكـية العظمى، فإنهم ولوا عليـها بطريركًا، وذلك بناء عـلى اتفاقهم السـابق مع ألكسيوس البـيزنطى[3]؛ إلا أنهم عـزلوا البطريرك البيـزنطى بسـبب تفاوض الروم مع الـفاطمـيين، واتهمـوا الروم بالخيانة[4]، وأجبروا جـيش الروم الذى أرسله يوحنا الثانى[5] كالوجوهانيز "JoanII"

---

(١) وليم الصورى، ترجمة عربية ،٢ ص ٥٦.

(٢) نفسه، ٢ ص ٥٧.

(٣) نفسه، ٣ ص ١٣٥.

(٤) نفسه، ٢ ص ١٥٨؛ Gesta, P. 71 - 72.

(٥) نفسه، ٣ص ١٣٤

"Calajahannes" ، خلف ألكسيوس، على الرجوع إلى القسطنطينية[١]، وذلك بعد وفاته، وتولى مانويل الأول" ManuelI" بعده. وكان يوحنا الثانى هذا قد بسط نفوذه على القلاع والمدن التى استولى عليها الفرنجة[٢]، ودخل بجيشه أنطاكية[٣]، وأصبح يقاتل الفرنجة بنفسه[٤]؛ بحيث انشغل الصليبيون به عن المسلمين؛ إذ كان يعتبر أن ما استولى عليه من الفرنجة هو أمانة فى عنقهم ليردوها للروم؛ وحلفوا للألكسيوس بالأيمان المغلظة على ذلك[٥]؛ فكان الفرنجة بسبب هذا التفاوض مع الفاطميين يسمون الروم بالإغريق[٦]؛ كناية عن أن إيمانهم بالمسيحية ليس فى درجة إيمان الفرنجة.

وفى الوقت ذاته، تذكر المصادر الإفرنجية أيضًا استعدادات الفاطميين الحربية للدفاع عن بيت المقدس، وتصميمهم على وقف الزحف الصليبى، فعمدوا إلى تقوية تحصينات القدس، والمدن التى حولها[٧]. وعلى عجل أمر الوزير الأفضل الفاطمى بإصلاح أبراج المدينة وأسوارها، وترميم ما يحتاج منها إلى ترميم، كما طمَّ ينابيع المياه فى الآبار؛ وفى مصانع الماء التى تتجمع فيها الأمطار، لحرمان المهاجمين من الماء؛ بينما خُزنت المياه لأهل المدينة[٨]. كذلك حشد الأفضل المقاتلين الشجعان[٩]، المزودين بأحسن السلاح، والسماحِ للمتطوعة بالتوافد على القدس للدفاع عنها[١٠]؛ وتحرك الأسطول المصرى من عسقلان، وهو الميناء الهام فى فلسطين، للإيقاع بالسفن الصليبية[١١]. وقد اجتمع أهلَ القدس للتشاور فى ساحة المسجد الأقصى[١٢]: فأفتى بعضهم بهدم كنيسة القيامة، المقامة على قبر

---

(١) نفسه، ٣ ص ١٦٤.
(٢) نفسه، ٣ ص ١٥٩.
(٣) نفسه، ٣ ص ١٦٤.
(٤) نفسه، ٣ ص ١٦٧.
(٥) نفسه، ٣ ص ٣٥.
(٦) نفسه، ٣ ص ١٦٧.
(٧) نفسه، ٢ ص ٦٧.
(٨) نفسه، ٢ ص ٩٣.
(٩) نفسه، ٢ ص ٩٤.
(١٠) نفسه، ٢ص ٩٥.
(١١) نفسه، ٢ص ١٠٦.
(١٢) نفسه، ٢ص ٦٨.

المسيح، مثلما فعل من قبل الحاكم بأمر الله، ولكنهم وجدوا أن ذلك ربما يزيد من عناد الفرنجة فى حربهم(١).

وعلى كل حال، تولى أمر أنطاكية العظمى بوهيمند "Bohemond" النورمانى - يسميه العرب فى كتبهم بيمنت أوبيمند - إذ كان طامحًا كما ذكرنا إلى إقامة إمارة له فى الشرق، وإن تركها لابن أخيه تنكرد Tankrid - طنكرى - الذى جعلها هوالآخر إمارة خاصة له، وسك فيها عملة باسمه: "Tankridos"؛ فكانت بداية لإمارة أنطاكية، وبذلك ظهرت نيابة الصليبيين واضحة فى استعمار الشرق.

وبعد الانتصار فى أنطاكية، سار قسم من الصليبيين نحو بلاد الجزيرة فى شمالى العراق، وتقع بين الموصل والشام، واستولوا على مدن كثيرة منها: مدينة الرُها، المسماة أيضًا أرفة، ولليونان أذاسا أو أديسا "Edessa"(٢)، وهى المدينة المسيحية الهامة، الذائعة الصيت وقتذاك، وكان أغلب سكانها من الأرمن، وليس فيها من المسلمين إلا قليل، وإن تمكن أتابكة السلاجقة فى بلاد الجزيرة من وقف تقدم الصليبيين نحو بغداد. فكانت الرُها هى مركز إمارة صليبية أخرى فى بلاد الجزيرة.

وكذلك سار قسم آخر من الصليبيين إلى الجنوب بمحاذاة الساحل الشمالى، وكان المارونيون من جبل لبنان، وهم على عقيدة الصليبيين الدينية؛ يدلونهم على الطريق (٣)؛ حيث كانت المراكب الإيطالية من جنوة والبندقية وقبرص ورودس وبلاد اليونان تمدهم بالذخائر والرجال(٤). فكانت مدن الشام العليا وموانيها تستسلم واحدة بعد أخرى للصليبيين بدون مقاومة. وقد استعمل الصليبيون منتهى

---

(١) النجوم، ٥ص ١٧٨ - ١٧٩. لعلها فتحت فى سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣ - ١١٠٤م. انظر. الكامل، ٨ص ٢٠٤ عنها، انظر. معجم البلدان، ٢ص ١٥٩، ٤ص ٢٣٠ - ٣٤١.

(٢) وليم، ترجمة، ٢ص ٦٢؛ S qq. Ency. de L'Isl. (Art Orfa) t3, p. 1062 Sqq

(٣) وليم الصورى، ترجمة، ٢ ص ٦١.

(٤) انظر. Gesta, p. 81.؛ وليم، ترجمة، ٢ص ٦١؛ انظر. مكسيموس، ١ ص ١٥٠.

القسوة مع المدن المستسلمة؛ فحينما دخلوا معرّة النعمان مثلاً، قتلوا معظم من كان فيها من الرجال والنساء، ما يزيد على مائة ألف، وأخذوا من كان حيًّا لبيعه(١).

وبعد ذلك وصل الفرنجة إلى بيت المقدس، الذى كان استرده الأفضل الفاطمى من السلاجقة، وأبقى فيه حامية مصرية بلغ عددها أربعين ألفًا؛ كما ذكرنا. فضربوه بالنار والحجر من المنجنيقات، وقد دافع عنه عسكر مصر بشجاعة نادرة مدة تنيف على أربعين يومًا. فيصف وليم الصورى مؤرخ الفرنجة مقاومتهم يومًا بعد يوم، كانوا يفضلون الانتحار بإلقاء أنفسهم من بروج الجدران على التسليم(٢). ولما تمكن الصليبيون من تشديد قبضتهم على المدينة المحاصرة؛ فإن المدافعين عنها لم ييأسوا من مقاومتهم، حتى أنهم كانوا يقذفونهم بالحجارة من الآلات القذافة؛ فى محاولة أخيرة لإبعادهم عن أسوار المدينة(٣)، على الرغم من أن الرماح والقسى كانت تنهال عليهم كشهب السماء.

فكان سقوط بيت المقدس فى أيدى الفرنجة فى شعبان من سنة ٤٩٢ هـ / يونية ١٠٩٨م، فذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين، من الشيوخ والنساء والأطفال، وأحرقوا من هرب منهم إلى مسجدى قبة الصخرة والأقصى، واقتحموا هذا الأخير وقتلوا فى داخل ساحته عشرة آلاف من المسلمين؛ حتى أن المصادر النصرانية ذاتها، قالت: لم نر مثل هذا الذبح من قبل فى المسلمين(٤)؛ حيث استمر القتل ثمانية أيام؛ إذ كانوا يعتقدون أن المسيح عانى كثيرًا من العذاب(٥)، ولذلك كان لابد من أن يشفى غليل المسيحية من المسلمين، لما حدث له. فيقول المؤرخ الصليبى وليم الصورى(٦): لقد شاهدت فى أرجاء المدينة ـ ويقصد القدس ـ مذبحة فظيعة الشناعة؛ ووجدت الأشلاء البشرية فى كل مكان، وقد غطت الدماء

---

(١) أنظر. Gesta, p. 81؛ الكامل، ٨ ص ١٨٧ ـ ١٨٨.
(٢) أنظر Id؛ نفسه الكامل، ٨ ص ١٨٩؛ النجوم، ٥ ص ١٤٨، ١٤٩.
(٣) وليم، ترجمة، ٢ ص ١١٤.
(٤) نفسه، ٢ ص ١٢٦؛ Gesta, P. 88
(٥) أنظر. Le Moyen Age, P. 428.: Calmette
(٦) وليم، ترجمة، ٢ ص ١٢٦ ـ ١٢٨.

الأرض؛ فكانت رؤيتها مبعثرة هنا وهناك، تثير الرعب فى نفوس من شاهدها، وكان أبعث على الفزع أيضًا، منظر المنتصرين، وقد تخضبت ملابسهم بالدماء، التى غطتهم من أعلى رءوسهم إلى أخمص أقدامهم، كما انطلق بقية العسكر الصليبى يجوسون خلال الديار بحثاً عمن لايزال حياً؛ فإذا عثروا عليهم ذبحوهم ذبح الشاة، وكل واحد منهم قد اغتصب بنتًا.

ومع ذلك؛ فلم يقف الفاطميون مكتوفى الأيدى لما حدث فى بيت المقدس؛ فوزيرهم الأفضل؛ لما بلغه خبر وصول الفرنجة إليه حشد العسكر المصرى فى وديان عَسْقَلان، وهى الميناء الهام على ساحل البحر، وسار على رأسهم لاستنقاذه. ولما قربَ من بيت المقدس كان الفرنجة قد فتحوه، وهجموا على الأفضل وعساكره وهزموه[1]، وأحرقوا من التجأ من العسكر المصرى إلى الغابات. كذلك خليفة مصر، وكان الآمر بأحكام الله، ويصفه وليم الصورى[2]؛ بأنه أقوى حكام المسلمين فى الشرق، طلب من وزيره الأفضل حشد جيش كثيف يضم كل زهرة شباب مصر؛ ليقضى على هذا الشعب المتطفل، ويمحوه من على وجه البسيطة؛ حتى يتلاشى اسمه من الوجود.

وقد فرح الفرنجة بوصولهم إلى مقبرة المسيح (ربهم)؛ بحيث كانوا يبكون من شدة الفرح. وهكذا سقط بيت المقدس فى أيدى الفرنجة؛ بعد أن ظل فى أيدى المسلمين منذ فتحه فى عهد عمر بن الخطاب فى سنة ١٧هـ / ٦٣٨م. ومع أن البابا إربانوس الثانى توفى فى يوليو ١٠٩٩م؛ وهو لا يدرى بهذا الانتصار؛ إلا أن روما دقت النواقيس، وأعلنت انتصار الصليب على الهلال.

وقد تريث الصليبيون بعد فتح بيت المقدس لتنظيم دولتهم[3]؛ وإن كانوا قد اتفقوا على تعيين جو دفروى ـ كندفرى أو كندهرى ـ حاميًا للبيعة (أو القبر المقدس) "Ad vocatus Sancti Sepulchri"، ولم يتلقّب به أحد غيره، ورفض أن يتخذ لقب الملك، الذى لقّب به كل من جاءوا بعده، وينسب إلى جود فروى هذا

(١) الكامل، ٨ص ١٩٠؛ النجوم، ٥ص ٤٠٦.
(٢) وليم، ترجمة، ٢ص ١٦٠ـ ١٦١.
(٣) انظر. Gesta, p. 88

أنه وضع أساس دستور هذه الدولة، وهو ما عُرف لهم باسم: أسس"Assises"؛[1] حيث أضاف إليه ملوكها من بعده قوانين أخرى خاصة بنظامى الدولة السياسى والإقطاعى، وهذا النظام الأخير ساد فيها؛ وإن كانت نصوص الأسس لم تجمع إلا فى القرن الثالث عشر الميلادى؛ لأن أصولها قد ضاعت، عندما استرد صلاح الدين بيت المقدس فيما بعد. ومع ذلك فهذه الأسس لم تكن وحدها تحكم دولتهم فى بيت المقدس، وإنما بالأولى كانت تحكمهم قوانين وعادات تعودوا عليها فى أوربا؛ كما سكت عملة خاصة بها، أطلقوا عليها القراطيس، وهى تسمية مصرية.

ولما قتل جود فروى، بسهم أطلقه عليه مجاهد مسلم أصابه أمام مدينة عكَّاء عطاء (اوعكة)[2]؛ اختار مجلس كبار الفرسان ورجال الدين "La Haute Cour"[3] أخاه بغدوين "Baudouin"، وهو أول من اتخذ لقب الملك فى عام ٤٩٥هـ / ١١٠١م. ومنذ ذلك الحين صار حكام بيت المقدس يلقبون بالملوك، وكان بغدوين يفعل مثل ملوك الشرق، فيلبس الثياب الشرقية، ويرسل لحيته، ويتناول طعامه وهو جالس على الأرض[4]. وبسبب أن دولة بيت المقدس حاكمها ملك، فإنها سميت: بمملكة بيت المقدس، أو المملكة اللاتينية؛ إذ أخذت هذه التسمية الأخيرة من جنسية ملوكها، ومن إنشاء أول كنيسة لاتينية فى الشرق. وقد اتسعت المملكة الصليبية بمن جاءوها من الفرنجة من كل نوع؛ ولاسيما من الباحثين عن الثروات والمغامرات، فكان هؤلاء يأتونها كحجاج، ولكن سرعان مايستقرون فيها، كما أصبح للمدن الطليانية على الخصوص نفوذ كبير فى هذه المملكة؛ بسبب مشاركتها بأساطيلها فى هذه الحروب، ونالت حقوقًا تجارية كثيرة فيها، وفى غيرها من الإمارات الصليبية الأخرى.

كذلك قسِّمت مملكة بيت المقدس إلى إقطاعيات، وعهد فى الدفاع عنها إلى طوائف من الرهبان الفرسان، أبرزهم طائفة: الأسبتارية "Hospitaliers"؛ لأنهم

---

(١) انظر" Assises de Jerusalem. R.H.C.o"TII ؛ انظر.
Dodu: Histoire des Institutions Monarchiques dans Le Royaume Latin. de Jerusalem. Paris, 1849.

(٢) يقول وليم الصورى إنه مات من مرض استعصى برؤه منه. انظر. ترجمة، ٢ص ١٨٦.

(٣) انظر. Prawer: The Latin Kingdom of Jerusalem 1972, p. 282 Sqq.

(٤) انظر. جر وينباوم، حضارة الإسلام، ترجمة جاويد، مصر ١٩٥٦.

فى أصل نشأتهم، كانوا يقومون باستقبال الحجاج وإيوائهم فى نزل "Hospes"[١]، أنشأوها بجوار كنيسة القيامة. وهناك طائفة أخرى، عرفتها العرب باسم فرسان: الداوية أو الديوية، أو ماعُرف لدى الفرنسيين باسم «فرسان الهيكل أو المعبد» "Templiers" ؛ ذلك لأنهم سموا مكان الصخرة بالهيكل أيضًا "Templum" ؛ بسبب غموض تاريخها لديهم. فكانت الطائفتان تملكان الحصون والأساطيل، ولها حق عقد المعاهدات، وجباية الضرائب، وكأنهما أصبحتا دولتان داخل مملكة بيت المقدس، مع أنهم فى الأصل من التجار.

وعقب فتح الصليبيين لبيت المقدس، حولت جميع مساجده إلى كنائس، وخاصة مسجد قبة الصخرة[٢]، الذى بناه عبد الملك بن مروان، على أنقاض المسجد الذى بناه عمر بن الخطاب، والمسجد الأقصى، الذى بناه الخليفة الوليد[٣] ابن عبد الملك فى ساحة مسجد قبة الصخرة، وعُرف لفخامته أيضًا ببلاط الوليد. فاخذوا يعظمون الصخرة ويفتخرون بها، وأقاموا على قبتها صليبًا من ذهب، سموه بصليب الصلبوت، أما المسجد الأقصى؛ فقد أقيمت فيه كنيسة ونزل للفرسان الداوية، وأصبح يعرف باسم: هيكل أو قصر سليمان "Templum Solomonis" (أوPlatum)؛ لأن نبيهم سليمان كما قيل، كان قد بنى فى مكانه هيكلاً. ويبدو من ذلك أن التعصب الصليبى نحو المساجد، كان على نقيض ماجبل عليه المسلمون من تسامح نحو كنائس النصارى، التى تركوها لهم، بما فيها من ذخائر وتحف؛ وحتى بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس، ترك لهم كنوز الكنائس؛ ليأخذوها معهم، وأبقى على كنيسة القيامة المقامة على قبر المسيح لايدخلها المسلمون تقليدًا لما فعله عمر بن الخطاب، الذى لم يدخلها وصلى فى خارجها؛ حتى لايدخلها المسلمون، مع أن الصليبيين على العكس كانوا منعوا قبط

---

(١) عنهم، انظر: النجوم، ٦ص ٣٣ وهامش؛ Ency. de l'Isl. (Art al - Kuds) t2, p. I164.
The Knights Hospitaliers in the Holy Lands. London, 1931: Kings.

(٢) عماد الدين،الفتح القسى، ص ٥٠ ـ ٥١؛ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢؛
انظر: Ency. de l'Isl, t2, p. I164 - I165.

(٣) أنظر: كتابنا: التاريخ السياسى للدولة العربية، الجزء الثانى، وبعده.

مصر، وهم مسيحيون من دخولها. وبعد ذلك؛ فتح الصليبيون عكًا فى سنه ٤٩٧ هـ ١١٠٤/م، وطرابُلس سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨م، وكانت تحكمها أسرة بنى عمَّار[١]، التى استقلت بها عن الفاطميين، لما غزا السلاجقة بعض أجزاء من الشام، فحاصروها قبل محاصرة بيت المقدس، ولكنهم رفعوا الحصار عنها للاستيلاء على بيت المقدس، مع أن واليها ابن عمار دخل فى مفاوضات معهم، وأغراهم بالمال، ولما لم يستجيبوا له حاربهم بشدة فهزموه[٢]، وسقطت طرابلس وما حولها من مدن مثل: جُبيل فى ٥٠٢ هـ / ١١٠٩م: وبيروت فى ٥٠٣ هـ / ١١٠٩م ،حيث يذكر المؤرخ عماد الدين أن معظم أهل بيروت من المسلمين[٣]، وصْيدا فى ٥٠٤هـ / ١١١٠م، وصُور فى ٥١٨ هـ / ١١٢٤م، وكان يربطها بالبحر شريط ضيق من الأرض، واعتبرت مقاومتها من أشد المدن الفاطمية فى مقاومة الفرنجة؛ حيث يفرد وليم الصورى الصفحات العديدة لمقاومتها[٤]، كما سقطت غيرها من المدن الساحلية. ويقول المؤرخ ابن تغرى بردى: إنه كان من الممكن إنقاذ كل هذه المدن أو غيرها لولا سوء الحالة فى بلاد الفاطميين[٥].

ولم يقف طمع الصليبيين أو الحجاج المسلحين عند حد؛ فقد طمعوا أيضا فى مصر التى كان يحكمها الفاطميون لضعفهم، وتزهو أمام أعينهم بغناها. فقد كان بغدوين "Baudouin" ـ أو بلدوين الأول ـ يفكر فى غزوها، وذهب بنفسه ليستكشف طريق الزحف إليها، وتوغل فى شبه جزيرة سيناء، ودخل الفرما على الساحل بين العريش والفسطاط، وفتحها فى سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥م؛ إذ كان مبهورًا برؤية مصب النيل، ويتشوق إلى أن يملى بصره إعجابًا بمياهه، كما يقول وليم الصورى[٦]. ولكن الجند الدائمين فى الشرقية، يتقدمهم العربان حاربوه، كما

(١) الفتح القسى، ص ٤٨؛ انظر. Ency de L'Isl, t2, p. 1164 - 5.
(٢)وليم، ترجمة، ٢ص ٦١.
(٣) الفتح القسى، ص ٣٢.
(٤) وليم، ترجمة، ٣ص ٤٢.
(٥) النجوم، ٥ص ١٧٩ ، ١٨٠.
(٦) وليم، ترجمة، ٢ص ٢٢٩

أسرع الوزير الأفضل الفاطمى فى إرسال العساكر المصرية من القاهرة، فرحل بغدوين أو بلدوين وحتى بردويل - كما كان يسمى - عائدًا أدراجه، ولكنه مات قبل أن يصل إلى العريش، فأُخذت جثته لتدفن فى كنيسة القيامة، بعد أن ألقى بأمعائه فى مكان لايزال إلى اليوم يُعرف بسبخة البردويل أو جزيرة بردويل أو بالسبخة فقط؛ نسبة إليه(١).

* * *

ومعنى هذا أن الفرنجة قد انتصرت على المسلمين فى الشام وبلاد الجزيرة، وأصبحت لهم فيها مملكة وإمارات ثلاث بين إمارات السلاجقة، وعلى حدود مصر. ولما كان معظم الغزاة من الفرنسيين؛ فقد اعتبر وجودهم فى الشرق أول استعمار لفرنسا فيه، وبذلك ظهرت سياسة فرنسا الاستعمارية فيما وراء البحار "Outre - Mer". فمن إماراتهم: إمارة أنطاكية العظمى فى الشمال، وامتدت على ساحل البحر المتوسط إلى جبال طوروس وشمال الشام، وجاورت أتابكية حلب التى يحكمها السلاجقة، وإمارة الرهُا على الفرات، وامتدت من مرعش إلى منبج فى الجنوب، فجاورت أتابكية الموصل، التى كانت تضم غالبًا إلى إمارة حلب، وتكون معها أتابكية واحدة، وتهدد بغداد مركز الخلافة العباسية، وإمارة أو كنتية طرابُلس، ونشأت تابعة لمملكة بيت المقدس، حيث اعتبرت منفذًا لها على الساحل، وامتدت من حِمص إلى شمال لبنان؛ وتهدد أتابكية دمشق. بل لم يقف الخطر الصليبى عند الأماكن المسيحية المقدسة، وإنما زحف نحو ديار مصر أيضًا.

---

(١) الخطط، ١ص ٣٤٢، ٣٤٣؛ ابن إياس، بدائع، ١ص ٦٣.
عن العريش، انظر. معجم البلدان، ٦ص ٣٦٧ - ٩.

الفصل الثالث

الصمود، ورد الفعل الفرنجى

والواقع أن نجاح الاستعمار الفرنجى فى الشرق الإسلامى كان سببه فى الدرجة الأولى انفصام وحدة سكانه، الذين أصبحوا برءوس كثيرة، ولم يعودوا أمة واحدة، كما أراد الإسلام لهم، وعلى الخصوص سكانه العرب فى: مصر والشام، وبلاد الجزيرة، من دون رقعة الإسلام الواسعة؛ مع أنهم وحدهم تلقوا الضربات الصليبية. ولعل السبب فى عدم وحدة العرب بالذات، وعلى مدى تاريخهم الطويل؛ هو تمسكهم بنظامهم القبلى السابق، وهو ما جاء الإسلام ليقضى عليه بالنظام الحضرى؛ بحيث كان العرب دائمًا ضد العرب. ومع ذلك؛ فإنه توجد بعض العوامل الأساسية كانت أحيانًا تتدخل لتجمعهم فى وحدة سياسية؛ منها: وحدة اللغة، والدين، والثقافة، والتاريخ، والعيش فى إطار حدودى واحد؛ حتى يتجنبوا أوخم العواقب؛ نتيجة لتفرقهم والتماسك عند مواجهة الشدائد، وتحدق بهم الأخطار. ولدينا شعر يعبر عن ضرورة وحدة العرب فى وقت الغزو الصليبى، فيذكرهم بعروبتهم، ورد فيه:

أيرضى صناديد الأغاريب بالأذى

ويغض على ذل كماة الأعاجم

وعلى كل حال، سرعان ما ظهر رد الفعل العربى فى هذه النواحى للخطر الصليبى القادم؛ بعد سقوط بيت المقدس، وبعض المدن الساحلية فى أيدى الفرنجة، وفى صمود المدن التى بقيت فى أيدى السلاجقة والفاطميين؛ حيث اعتمد هؤلاء فى صمودهم على قوة أسطولهم، الذى اشتهر بالأسطول المصرى.

فقد اشتهرت مصر في أيام الفاطميين بتعدد دور الصناعات البحرية فيها[1]، وهي أماكن بناء السفن. فكانت المِقس[2]، التي أنشاها الخليفة المعزّ لدين الله أول خلفائهم في مصر، في شمال القاهرة، على شاطئ النيل، وتتسع لبناء ستمائة قطعة بحرية[3]؛ كما أن جزيرة الروضة، التي عُرفت في وقتهم بجزيرة مصر[4]، كانت هي الأخرى تقوم ببناء المراكب البحرية. كذلك وجدت أماكن في أرجاء خلافتهم؛ تقوم ببناء المراكب؛ فيروى المؤرخ المقريزي أن الفاطميين واصلوا إنشاء المراكب بمدينتي الإسكندرية ودمياط[5]، أما المؤرخ القلقشندي فيذكر أن وحدات الأسطول الفاطمي، كانت مرتبة بجميع الشواطئ الساحلية، في الإسكندرية ودمياط في مصر، وفي عَسقِلان وعكّا (أو عكّة) وصُور وغيرها من موانئ الشام[6].

وعلى الرغم من هزيمة الفاطميين أمام الفرنجة في الشام؛ فقد ظلت السيادة البحرية لأسطولهم؛ حتى أن الخليفة الفاطمي قبل خروجه من مصر لقتال الفرنجة كان يقوم بتوديع رجاله في احتفال رسمي، عُرف في رسوم دولتهم باسم: المودعة[7]. فكان الخليفة الفاطمي، وبصحبته الوزير والأعيان المصريين، يذهبون إلى ميناء المِقس عند ساحل النيل؛ حيث تجتمع فيه المراكب قبل أن ترحل وتقوم بالحركة ـ وهي المناورات ـ كما يفعل تمامًا في حالة القتال. وفي هذه المناسبة يدعو الخليفة الفاطمي للأسطول بالنصرة والسلامة، ويوزع النفقة والهدايا والخلع[8] ـ وهي ملابس ـ على رئيس الأسطول وقواده.

---

(1) المقريزي، الخطط، بولاق، ٢ص ١٨٩.
(2) نفسه، ٢ص ١٩٥.
(3) نفسه.
(4) معجم البلدان؛ أنظر.
(5) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص ١٦.
(6) صبح الأعشى، ٣ص ٥٢٣.
(7) نفسه؛ ابن سيسر، ص ٤٤. بتفصيل: ماجد، نظم الفاطميين، ط٣ (الأسطول)، الجزء الأول.
(8) المقريزي، الخطط، بولاق، ١ص ٤٨٠ س ٢١، ٢٢، ٢ص ١٩٣ س ٣٣.

ويذكر المؤرخـون أنه كانت توجد من بين مراكب الأسطول المصـرى مراكب ذات حـجم كبـير، بلغ عـددها فى وقت الغـزو الفرنجـى على حسب قـول وليم الصورى سبـعين من القـراقر، وأربعـة وعـشرين من الشـوانى[١]. فكانت القـراقر - ومفردهـا قرقورة - وهى مراكب مـعدة لتموين المدن السـاحلية؛ وتزويدها بالزاد والمتاع وأنواع السلاح؛ وتتميّز بأن لها ثلاث طبقات، وتـسير بالقلاع؛ أما الشـوانى - ومفـردها شـونة أو شينى - فـهى من المراكب الحربيـة العظيمـة، وتجذّف بـثلاث وأربعين ومائة مـجذافًا، وتحـتوى على أهراء لخـزن القمح، وصهـاريج لخزن الماء الحلو، ومزودة بقلاع وأبراج للدفـاع والهجوم، وبخاصة بالمنجنيـقات لقذف المواد الملتهبة، التى تخـصصت لها طائفه من المقاتلة أطلق عليهم التـفاطون؛ حيث كان النفط[٢] متوفرًا فى مـصر، ويسيل من جبل بسيناء، وميـزته فى أنه يسير على الماء دون أن ينطفأ؛ ليحرق مراكب العدو[٣]. كذلك كان يوجد بالقطع البحرية المصرية مقاتلة قـد دربّوا على القتال فى البر والبحر، وعـرفوا لذلك باسم: بحرى وبرى، وزودوا بكل ما هو ضـرورى للحرب البرية، مـثل: الأبراج، والدبابات والسلاليم لثقب الأسوار، والحبـال للاستعانة بها فى تسلقهـا. ومن الطريف أن نذكر بوجود قفص فيه حمام كان ضمن مـعدات الأسطول الفاطمى، يستعمل فى إبقاء الاتصال بين مخـتلف وحداته، وبين القـيادة العـامة فى البر؛ وأن مـركب رئيس الأسطول كانت تزود بفـانوس خاص؛ لتهتدى به المـراكب الأخرى؛ فتقلع بإقـلاعه وترسو برسوه.

وعلى العكس، كانت المراكب الفاطمية تحتمى من نار العدو وقذائفه؛ بتغطية هيكلها بدرع من الخارج اسمه: «البوس»[٤] وعليه غطاء آخر اسمه «البود»، يصنع

---

(١) وليم الصورى، ترجمة، ٣ص ٥٣، ص ٣٦٩.

(٢) الخطط، بولاق، ٢ص ٣س ١٤.

(٣) الحسن الأبرقى، تحقيق وترجمة Cahen ، بعنوان. Un Traité.Texte P. 122 - 3, Trad , P 145 -6.

(٤) بتفصيل: ماجد، نظم الفاطميين؛ و درويش النخيلى؛ معجم، Cf: Dozy, Suppl. .

من جلود البقـر الطرية، أما رجال الأسطول أنفســهم؛ فإنهم يحتمـون من الحريق بدهن أجسامهم بالبلسان أو البلسم، وهو فى الأصل نبات ينمو بارتفاع ذراع، وله دهن ورائحـة، ويجمع فى قنانى من الزجـاج[١]. ومع أن جـاليـنوس، وهو من علمـاء مـدرسة الإسكندريـة القديمة، قـال بوجـوده فى فلسطين وحـدها؛ إلا أن الرحالين العرب، الذين زاروا مصـر فى وقت صلاح الدين، ومنهم: عبد اللطيف البغدادى والهـروى، يريان أنه لا يوجد اليوم إلا بمصر، فى مـوضع بعين شمس، مساحـته نحو سبـعة أفدنة، ومحـاط عليه لأهميتـه، وأن استخراجـه يتم بطريقة خفية، لايعرفها العدو.

فيتبيَّن دور الأسطول المصرى فى اسـتنقاذ مدن الساحل الشامى[٢]، بتواجده فى مرافئها، وحمل المؤن إليها، وبالاشتباك مع أساطيل العدو باستمرار، وبخاصة مع مراكب المدن الإيطاليـة التى شاركت فى حمـلات الصليبيين. فـفى يافا، ولم تكن قد سقطت فى أيدى الفـرنجة بعد، أقلع الأسطول المصرى من قاعـدته بقيادة شرف المعـالى، ابن الوزير الأفضل الفاطمـى، لتزويدها بالمؤن[٣]. وفى طرابُلس التى جعلها الصليـبيون إمارة لهم بعد ذلك، فإن الأسطول الفاطمى كـان متواجدًا فيها؛ مما جعل حـاميتها تصمد أمام الفرنجة لعـدة شهور، على الرغم من حصارها من البحر بالمراكب الجنوية[٤]، وفى صيْدا، ساعد رجال الأسطول المصرى العسكر الدمشقى، حينما هاجمها بغدوين الأول «Baudouin» صاحب مملكة بيت المقدس، وحاصـرها برا وبحرا؛ إلا أنهـا سقطت فى يده[٥]. وفى بيروت، قصـدتها أربعة وعشرون شينيًا مصرية[٦]، وهى مراكب حربية كـبار؛ إلا أن بيروت سلِّمت بالأمان بعد حصار دام سبعة وأربعين يومًا؛ لما استـشهد قائد الأسطول المصرى فى اشتباكه مع الأسطول الجنوى. وفى صُور، زود الأسطول المصرى حاميتها بقيادة أنوشتكين

---

(١) الإفادة؛ والزيارات؛ أنظر.
(٢) تفاصيل: وليم الصورى، ٣ص ٣٦٩ وما بعدها.
(٣) ابن القلانسى، ص١٤٢، ١٤٣.
(٤) ابن الأثير، ٨ص ٢١٩، ٢٣٥.
(٥) ابن القلانسى، ص ١٦٢.
(٦) نفسه، ص ١٠١.

الأفضلى - نسبة للوزير الأفضل - بالرجال والغلات؛ مما جعلها تقاوم الصليبيين فترة طويلة[1]؛ إلا أنها فقدت هى الأخرى، لما اغتيل الوزير الأفضل، وتولى بعده المأمون البطائحى فى الوزارة مكانه.

أما بالنسبة للعمليات التعرضية البرية فلدينا سجلات فاطمية[2]؛ بتقليد أمراء مصر، وهم القواد المصريون، لأمر جهاد الصليبيين فى نواحى الشام، التى استولوا عليها. فقد تعود خلفاء الفاطميين على أن يرسلوا تجريدات - جمع تجريدة - لجهاد الصليبيين فى الشام؛ لايتجاوز عدد أفرادها من ثلاثمائة إلى أربعمائة، والكثرة من أربعمائة إلى ستمائة؛ حيث كان يقدَّم فيها على كل مائة أمير. فكان الخليفة الفاطمى يبارك هذه التجريدات قبل خروجها، مثلما كان يفعل فى موادعة رجال الأسطول؛ فيسلِّم لأميرها العلم والخريطة؛ حيث كان يشارك فيها أحيانا أولاد الوزراء؛ بمن فيهم الوزير الأفضل نفسه.

فكانت هذه التجريدات تؤخذ بالذات من طوائف الحجر أو الحجرية[3]، التى اعتبرت من طوائف العسكر الفاطمى وسموا بها لسكناهم فى الحجر، وهى أشبه بالثكنات العسكرية. فمنذ مجىء المعز لدين الله إلى مصر، كان يجند أفرادها من بين المصريين - أولاد الناس - فى الأعمال وهى أقاليم مصر؛ حيث شرط على ولاتها البحث عمن يظهرون مهارات حربية قبل أوانها، وأفرد لهم حجراً فى قصره؛ فعرفوا بسبب ذلك بصبيان أو غلمان الحجر؛ فكانوا يتعلمون فيها القراءة والكتابة والفنون العسكرية؛ وإن أقيمت حجر أخرى فى القاهرة فى غير قصر الخليفة، أو فى خارج القاهرة، ومنها واحدة كانت قريبة من باب النصر فى أسوار القاهرة[4]، وحتى فى أنحاء أخرى فى مصر، فالحجر الفاطمية أشبه بالمدارس الحربية سبقت الطباق المملوكية، التى أقامتها دولة سلاطين المماليك فى مصر، وتقليداً لها. فكان غلمان الحجرية أو صبيانهم لسكناهم فى هذه الحجر، على حسب سنهم، ومنهم: الحجرية الكبار، والحجرية الصغار.

---

(١) نفسه، ص ١٨٨.
(٢) النجوم، ٥ص ٢٤٤.
(٣) الخطط، ١ص ٣٠٩ - ٣١١؛ صبح، ٣ص ٥٠٨؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ص ١٩٦ - ١٩٨.
(٤) صبح الأعشى، ٣ص ٤٨١.
(٥) الخطط، ٢ص ٢٣١س٢

ومنذ غزو الفرنجة للشام زادت أعداد الحجرية عن ذى قبل، وبخاصة فى عهد الوزير الأفضل الفاطمى[1]؛ حيث استمر نظام الحجرية قائمًا إلى آخر حكم الخلافة الفاطمية. فكانت الحجرية من دون طوائف الجيش الأخرى، لها تعليم عسكرى منظم، لم يكن له وجود من قبل فى مصر، تحت إشراف مباشر من الخلفاء الفاطميين أنفسهم؛ بحيث أصبحوا عصب الجيش الفاطمى، ورهن التحرك للقتال عند أول إشارة. فكانت الحجرية يؤلفون معظم هذه التجريدات الموجهة نحو الفرنجة؛ بقصد هدم تحصيناتهم، فى معارك جسورة ومهام انتحارية، وأن حربهم للعدو ارتكزت أساسًا على المبادأة، بحيث ظهرت لهم بطولات، وما كان أى انتصار على الصليبيين يحدث بدونهم؛ فكانوا يقومون بحرب استنزاف حقيقية.

إضافة إلى أن الوزير الأفضل الفاطمى سعى إلى التقارب مع سلاجقة الشام؛ على الرغم من الاختلاف معهم فى المذهب وفى المصالح الخاصة؛ وعلى الرغم من العداوة السابقة بينهما؛ إذ كانت ظروف المنطقة بغزو الفرنجة لها تقضى مثل هذا التقارب. فسعى الوزير الأفضل الفاطمى إلى التحالف مع طُغتكين - أوطغدكين - أتابك دمشق، الذى كان قد استقل بها بعد قتله لأميره دقاق ابن تُتش، ووفاة ابن أخى دقاق؛ فتمكن من إقامة أسرة حاكمة له فى دمشق، استمرت من ٤٩٧هـ / ١١٠٤م إلى ٥٤٩هـ / ١١٥٤م، عُرفت بأسرة البوريين كما ذكرنا[2]؛ بحيث أصبحت دمشق بهم أهم مركز للمسلمين فى الصمود أمام الغزو الفرنجى.ويؤكد وليم الصورى، وهو المؤرخ الفرنجى،على التقارب بينهما، على الرغم من فقدان الثقة بين الترك والمصريين، حسدًا لكل منهما للآخر، وسعيه لمد رقعة مملكته على حساب خصمه؛ غير أن فزعهما من الصليبيين أنسى كل منهما ما يضمر للآخر من كراهية؛ فانضمت قواتهما بعضها إلى بعض[3]؛ لتنفيذ مخطط استهدف الإطاحة بالصليبيين.

---

(١) وليم ، ترجمة، ٢ ص ١٦٢.

(٢) بتفصيل: Ency of Isl, (art Búrides,) 2ed, TI, P. 1332 ، وبعده

(٣)وليم ، ترجمة، ٢ص ٣٤٣.

ففى أثناء حصار الفرنجة لصُور[1]، وهى جزيرة داخلة في البحر مثل الكف، وكانت فى حوزة الفاطميين، حشد الوزير الأفضل أعداداً كبيرة من المشاة والفرسان، وأسرع بإرسال أنوشتكين الأفضلي بالأسطول المصرى، الذى حمل لها الأزواد؛ بقصد استنقاذها. فلما علم طغتكين، أتابك دمشق، فإنه من جانبه هو الآخر حشد جنده، وسار بهم إلى صُور؛ بقصد الانضمام إلى العسكر المصرى؛ وإن لم يحدث اشتباك[2]. ولكن لما حدث هجوم جديد عليها؛ فإن حاميتها سلمت البلدة إلى طُغتكين، بأمر من الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله[3]، فولى طغتكين واليًا عليها من قبله اسمه مسعودًا، الذى حكمها لمدة عشر سنوات، ومع ذلك تركت الخطبة فيها للخليفة الفاطمى. إلا أن الأسطول المصرى عاد إليها فى عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢م[4] وقبض على الوالى مسعود، الذى رحل إلى القاهرة، ومع ذلك أكرم فيها، وأعيد إلى دمشق، وولى الفاطميون على صور واليًا من قبلهم، كان على علاقة طيبة بطغتكين[5]. فلما عاد بلدوين الثانى ملك بيت المقدس وحاصرها من جديد؛ فإنها سلّمت من جديد إلى طُغتكين ليدافع عنها[6]؛ بحيث اشتبك مع الملك الفرنجى وتمكن من أسره، وإن أطلق سراحه بعد ذلك. ولكن بُذلت محاولات جديدة من قبل الفرنجة للاستيلاء عليها، وسقطت فى أيديهم، بعد مقاومة شديدة.

وقد تجددت الاتصالات بين الفاطميين والبوريين فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى، مع الملك إسماعيل، الذى تولى أتابكية دمشق بعد أبيه بورى، وهو من نسل طغتكين ،وإلى بورى هذا نسبت هذه الأسرة فى دمشق، حيث لدينا سجل[7]. ورد فيه ذكر قتل أمير بعلبك الصليبي. وكذلك زار دمشق رضوان ابن

---

(١) عنها: معجم البلدان، ٥ص ٣٩٧ ـ ٨.

(٢) وليم ،١ ،٢ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥، ٣ص ٤٣.

(٣) ابن القلانسى، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٨.

(٤) نفسه، ص ٣٢٩.

(٥) ابن ايبك، الدرة المضيئة، ص ٤٩؛ انظر. خرابشة رسالة ماجستير (بإشرافى)، ص ٣٩٥.

(٦) ابن القلانسى، ص ٣٣٥.

(٧) صبح الأعشى، ٦ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠؛ انظر، . Canard: Fatimides et Búrides à L'époque du, Calife al - Háfiz li - dín lillah. R E I, xxxxV, 1967, p. 103, 116.

ولخشى[1]، وزير الخليفة الحافظ الفاطمى، فى وقت حاكمها مجير الدين بن إسماعيل بن بورى؛ وقد صار التعاون بينهما أكثر توثقًا وتواصل السفارات والوفود، وحتى تبادل الهدايا[2].

حقًّا سيطر الفرنجة على معظم فلسطين، منذ استيلائهم على بيت المقدس؛ بما فيها أغلب مدنها الساحلية، إلا أنهم لم يستطيعوا السيطرة على مدينة عَسْقلان[3]، التى بقيت وحدها صامدة أمامهم؛ على الرغم من الهجمات الصليبية المتوالية عليها، فلا يجدون إليها سبيلاً. وتقع عَسقلان على الساحل الجنوبى لفلسطين، وكانت انتعشت فى أيام الفاطميين؛ بحيث اعتبرت فى وقتهم عروس الشام، ثم سقطت فى أيدى السلاجقة لما اجتاحوا الشام، ولكن الفاطميين سرعان ما استردوها منهم، قبل الغزو الصليبى للشام. فلما استولى الصليبيون على بيت المقدس، ومعظم مدن الساحل، كانت فلول الفاطميين من المدن التى سقطت فى أيديهم تنسحب إليها. فكان صمود عَسقلان أمام الصليبيين أن جعلها رأس حربة للهجوم على الأراضى التى فى حوزة الصليبيين، وأصبحت قاعدة دائمة للأسطول الفاطمى؛ بحيث وصف وليم الصورى، مؤرخ الفرنجة تربص عَسْقلان بالصليبيين بالفراشة التى لا يستقر لها قرار فى حربهم[4] ، والحية ذات الرءوس التسعة[5].

ومن اليقين أن سبب صمود عَسْقلان فى وجه الصليبيين يرجع إلى قوة تحصيناتها واستحكاماتها، والعوائق التى ترد عنها هجماتهم؛ حتى أنه وضُعت

---

(١) الاعتبار، ص ١٧، ١٨.

(٢) ابن القلانسى، ص ٣٤٢، ٣٧٩.

(٣) عنها: معجم البلدان، ٦ص ١٧٤؛ انظر.

Ency de l'Isl (art' Askalán) TI,p. 732; Le Strange: Palestine Under the Muslim,p. 400-3.

(٤) وليم، ترجمة، ٣ص ٣٨.

(٥) نفسه، ٣ص ١٣١.

شعلتها من الانطفاء مما جعل ليلها نهاراً ساطعًا[1]، لرؤية المهاجمين لها فى الليل. كذلك كان الوزراء العظام فى مصر، يرسلون إليها الذخائر والأسلحة والأموال فى كل عام[2]، وعلى الدوام الجند المدربين[3]،والقادرين على حمل السلاح واستعماله[4]، فى أربع مجموعات[5]، لتحل الواحدة محل الأخرى؛ ولتظل مقاومتها متجددة، ولمتابعة القتال ضد الصليبيين، وتكبيدهم الخسائر المتلاحقة. فكان القادمون الجدد أشوق ما يكونون لحربهم ؛ لأنهم يريدون عجم عود عدوهم، وليعرفوا درجة بأسهم، وليقدّموا فى الوقت ذاته البرهان الجلى على شجاعتهم. ومع ذلك؛ كثيراً ما كان يحدث فى هجماتهم على الصليبيين، أن البعض منهم يقعون أسرى أو يقتلون بحد السيف، ربما لأنهم غير عارفين بمسالك عَسقلان[6]، وذلك على عكس أهل عسقلان أنفسهم، الذى كانوا يعرفون مسالك بلدهم؛ فيتريثون فى قتال الصليبيين إذا لزم الأمر، وذلك على حسب ملاحظة وليم الصورى مؤرخ الفرنجة؛ فيتجنبون الاصطدام بهم، رغم أنهم كثيراً ما كانوا يتعقبونهم بلا اكتراث؛ إذا ما أخذ الصليبيون فى الفرار. والواقع، أصبح كل من فى عَسقلان من أهلها مجنداً بمن فيهم الأطفال[7]، وكان خليفة مصر يدفع لهم رواتب ثابتة؛ مثلما يدفع للكبار.

ولنا أن نقرر بيقين أن الدفاع عن عَسقلانِ أصبحت مسئولية المصريين، سواء أكانوا جندًا أم بحارة مقاتلة، ويتكلم وليم الصورى بأعجاب[1] عن والى عسقلان

---

(١) نفسه، ٢ص، ٣٠٢،٣٨.
(٢) نفسه، ٣ص ٣٥٤.
(٣) نفسه، ٣ص ٤٩.
(٤) نفسه، ٣ص ٣٨
(٥) نفسه، ٣ص ٣٥٤.
(٦) نفسه، ٣ص ٤٩ ـ ٥٠.
(٧) نفسه، ٣ص ٣٥٣.
(٨) نفسه، ٣ص ١٣٠.

المصرى، الذى صوره بوحش فى قتالهم[1]، شديد البطش، إذ اعتبر عسقلان خط الدفاع الأمامى لبلده مصر، وحائلاً من الطمع فيها، وأنها حصن أمان لها. فكان يشن الغارات العنيفة على بلاد الفرنجة، ولا يتردد فى اجتياحها بجرأة كبيرة، وعيونه تراقب تحركاتهم فى كل مكان. ففى مرة هاجم يافا بعد أن أصبحت فى حوزة الصليبيين[2]، وبلغت به الجرأة أنه مد زحفه منها إلى بيت المقدس أيضًا، وأقام الكمائن فى مواضع معينة على الطريق الموصل إليه[3]؛ تمهيدًا لتكرار هجماته عليه. وفى جولة أخرى، حينما قام الفرنجة بحصار مدينة صُور، إحدى مدن الساحل الشامى الهامة، وكانت القدس بسببه خالية من جندها؛ فإنه بذل جهوده فى حملاته عليها؛ وكان من الممكن أن يستولى عليها؛ لولا وصول النجدات الصليبية إليها[4].

ولما كان هذا الوالى المصرى يخشى تسرب الوهن إلى نفوس جنده[5]؛ بسبب غاراته العديدة على الفرنجة، فإنه وفر الميرة اللازمة لهم؛ بالإضافة إلى تزويدهم بالسلاح الجيد، ويريحهم من وقت لآخر بإقامة البدل بينهم، وكلما هلكت طائفة منهم؛ جلب أخرى من مصر؛ بحيث أصبحت عسقلان أكبر تجمع لعسكر مصر فى فلسطين؛ فيزداد بهم بأسًا على بأس[6]؛ وحينما يصل الأسطول المصرى إلى عسقلان، فإنه يبعث الطمأنينة فى نفوس المقاومين[7]، إلا أن هذا الوالى المصرى الشجاع استشهد فى قتاله مع الصليبيين[8].

ولكن عسقلان سقطت فى آخر الأمر فى أيدى الصليبيين؛ بعد مقاومتها الشديدة التى ذكرها مؤرخو الفرنجة أنفسهم، لمدة ثلاث وخمسين سنة متوالية؛ كما

---

(١) نفسه، ٣ص ١٣١.
(٢) نفسه، ٢ص ٣١١.
(٣) نفسه، ٢ص ٢١٧.
(٤) نفسه، ٢ص ٣٠٢، ٣٠٣، ٣ص ١٣١.
(٥) نفسه، ٣ص ١٣١.
(٦) نفسه.
(٧) نفسه، ٣ص ٣٥٨.
(٨) نفسه، ٢ص ٢٦٤.

الشديدة التى ذكرها مؤرخو الفرنجة أنفسهم، لمدة ثلاث وخمسين سنة متوالية؛ كما ذكرنا[١]. وفى سبيل أخذها أحاطوها بسلسلة من التحصينات القوية، المزودة بالقلاع والأبراج[٢]؛ لتكون بمثابة ركائز ثابتة فى مهاجمتها، ملأوها بجند من الحجاج المسيحيين[٣]. فكانت أهم تحصيناتهم حولها فى بثرسبع[٤]، وتقع فى جنوب عَسقلان عند سفح الجبال المحيطة بها، حشدوا فيها فرسانًا مدربين من الإسبتارية، وفى اللُد[٥]، وهى بلدة متاخمة لمدينة الرملة، وكانت عاصمة فلسطين. ولاشك أن سقوط مدينة صور فى أيدى الصليبيين بعد مقاومتها الشديدة لهم هى الأخرى؛ مما كان سببًا فى التعجيل بسقوط عسقلان. وقد حاول ابن السلار، الوزير الفاطمى، أن يسير بنفسه لاستنقاذها[٦]، لولا ظهور منافس له على منصب الوزارة، وبخاصة أن الأسطول المصرى كان قد ازداد نشاطه فى عهده؛ ففى عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م، هاجم معظم الثغور التى كانت سقطت فى أيدى الصليبيين، مثل: يافا، وعكًا، وصُور، وبيَروت، وطرابلُس، وصور[٧] . وعلى سبيل الانتقام؛ فإن ملك الفرنجة بغدوين الثانى - بلدوين - أرسل حملة برية إلى الفرما مدخل مصر من ناحية الشام؛ كماهاجم عَسقلان فى حملات متتالية من البر والبحر، وسقطت فى يده فى ٢٧ من جمادى الأولى سنة ٥٤٨ / ٢٠ أغسطس ١١٥٣[٨]، وطرد أهلها منها، الذين خرجوا هائمين على وجوههم فى العراء[٩]، وأقطعت للأمير عمورى، قبل أن يصبح ملكًا فى بيت المقدس[١٠] وقد أصبحت عَسقلان على عكس ما كانت قبل سقوطها قاعدة بحرية هامة للفرنجة، مثلما كانت للمصريين من قبل، باعتبارها رمزًا للصمود المصرى أمام الغزو الصليبى فى فلسطين، وقامت وحدها من دون مدن الشام الأخرى بحرب استنزاف حقيقية كرد فعل لحركة الفرنج الصليبية فى الشرق الإسلامى.

---

(١) نفسه، ٣ص ٣٥٣.
(٢) نفسه، ٣ص ١٣١.
(٣) نفسه، ٣ص ٣٥٥ - ٣٥٨.
(٤) نفسه، ٣ص ١٣٢.
(٥) نفسه.
(٦) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص٧.
(٧) ابن القلانسى، ص ٣١٥؛ ص ٣٢٧؛ انظر. عنانى، التجربة الإسلامية فى مواجهة الصليبيين فى مصر والشام، مجلة اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٥٩، ص ٣٢٧.
(٨) يقول أبو المحاسن: إن سقوطها فى سنة ٥٤٥ هـ/ ١١٥٠م. أنظر. النجوم، ٥ص ٢٩٩.
(٩)) وليم، ٣ص ٣٧.
(١٠) نفسه؛ وبعده.

ولكن قبل سقوط عسقلان فى أيدى الفرنجة، نقل الفاطميون رأس الحسين المدفونة فيها منذ أيام الأمويين بعد مقتله فى عهد يزيد بن معاوية؛ وأقاموا لها مشهدًا بالقاهرة فى عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م(١)، لايزال يحمل اسم: مشهد الحسين، وقد أصبح من معالم القاهرة الحالية. وقد اختلف فيمن أحضر الرأس، فلعله الوزير بدر الجمالى أو ابنه الأفضل الذى خلفه فى منصب الوزارة الفاطمية، أما المشهد ذاته، فبناه طلائع بن رزيك، وهو من أبرز وزراء الفاطميين، فى آخر أيام دولتهم.

* *

ولكن الحمل الأكبر فى الصمود أمام الفرنجة أتى من جانب الترك السلاجقة، الذين تحملوا ضرباتهم الأولى ؛ وكانوا بمثابة المخفر الأمامى للمسلمين. وعلى عكس الصمود الفاطمى الذى انتكس بسقوط عَسْقِلان؛ فإن الصمود السلجوقى قد أتى بنتائج باهرة، وأصبح بداية للصمود التدريجى أمام أوربا؛ مما مهّد لليقظة الإسلامية، والعمل الموحد، وبخاصة بعد أن انضم الجسد العربى إلى الجسد التركى فى جهاد الصليبيين.

وقد أصبحت منطقة الموصُل من بلاد الجزيرة، التى ظهرت شخصيتها منذ أيام الإسلام الأولى؛ بسبب وجود الروم أعداء الدولة الإسلامية فى بدايتها بجوارها؛ مما أوجد خطرًا شديدًا عليها، بحيث اعتبر إقليم الجزيرة فى أيام الأمويين والعباسيين الجناح الأيسر أو الجزري، الذى يدافع منه عن ثغور المسلمين ضد الروم. أما فى وقت الصليبيين؛ فإن منطقة الموُصل، وتقع فى طريق بغداد عاصمة الخلافة العباسية؛ قد أصبحت تواجه إمارة الرُها الصليبية، وسكانها وقتذاك خليط من العرب والترك والأكراد، كانوا تحولوا إلى الإسلام فى

---

(١) الخطط، ٢ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤؛ أبو الفداء، المختصر ١ص ١٩١. ينفى ابن تيمية نقل الرأس فى العصر المملوكى.
أنظر. مقالة Schreiner: فى: ZDMG, 33, 82.

معظمهم منذ ظهوره. فمن حكامها الذين سعوا الى توحيد إقليم الجزيرة لجهاد الصليبيين؛ نذكر: مودود، وأيلغازى، وآق سنقر البرسقى، وعلى الأخص عماد الدين زنكى، وابنه نور الدين.

فمودود (ت ٥٠٧هـ / ١١١٣م)(١) - قطب الدين - وهو أمير تركى سلجوقى، كان قد عينه أخوه السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل، فعمل على ضم الأماكن المجاورة إلى إمارته؛ ليجابه إمارة الرُها الصليبية، التى حاصرها ولم يقدر على فتحها. فعبر الفرات الى الشام، ليتحد مع طَغتكين - أو طغدكين - أتابك دمشق التركى، فى حربه للفرنجة، فهزم الاثنان معًا بغدوين (أو بلدوين) الثانى، ملك بيت المقدس، وجوسلين "Joscelin" أمير الرُها، وغيرهما من الفرنجة عند طبرية المجاورة للقدس. ولكن ولما صل عدد كبير من الفرنجة إلى أنطاكية، توقف مودود عن الجهاد وقتًا، وذهب للراحة فى دمشق؛ حيث قتل فيها، وربما كان ذلك بتحريض من طُغتكين - طغدكين - الذى كان أتابكًا لدقاق ابن تُتش وقتله، وانفرد بالسلطة، بحجة أن دقاقًا كان قد صالح الفرنجة(٢).

أما إيلغازى بن أرتق (ت ٥١٦هـ / ١١٢٢م)(٣)، صاحب ماردين، إحدى مدن بلاد الجزيرة؛ فمع أنه لم يكن حاكمًا للموصل فى أول الأمر؛ إلا أنه كان يحكم فى المنطقة المجاورة للرُها؛ ثم ضم إليه حلب، بعد وفاة رضوان بن تُتش. فتمكن إيلغازى من إحراز انتصارات هائلة ضد إمارتى الرها وأنطاكية(٤)، التى قتل فيها أميرها الفرنجى روجر «Roger»، وتولى بعده تنكريد «Tancrid»؛ مما جعل ملك بيت المقدس بغدوين الثانى - أو بلدوين - يسرع لاستنقاذها، فلما سمع إيلغازى بذلك مات بالسكتة القلبية؛ فتولى بعده ابنَ أخيه المسمى بلُك بن بهرام(٥)، الذى تمكن من أسر ملك بيت المقدس، وجوسلين أمير الُرها أيضًا، مما قوى من الروح المعنوية عند المسلمين، ولكن تمكن الاثنان من النجاة من الأسر فيما بعد عن طريق الخيانة.

---

(١) ابن الأثير، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية(الموصل)، تحقيق طليمات، ص ١٧ - ١٩.
(٢) الكامل، ٨ص ٢٨٨، ٩، ٣؛ ابن العديم، زبدة الحلب فى: . R. des Hist des Croisades, P. 595 - TIII, 596
(٣) التاريخ الباهر، ص ١٩، ٢٠، ٢٤، ٣١؛ الكامل، ٨ص ٣٠٢. عن الارانقة، أنظر قبله.
(٤) وليم، ترجمة، ٢ص ٣٤٨. (٥) نفسه، ٢ص ٣٥٩

أما آق سنقر البرسقى[1] (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦)، وهو من القادة السلاجقة فى أيام ملكشاه، الذى تولى على حلب وبعض مناطق بلاد الجزيرة، فقد حارب الفرنجة فى الرُها، وخرَّب فى بلادهم، وصد حلفاً من ملك بيت المقدس وغيره[2]، ولكن آق سنقر قتله بعض الفداوية الشيعة،وكانوا انتشروا فى هذه المنطقة.

ولكن كان أعظم هؤلاء جميعًا هو عماد الدين زنكى[3] (ت ٥٤١ هـ / ١١٤٦م)، وهو الابن الوحيد لآق سنقر البرسقى، وكان أقطعه سلطان وقته السلجوقى محمود بن محمد بن ملكشاه الموصل، وجعله مربيا لولديه فعرف بالأتابك؛ لأن الأتابك هو من يربى أبناء السلاطين. ثم مالبث أن ظهر طموح زنكى، فضم إليه حلب أيضًا، التى كانت لأبيه من قبل، كماضم غيرها من مدن إقليم الجزيرة. وبعد موت محمود أصبح زنكى مع أخيه مسعود ضد الخليفة المسترشد، الذى رغب فى تولية السلطنة فى بغداد لغير مسعود هذا. وقد ذهب زنكى مع مسعود لحصار الخليفة فى بغداد، فهزمهما الخليفة، وكاد زنكى يهلك[4]؛ ولكن مسعودًا قتل الخليفة، وتولى السلطنة فى بغداد. وربما كان زنكى؛ يترقب موت مسعود، ليحكم هو الآخر فى بغداد[5]؛ حيث اعتبرت دولة بيت زنكى بعد ذلك أول دولة لأتابك ملكوا مع الخلفاء، بملاحظه القلقشندى[6].

وكان زنكى يرمى إلى ضم أتابكية دمشق[7]، الواقعة فى وسط الشام إلى ملكه؛ وهى التى - كما ذكرنا - كان أسسها طغتكين - أو طغدكين - حيث كانت هذه الأتابكية قوية فى عهده، وعهد ابنه بورى، الذى قتله الفداوية الشيعة فى الشام. وبعد بورى تولى ابنه إسماعيل؛ إلا أنه كان ظالماً فقتل، فتولى ابنه محمود

---

(١) التاريخ الباهر، ص ١٥ ومابعدها.
(٢) وليم، ٣ص ٤٧، ٤٨.
(٣) نفسه، ص ١٥ ومابعدها؛ وفيات الأعيان، ١ص ٣٤٣ - ٣٤٤؛ انظر:
Ency. de l'Isl (Art Zangî) t4, P. 1294 - 5.
(٤) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق الشيال، ١ص ٤٧ ، ٤٨، ٥١ .
(٥) نفسه، ١ص ٩٥.
(٦) صبح الأعشى، ٥ص ٤٤٧ - ٤٤٨، ٩ص ٤٠٣ ، ٤٠٤.
(٧) عن ملوكها: وفيات الأعيان، ١ص ١٦٩؛ أبو الفدا، المختصر، ط. الحسينية، ٣ص ٨ ومابعدها.

الذى سيطر عليه معين الدين أنر، مملوك طغتكين، ولما اغتيل محمود، ولى أنر جمال الدين بن محمود، ومن بعده أخاه مجير الدين. وكان زنكى يريد فى أول الأمر، أن يضم الأتابكية الدمشقية عن طريق الزواج من الخاتون أم محمود المسماة زمرد خاتون، التى استدعته لتأخذ بثأر ابنها محمود الذى اغتيل. ومع أن زنكى حاصر دمشق فى سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م؛ إلا أنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها؛ بسبب استنجاد أنر بالفرنج، مما جعله يرفع الحصار عنها.

وعلى العموم يرجع الفضل إلى زنكى فى سعيه لرفع معنويات المسلمين حيث وصفوه بأنه صنديد وبطل، يلهب حماس المسلمين بكلامه، وأنه شديد الدهاء[١]، ويحارب الفرنجة بشدة؛ فعرف لهؤلاء باسم: «Sanguinus»، أى محب لسفك الدماء، أما المسلمون فسموه بالشهيد، لتفانيه فى جهاد الصليبيين. فيذكر له المؤرخون أنه كان لا ينقضى عليه العام، حتى يفتح بلادًا من بلاد الفرنجة. ولعل أهم انتصاراته عليهم، فتحه لمدينة الرُها، التى اعتبرت من أشرف المدن وأشهرها عند النصارى لكثرة قديسيها ،ولحصانتها الشديدة؛ فكان بها عدد كبير من الأبراج شاهقة الارتفاع[٢]. وقد تم له الاستيلاء عليها فى أثناء غيبة أميرها، جوسلين، الذى كثيرًا ما كان يتركها ويقيم فى قلعة قرب الفرات،وكان حاصرها لمدة ثمانية وعشرين يومًا، وبعد أن حفر له عماله الأنفاق تحت أسوارها. دخلها فى سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م[٣] وقتل كل من فيها من الصليبيين، وجمع رءوس القتلى وبنى بها منارة أذن عليها؛ ونكس صلبانها، وأباد رهبانها، ورتب العساكر الإسلامية فيها؛ وبذلك خلّص المسلمين من خطرها. وقد شُبه انتصاره فى الرها؛ بالانتصار فى بدر؛ إذ كان سقوطها سببًا فى انقسام المعسكر المسيحى، وبعدها لم يتبق من إمارات الصليبيين غير إمارتى أنطاكية وطرابُلس، بالإضافة إلى مملكة بيت المقدس، بحيث كتب الشاعر الأرمنى نرسيس الرحيم "Narsès Schnorhali"، مرثية عن

(١) وليم، ترجمة، ٣ص ١٣٦، ١٣٨.
(٢) نفسه،٣ص ٢٥.
(٣) الدولة الأتابكية فى: R. H. C. or, P. 118 Sqq؛ الكامل، ٩ص٨.

سقوطها تتكون من ١٣٥٨ بيتًا؛ إذ كان الأرمن وقتذاك متحمسين للفرنجة أكثر من تحمسهم السابق للروم[١]؛على الرغم من اختلاف عقيدتهم الدينية معهم. ولكن زنكى قُتل على يد غلمانه؛ ربما بتحريض من السلطان السلجوقى[٢] فى بغداد ألب أرسلان فى عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م[٢]؛ وبذلك طويت صفحة مجيدة فى سيرة الشهيد؛ كما عرفه المسلمون بهذه التسمية.

ولحسن حظ المسلمين أن ولدى زنكى لم ينقسما بعد قتل أبيهما وهما: نور الدين محمود، وغازى الأول سيف الدين؛ فأقام الأول فى حلب، والثانى فى الموصل[٣]؛ وإن كان هذا الأخير مالبث أن توفى. وقد بدأت شخصية نور الدين[٤] تعزز مكانتها بين الزعماء الذين عملوا على اتحاد المسلمين، فى منطقة الشرق الأوسط، ودفع الغزاة عنها؛ إذ كان فى رأى مؤرخى وقته شخصية قوية، حتى أنها شبهت بالخلفاء الكبار؛ لما كان يرمى إليه من عزة الإسلام. حقًّا إن نور الدين، لم يصل إلى نتائج حاسمة فى حروبه مع الصليبيين مثل صلاح الدين فيما بعد؛ إلا أنه تمكن من أن يبنى دولة إسلامية قوية، تقف بثبات أمام هجمات الصليبيين. فكان نور الدين بذلك من أبطال وحدة المسلمين فى الشرق الأوسط، ولاسيما أنه كان من الزعماء النادرين، الذين وصفهم الأوربيون أنفسهم بالحكمة وجودة الساسة"Noradinus tam Prudens tanque Providus Princeps".

وبالفعل سعى نور الدين إلى ضم دمشق إلى حلب؛ كما كان يريد أبوه زنكى من قبل. ويبدو أن الخليفة المقتفى لأمر الله[٥]، هو الذى حث نور الدين على ذلك، فمنحه تقليدًا على البلاد الشامية، وعلى مصر التى كانت بيد الفاطميين. وقد أُتيحت الفرصة لنور الدين فى ضم دمشق بموت أنر، ذلك الرجل

(١) أنظر R. H. C. Arm,I, P. 223 - 278.

(٢) الأتابكية، ص ١٣١ ومابعدها؛ مفرج الكروب، ١ص٩٩ ومابعدها.

(٣) مفرج الكروب، ١ص ١٠٩.

(٤) مثلا، انظر. حسين مؤنس، نور الدين محمود، القاهرة ١٩٥٩.

(٥) حسن المحاضرة، ٢ص ١٧. يكتبها المكتفى. عنه، انظر.
Ency de l'Isl. (Art al - Muktafi) t. 3, p. 769.

الخائن لقضية المسلمين، وقضى عمره فى الكيد والدس، ومعارضة وحدتهم واعتبر صديقًا للصليبيين؛ وإن اعترف وليم الصورى أنه لايفهمه، ويشك فى ولائه لهم[1]. فلما تولى بعده الرجل الضعيف: مجير الدين، فإنه تحالف هو الآخر مع فرنجة بيت المقدس، ووعدهم بتسليم بَعْلبك لهم. ويظهر قصد نور الدين فى توحيد قوى المسلمين، من الكتاب الذى أرسله لمجير الدين، حينما ذهب لحصار دمشق، ورد فيه: أننى ما أردت بنزولى هذا المنزل، طلبًا لمحاربتكم ولامنازلتكم، وإنما دعانى إلى هذا الأمر، كثرة شكاية المسلمين، وعدم الناصر لهم، ولايسعنى، مع ما أعطانى الله ـ وله الحمد ـ من الاقتدار على نصرة المسلمين، وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم، ولا انتصر لهم، مع معرفتى بعجزكم عن حفظ أعمالكم، والتقصير الذى دعاكم إلى الاستصراخ على محاربتى.

وقد اتصل نور الدين بأنصاره فى دمشق[2]، وخصوصًا بأيوب ـ أحد كبار أعوانه الأكراد ـ الذى كان أنقذ أباه زنكى؛ لما حاربه خليفة العراق[3]؛ كما أن أخا أيوب المسمى شيركوه، كان هو الآخر فى خدمة نور الدين[4]. ومن المؤكد أن شعب أتابكية دمشق العربى كان تواقا إلى توحيد قوى المسلمين، حتى أن إحدى نساء دمشق، كانت أول من أدلى الحبال لجنود نور الدين لتسلق أسوارها، وهذا يدل على أن دمشق كانت سباقة دائمًا الى الوحدة. وبذلك تحققت على يد نور الدين وحدة المسلمين من حلب إلى دمشق إلى الموصل، التى توفى فيها أخوه الأكبر غازى، كما ذكرنا[5]، فتولى بعده قطب الدين أخوه الأصغر، الذى سار على السياسة عينها فى التعاون مع نور الدين، وظهرت له عملة من الفضة والنحاس؛ عُرفت بالقراطيس، مثلما ظهرت لأبيه[6] من قبل.

---

(١) وليم، ترجمة، ٣ص ١٢٤٦؛ ابن واصل، ١ص ١٢٦ ، ١٢٧.
(٢) الخطط، ٣ص ١٣٧٨؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ٦٢ وما بعدها.
(٣) ابن واصل، ١ص ٤٨؛ انظر. ماجد، الناصر صلاح الدين الأيوبى، القاهرة ١٩٥٩، ص ٤٨.
(٤) النجوم، ٦ص ٥.
(٥) الكامل، ٩ص ٢٤. توفى غازى فى ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ـ ٥٠م.
(٦) الشيزرى، نهاية الرتبة، ص ٧٥.

وعلى كل حال بفضل هذه الوحدة المحدودة، التى أوجدها زنكى من قبل ونور من بعده؛ فإن طرفا الهلال أخذا يحدقان في بطء بإمارات الصليبيين ومملكتهم. والواقع أنه منذ ذلك الحين؛ فإن نور الدين شنَّ حربًا شعواء ضدهم؛ فاخذ أملاكًا من إمارة أنطاكية، واستولى على مدن من إمارة طرابلس. ولشدة حماس نور الدين فى قتال الصليبيين، عُرف كأبيه بالشهيد، لطلبه الشهادة فى قتالهم، واعتبر من أشد أعدائهم، على حسب قول المؤرخ الصليبى وليام الصورى[1] "Noradinus Creueus anemi aus Crestins"

* *

ولما كان خبر استيلاء زنكى على الرُها قد انتشر فى أوربا، واشتهر صيته دون بقية الأتابكة عند الصليبيين؛ فإن ملك بيزنطة ـ الروم ـ يوحنا الثانى كالوجوهانيز«Joan II Calojahannes»؛ قدَّر خطر هذا الزعيم السلجوقى على النصرانية كلها، فعاد إلى الاتحاد مع الفرنجة، ولاسيما أن أرملة أمير أنطاكية قد استعانت به؛ خوفًا على إمارتها. فخرج فى جيوش كثيرة من اليونان والأرمن والفرنجة للاستيلاء على حلب وكانت من أملاك زنكى؛ الذى اضطر إلى طلب المدد والعون من بغداد؛ لاعتقاده أنه إذا ذهبت حلب لم يبق بالشام إسلام ،إلا أن السلطان السلجوقى أوالخليفة العباسى؛ لم يهتما إطلاقًا بطلب زنكى؛ ومع ذلك استطاع زنكى أن يرغم يوحنا هذا على التقهقر، واستولى على بعض الثغور بين الشام وأنطاكية؛ لتقوية مركزه[2].

وعلى كل حال؛ فقد دعت أوربا، على أثر استيلاء زنكى على إمارة الرُها، وانتصاره على ملك الروم، إلى قيام حملة صليبية جديدة، وهى الحملة الصليبية الثانية، التى جاءت إلى الشرق بعد اغتيال زنكى، الذى قتله أحد غلمانه كما ذكرنا. ولدينا وصف مسهب عنها من مؤرخين شرقيين[3]، ومن أودودى ديل "Odo de Deil"، المؤرخ الصليبى الذى رافقها إلى الشرق. فقد دعا إلى القيام بها،

---

(١) وليم، ترجمة، ٣ص ٣٢٥.
نقلها عنه: Champador : Saladin. Paris, 1956, P. 66
(٢) ابن واصل، ١ص ٧٨ ـ ٨١.
(٣) أبو شامة، الروضتين، ١ص ٣٦ ـ ٣٧، ٥٢ ـ ٥٣؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧٩ ـ ٢٨.

البابا بوجينوس الثالث III «Eugeniust» (١١٤٥ ـ ١١٥٣م)، كـلا من ملك فرنسـا لويس السابع "Louis VII"، وملك الألمان كونراد الثالث «Konrad III»[1]، وكلف القديس برنارد «Bernard»، أن يدعو لها؛ حـيث اعتبر فى وقتـها الروح والضوء لتحمسـه الشديد فى قتال المسلمين، وكان يمزق ثـوبه ليصنع منه صلبانًا[2]. ولم تكن هذه الحملة الصليبية الثانية. حملة فرسان مشهورين كالحملة السابقة، بقدر ما كانت حـملة ملوك؛ حيث خـرج ملوك أوربا لأول مرة خـارج بلادهم، واتحدت فرنسا وألمـانيا معًا فى حرب المسلمين، على الرغم من عداوتهما التـقليدية. ولم يكن مقدرًا فى هذه الحملة أن تصحب الملكات أزواجهن الملوك، ولكن ملك فرنسا اصطحب معه زوجـته إليانور"Eléanore"؛ لأنه لم يكن يثق فـيها؛ حـتى يتركـها وحدها؛ وهى التى عرفت بمغامرتها، ولم يكن يعجبها أن تتزوج رجلاً متدينًا مثل لويس.

وقد بدأت الحملة الصليبية بداية سيئة، بسبب العداوة المتأصلة بين الفرنسيين والألمان، ثم مالبث ملك القسطنطينية، مانويل الأول كومنينوس-Manuel,I Com "nenus"، الذى تولى بعـد يوحنا الثانى فى عـام ١١٤٣م، أن فعل هو الآخـر مع الملكين مثلما فعل ألكسيوس مع كبار فرسان الحملة الأولى، فطلب منهما أن يحلفا له يمين الولاء، فحلفاه ضد رغبتهما «Contre - Coeur»؛ مع أنه اقترح على ملك فرنسا أن يسـتولى على بيزنطة. إلا أن الملكين: الفرنسى والألمانى، لم يتـفقا على خطة عـسكرية واحدة؛ فـاتجـه ملك الألمان بمفرده إلى دروليـه «Dorylaeum» فى ناحية الترك السلاجقة فى أكتوبر٥٤٢ هـ / ١١٤٧م؛ حيث منى بهزيمة ساحقة فى المكان ذاته الذى انتصر فـيه صليبيو الحملة الأولى. ومع أن ملك فـرنسا أسرع فى إثر ملك الألمان لإنقاذه، واستقبله مفتوح الذراعين؛ فان ملك الألمان لم يسر معه، ورجع إلى بيزنطة، وبرح منها إلى عكة.

(١) انظر. Castries: La Con quéte de la Terre Sainte, 1973, P. 33
(٢) عنه بتفصيل، انظر : Bernhardi. CF.: Konrad III, 2Vols Leipzig, 1883
(٣) أنظر . عبد الله الربيـعى، الدوافع الدينية للحركة الصليبيـة، المؤرخ العربى، ٤، ١٩٩٦، ص ٧٩ وما بعدها

أما ملك فرنسا[١]، الذى أراد أن يتفادى السلاجقة، فقد لقى مفاجآت كثيرة فى الطريق، وكـاد يقع فى الأسـر، إذ عمـد التـرك السلاجـقـة إلى قطع خطوط تموينه، حتى لم يبق لدى الفرنسيين شىء من متاعهـم، وأصبحوا يعيشون على ما كانت بيزنطة تمدهم به من ناحـية البحر؛ بحيث قضى على جزء كـبير من الجيش الفرنسى، واضطر الملك الفرنسى أن يذهب إلى أنطاكية عن طريق البحر. وهناك، فى أنطاكية، حدثت فضيحة «Scandale»، فى البيت الملكى الفرنسى؛ فقد أعلنت إليانور نفورها الشـديد من لويس، أما الملك من ناحيته فـلاحظ تقاربًا بين إليانور وأمير أنطاكـية الشاب ريموند «Raymond» أو «Raimond»؛ مما أثار غيـرة الملك، وحقـده على زوجتـه الخفـيفـة. وكان من رأى ريموند، أن يوجـه الملك مجـهوده لاستعـادة الرُها، التى قامت من أجلها الحملة الصليـبية الثانية، وتـبقى إليانور فى أنطاكية. ولكن الملك الفرنسى الغيـور، خاف منه على زوجته، وطرح مسألة الرها جانبًا، وقرر أن يسير إلى بيت المقدس، ويقابل كونراد، ويهاجم أتابكية دمشق.

فلمـا هاجم الملكان دمشق سـاعدا ولـدا زنكى: غازى ونور الدين أتابكيـة دمشق، التى بهـا معين الدين أنر، بالدفاع عنهـا ضد هذه الحملة الصليبـية، التى حاصرتها فى ٥٤٣هـ / ١١٤٨م. وكـان لحسن حظ المسلمين أيضًا؛ أن ملك بيت المقدس بغدوين الثالث، لم يكن مستعدًا للتعاون مع الملكين الغربيين. وقد حارباه الأخوان متحدين، وأكرهوهما على التراجع[٢]. وهكذا اضطر الملكان إلى الرجوع إلى بلادهما، بعد أن أخفقـا فى حملتهما، وفقد ملك فرنسا ثقـته بزوجته؛ حيث طلقهـا بعد ذلك؛ ولكنها سرعـان ما تزوجت من غيـره، وهو الكونت الفرنسى أنجو Anjou[٣] .

* * *

والخلاصة أن المسلمين فى الشرق الأوسـط ـ وهم العرب ـ وقد انضم الترك السلاجـقة إليهم، لم يسـتسلموا؛ وإنما شنوها حـربًا استنزافيـة قوية؛ مما أدى الى اليقظة الإسلامية، ورجحان كفة المسلمين بعد ذلك.

---

(١) أنظر:
Michel le Syien: Chronique, 13, P. 276; Rey: Hist. des Princes d'Ationch. Paris, P. 467.
حسن حبشى، نور الدين والصليبيون، ص ٥١ وما بعدها.

(٢) نفسه، ١ص ١١٢ ومابعدها ؛ الكامل، ٩ص ٢٠ ـ ٢١؛ الأتابكية، ص ١٥٩. وما بعدها.

(٣) وليم، ترجمة، ٣ص ٣٠١.

الفصل الرابع

ظهور صلاح الدين، وتأسيس الدولة الأيوبية

يعتبر صلاح الدين بن أيوب، المؤسس الأول للدولة الأيوبية فى مصر؛ حيث تتفق أغلب المصادر التاريخية على أن أصل أسرته من الكرد[1]؛ ولذا أطلق على دولته فيما بعد دولة الأكراد[2]. وقد تعنى كلمة كرد الذئب، وهى بذلك تدل على طبيعة بلاد الأكراد الجبلية، التى كانت ـ كما يظهر ـ مأوى للذئاب. وعلى العموم لانعرف من أين جاء الأكراد، ولعلهم هجرة آرية قديمة؛ وإن كنا نعرف أنه لما جاء الإسلام اعتنقوه منذ وقت مبكر. وهناك ملاحظة من قبل المؤرخين أن الكرد خلائق لاتحصى وأمم لاتحصر، ولولا أن سيف الفتنة بينهم يستحصدهم[3]، ولايجعلهم يفيضون على البلاد؛ إذ رموا دائمًا بشقاق الرأى، وتفرق الكلمة[4].

ومع ذلك، هناك رأى آخر ينسب أسرة صلاح الدين إلى أصل عربى؛ حيث كانت قبائل العرب تنزل عند ألأكراد وتتزوج منهم، وهذه الأسرة بالتخصيص من نسل المروانيين، فرع بنى أمية؛ فصلاح الدين: هو يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى (أو شاذى) بن مروان الكردى[5]. فلعل ربطها بمروان الكردى ـ كما يبدو ـ لايقصد به اتصالها بجد حقيقى عُرف بهذا الاسم؛ أكثر مما يقُصد به إلى أنه من سلالة الخليفة مروان بن محمد آخر الأمويين، الذى كانت أمه كردية. فيقول المؤرخ المحقق ابن خلكان: إنه لايعرف لهذه الأسرة جد بعد شادى، مع أنه اطلع على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك أفرادها[6]. ويقول المقريزي أيضًا إن نسبتها إلى

---

(١) من بين عدة مصادر: شرف خان، شرفنامه (تاريخ الكرد)، تحقيق Zernorf، ١ص ٥٥؛ انظر: Ency de l'Isl. (art Kurdes) t2, p. 1204.

(٢) ابن إياس، بدائع، ١ ص٦٩.

(٣) أنظر. ماجد، الناصر صلاح الدين الأيوبى، ط٢، بيروت [مهمشة] ص ١٥١؛ Marin: Histoire, de Saladin, tI, p. 87.

(٤) العمرى، المصطلح الشريف، ص ٣٧.

(٥) وفيات الأعيان، ٣ص ٤٧١؛ الخطط، ٣ص ٣٧٨.

(٦) وفيات الأعيان، ٣ص ٤٧٠ ـ ٤٧١.

أصل غيـر كردى، هو من أقـوال بعض الفقهـاء، الذين أرادوا الحظوة لديهـم، لما صار الملْك إليهم[1].

كـذلك اخـتلف في المكان الذى أتت مـنه هذه الأسـرة، فـقـيل الموصل أوسجستـان، أو دوين (دَبيل)، بلدة على حدود إقليم أذربيجان من جهـة الشمال من ناحية أرمينية[2] فجـدها شادى هاجـر إلى بغداد، التى كـان يسيطر عليـها السلاجقه، وأنه تداخل مع أمرائهم ورجال دولتهم بقـوة شخصيته؛ فمنحوه حكم قلعة تكْرِيت على الضفة اليمنى من نهر دجلـة شمال سامرا؛ حيث يبدو أن أغلب سكانها كانوا من الكرد[3]. وبعد موت شـادى، أصبح ابنه نجم الدين أيوب وريثه فيها، فـعين عليها دزداراً، أى حافظًا لقلعتها؛ إذ دز بالفـارسية تعنى القلعة، ودار حافظها[4]. فكان يعاونـه فى حكمها شـيركـوه ـ بمعنى أسد الجبل ـ الملّقب أسد الدين، وهو أخوه الأصـغر[5]. فـولد لأيوب فى تكريـت هذه ابنه صـلاح الدين يوسف؛ حيث ذكرت تواريخ كثيرة لمولده، اتفق المؤرخون منها على عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م[6].

ومع ذلك؛ لايبـدو أن إقامـة هذه الأسرة فـى تكريت قد طالت بعـد ولادة صلاح الدين؛ إذ لما ضم أتابك الموصل وحلب، وهو عـماد الدين زنكى ـ زنجى ـ وهو سلجوقى، بَعْلبك إلى أملاكه[7]، وهى قرية من دمشـق من جهة الساحل، وكانت من أمـلاك أتابكية سلجوقـية أخرى، هى أتابكيـة دمشق المنافسـة له؛ فإنه سلَّمهـا إلى أيوب، وجعله أميرًا عليـها فى سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م[8]. ولاشك أن صلاح الدين ترعرع فى هذه المدينة، وإن لم تكن لدينا تفاصيل عن طفولته أو فترة

---

(١) الخطط، ٢ص ٣٧٨.

(٢) وفيات الأعيان، ١ص ١٥٢. عن دوين: معجم البلدان، ٤ص ١١١٢؛ انظر.
Ency de l'Isl, (art Dwín) ti, p. 1119.

(٣) نفسه، ١ص ١٤٩ ـ ١٥٠. عن تكريت: معجم البلدان، ٢ص ٢٩٩ ـ ٤٠١؛ انظر: Minorsky, Pre-history of Saladin S.C.H. Cambridge, 1953, pp. 107 - 129; Ency de l'Isl, (art Takrít) t4, pp. 663 - 664.

(٤) وردت فى سيرة صلاح الدين. أنظر. وفيات، ١ص ١٤٩ ـ ١٥٢؛ ٣ص ٤٧٢.

(٥) عنه: نفسه، ١ص ٤٠٥ ـ ٤٠٧؛ انظر. Ency de l'Isl, (art Shirkúh) t4, p. 395 - 397

(٦) وفيات الأعيان، ٣ص ٤٧٤.

(٧) عن ملوكها: نفسه، ١ص ١٦٩؛ أبو الفدا، المختصر، ٣ص ٨ ومابعدها.

(٨) الخطط، ٣ص ٣٧٨؛ وفيات، ٣ص ٤٧٤. عن بعلبك معجم البلدان، ٢ص ٢٢٦ ومابعدها.

بلوغه. ومن المؤكد أن أباه أيوبًا أحسن تربيته، فيصف المؤرخ ابن الأثير أيوبًا بأنه كان له عقل ورأى وحسن سيرة[1].

ولعل أيوبًا وأخاه شيركوه كانا يشاطران عماد الدين زنكى فى حروبه ضد أتابكية دمشق[2] السلجوقية، التى أصبح يسيطر عليها معين الدين أنر فاستعان بصليبيى بيت المقدس، وعقد معهم اتفاقية[3]، وكان يبذل غاية جهده ليكسب مودتهم مصطنعًا شتى الأساليب؛ ويتساءل ولنيم الصورى[4]؛ إن كان صادرًا عن نية صادقة، أو أنه أمر فرضته الضرورة، وإن كان على ما يبدو يريد السلام معهم. ولكن بعد موت عماد الدين زنكى؛ فإن أنر هاجم بعلبك التى كان فيها أيوب الذى سلمها له، وانتقل هو وأبناؤه معه إلى دمشق، وأصبح أحد قواد هذه الأتابكية[5]. وعلى النقيض اتصل أخوه شيركوه بخدمة نور الدين صاحب حلب، بعد موت أبيه عماد زنكى، وصار مقدم عسكره[6]. ويظهر هذا التصرف من جانب الأخوين غامضًا، فربما كانت لهما أطماع خاصة فى السيطرة على الأتابكيتين؛ بأن وزعا شخصيهما بينهما، أو أنه على الأقل كان هناك تدبير سابق بين نور الدين وأيوب؛ للسيطرة على أتابكية دمشق، التى كان يطمع فيها أبوه عماد الدين، كما ذكرنا. وبالفعل تمكن نور الدين بمساعدة شيركوه من الاستيلاء على دمشق من مجير الدين، الذى حل مكان أنر فى دمشق بعد موته؛ إذ يذكر المقريزى أن أيوبًا سلمها لشيركوه، بعد أن تركها مجير الدين إلى العراق؛ لما حاصرها نور الدين فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م[7]. فنقل نور الدين إليها مركز حكمه، فعين أيوبًا حاكمًا عليها، وشيركوه نائبا عنه، وصلاح الدين رئيسًا لشرطتها «الشحنجية»[8]. وكان قد بدأت تظهر على صلاح الدين أمارات الذكاء والشجاعة التى تعلمها من نور الدين. ومن المحقق أن أسرة صلاح الدين، قد تمكنت تمامًا من دولة نور الدين، وأن صلاح الدين بدأ يدخل مسرح التاريخ هو وأسرته.

---

(١) الأتابكية، ص ٢١٣.
(٢) وليم ترجمة، ٣ص ١٧٥.
(٣) نفسه، ٣ص ١٧٥ وما بعدها.
(٤) نفسه، ٣ص ٢٤٦.
(٥) مفرج، ١ص ١١٠؛ الكامل ٩٢ ص ١٦.
(٦) النجوم، ٦ ص ٥.
(٧) الخطط، ٣ص ٣٧٨؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ٦٢ ومابعدها.
(٨) وفيات الأعيان، ٣ص ٤٧٤؛ النجوم، ٦ص ٨. الشحنجية وردت فى القاموس الفارسى؛ بمعنى مكتب رئيس الشرطة المسمى شحنة. أنظر. نفسه، ٥ص ٢٠١ وهامش رقم(٢).

ومن المؤكد أن أهداف هذه الأسرة الأيوبية كانت تتوافق مع أفكار الأتابك السلجوقي نور الدين في وحدة مسلمي الشام والجزيرة، وعلى أمل أن تمتد إلى أكثر من ذلك في إقامة الوحدة الكبرى مع مصر؛ وذلك بسبب أن مصر غنية بالمال والرجال، وأنه لا يمكن طرد العدو إلا بقوة مصر ورجالها. ولاننسى أن الخليفة العباسي السني كان يستحثه على ذلك؛ إذ كانت توجد في مصر خلافة أخرى شيعية معارضة للعباسيين. يضاف إلى ذلك أن نور الدين كان يشعر بطموح الفرنجة إلى الاستيلاء على مصر، وكانت مصر الفاطمية وقتذاك أشبه بالرجل المريض؛ إذ تنافس الوزراء العظام على حكمها دون الالتفات إلى أخطار الفرنجة.

وكأن الأقدار قد دبرت الأمر له وللأسرة الأيوبية معه. فكان هناك نزاع بين وزيرين مصريين: أحدهما اسمه ضرغام، والآخر اسمه شاور، فجاء هذا الأخير إلى نور الدين في ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م، ليستعين به ضد ضرغام، وأطمعه في الديار المصرية، ووعده بحصة من خراجها مقدارها الثلث سنويًا، ويمنح جنده الإقطاعات والإقامة في مصر، ويكون متصرفًا تحت أمره ونهيه. فأسرع نور الدين منتهزًا الفرصة بإرسال شيركوه مع جند الشام[1]، فأقام شيركوه شاور في الوزارة، الذى لقب بالملك المنصور[2]، وربما يكون شيركوه من أسرة بني أيوب، هو الذى حرض نور الدين على ذلك[3]؛ أو لعله فكر في تأسيس مُلك له فيها، وأراد أن يكون عزيز مصر، أو على الأقل وزيرًا فيه للفاطميين[4].

هذا الاتحاد بين الشام ومصر لاتغيب خطورته عن نظر الفرنجة؛ حتى أن المؤرخ ابن واصل يقول[5]: «إنهم خافوا من اتحاد مصر والشام خوفًا شديدا وأيقنوا بالهلاك، وأن بلادهم تستأصل به. ونجد بغدوين الثالث - ملك بيت المقدس - ليقطع كل أمل في ذلك، أسرع بالاستيلاء على عسقلان على الساحل، التى كانت تابعة للفاطميين، وآخر معقل لهم على الساحل الشامي، وفيها حامية مصرية،

---

(١) الكامل، ٩ص ٨٤ - ٨٥؛ الأتابكية، ص ٢١٥ ، ٢١٦؛ مفرج، ١ص ١٣٧ ومابعدها.
(٢) صبح الأعشى، ١٠ص ٣١٠ - ٣١٨.
(٣) وفيات الأعيان، ٣ص ٤٧٦س ١٠.
(٤) مفرج، ١ص ١٣٩.
(٥) البنداري، تاريخ آل سلجوق، ص ١٥٢، ١٥٣.

قاومتهم لمدة خمسين عامًا إلى سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م[١]. كذلك جدد الفرنجة الاتصال بالبيزنطيين طوال السنوات العشرين التالية، فتزوج بغدوين الثالث هذا من بيت كومنينوس؛ كما تزوج ملك بيزنطة مانويل كومنينوس بمارية ابنة أمير أنطاكية. لما جاء بعده عموري «Amauri»، المسمى أيضًا أملاريك «Amalricus»، - سماه العرب غالبًا فى كتبهم مري - وهو أخوه الأصغر، وكان عينه من قبل حاكمًا على عسقلان قبل توليه الملك[٢]، تزوج هو الآخر بابنة أخى مانويل كومنينوس[٣]؛ مما قوى الصلة بين الروم والفرنجة.

وفى أول الأمر، يعرض عمورى على الوزير الفاطمى ضرغام[٤] - Dargam - المساعدة ضد شاور، لكى يسبق مساعدة نور الدين لشاور. ولكن شاور الذى استدعى الترك السلاجقة؛ ليحتفظ بمنصب الوزارة، راح يعمل فى هذه المرة على الاتصال بالفرنجة[٥]، ويدعوهم إلى إخراج جند شيركوه؛ وكان شاور مثل أنُر يستعين بالفرنجة فى سبيل مصلحته الشخصية. فجاء عمورى إلى مصر وحاصر جيش نور بقيادة شيركوه - «Syracons» - وانتهى الأمر بخروج جيش نور الدين والصليبيين من مصر[٦].

ولكن نور الدين أرسل شيركوه مرة ثانية[٧]؛ كما أن شاور أرسل ثانية إلى الفرنجة يستنجد بهم فأرسل عمورى رسله إلى مصر؛ ولدينا وصف لما شهدوه من بذخ القصر الفاطمى[٨]، ثم أتى بنفسه إلى مصر. ونظرًا للمقاومة التى وجدها

---

(١) توفى فى سنة ٥٤٧هـ / ١١٣٥م، أو فى ٥٤٥هـ / ١١٥م انظر الكامل، ٨ص ٢١٩، ٩ص ٤٢؛ النجوم، ٥ص ٢٩٩.

(٢) انظر. R.H.C. Occ, tI, 2ème Partie p. 942 - 3

(٣) وليم، ترجمة، ٣ص ٣٧٣؛ وقبله.

(٤) انظر. R.H.C. Occ , tI, 2 è Partie, p. 892

(٥) انظر. Id.

(٦) مفرج، ١ص ١٤٠؛ الأتابكية، ص ٢١٧ - ٢١٨؛ الخطط، ٢ص ١٧٤؛ انظر. Schlumberger roi: Campagnes du Amaury. Paris: 1906, p. 63 - 80

(٧) الكامل، ٩ص ٩٤ - ٩٦؛ مفرج ١ص ١٤٨ ومابعدها؛ الخطط، ٢ص ١٤٢ - ١٤٣، ١٤٧؛ وفيات ١ص ٤٠٥ ومابعدها، ٣ص ٤٧٧؛ الأتابكية، ص ٢٣٦ ومابعدها؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ١١٠ ومابعدها.

(٨) انظر: Schlumberger: Op. Cit, p. 116 - 127; R.H.C. Occ tI, 2 ème Partie, p.910 - 913 ؛ المنجد، كتاب الرسل والملوك، ص ١٢٧ - ١٢٩

عمورى من جيش شيركوه[١]، ومعاونة المصريين له[٢]، قرر ترك مصر على شرط أن تكون له حامية فى القاهرة ـ سموها Cahaire ـ وأن يدفع الفاطميون له بعض المال.

بعد ذلك، قرر عمورى أن يقوم بعمل حاسم فى مصر بالاتفاق مع البيزنطيين، ولايقنع بوجود حاميته الصغيرة فى القاهرة. ولكى يدبر عمورى حملته على مصر سعى إلى الاتفاق مع البيزنطيين. وقد ترك لنا المؤرخ الصليبى وليام الصورى صورة للاتفاقية التى وقعها بنفسه نيابة عن عمورى، فقد اتفق الطرفان على أن تكون الحملة برياسة عمورى، وأن يطيعه القائد البيزنطى فى كل مايأمره به[٣]. ومع أن عمورى نفسه كان يفضل انتظار وصول الجيش البيزنطى؛ إلا أن فرسان المملكة وذوى الرأى فيها، أشاروا عليه بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم، ولتقوى بها فى نزاعهم مع نور الدين؛ إذ كان فى اعتقادهم أن فتحها يكون سريعًا؛ بسبب أنه كانت لهم بأبواب القاهرة حامية. فأسرع عمورى على رأس الفرنجة بالدخول إلى الريف المصرى فى شرقى الدلتا[٤]، وارتكب جيشه فى بِلْبيس فظائع كبيرة، ثم سار على الفسطاط فى جنوبى القاهرة، العاصمة الإسلامية القديمة، وكانت ازدهرت فى أيام الفاطميين على حسب وصف الرحالين. ويذكر المقريزى أن شاور الذى أدرك نيات الفرنجة فى احتلال مصر؛ فأحرقها[٥]، واستخدم فى حريقها عشرين ألف قارورة نفط، وعشرة الآف مشعل. وقد ظلت النار مشتعلة فيها أربعة وخمسين يوما؛ حيث لاتزال آثارحريقها موجودة إلى وقتنا الحاضر، فى التلال المعروفة بالكوم أو الكيمان، فى حىّ مصر القديمة.

---

(١) انظر. R.H.C. Occ tl, 2`ePartie', p. 910 - 913; Schlumberger: Op. Cit., p. 142 - 3؛ حبشى، نور الدين، ص ١١٥.

(٢) الروضتين، ١ص ١٦٨.

(٣) انظر. R.H.C. Occ tl, 2è Partie, p. 945 sqq

(٤) النجوم، ٥ص ٣٥٠؛ الكامل، ٥ص ٩٩ ومابعدها؛ مفرج، ١ص ١٥٧ ومابعدها؛ الروضتين، ١ص ١٧٠؛ انظر: Ency. del'Isl. (Art al - Sharkiya) t4, p. 345 - 6

(٥) الخطط، ٢ص ١٤٣؛ انظر. Fouilles d'al - Foustát . Paris, 1921: Ali Bathgat

وقد كان من الممكن أن ينتصر عمورى فى مصر ويستولى عليها؛ لولا تدخل نور الدين بإرساله شيركوه مرة ثالثة، ومعه ابنا أيوب: صلاح الدين، وأبو بكر العادل، وهذا الأخير سيكون هو الآخر سلطانًا على مصر، وكانت أول مرة يذهب فيها لمصر، على عكس صلاح الدين الذى ذهب إليها مرتين. كما أن نور الدين فكر هو الآخر أن يأتى إليها بنفسه لخطورة الموقف[1]. ويورد المؤرخون أن الخليفة العاضد الفاطمى هو الذى استنجد بنور الدين، وقال له: أدركنى واستنقذ نسائى من أيدى الفرنجة[2]، أو أن المصريين هم الذين استنجدوا بجيش الشام[3].

وقد استطاع جيش شيركوه تخليص القاهرة من خطر الفرنجة؛ لأن عمورى كان مضطرًا فى هذه المرة إلى قتال عسكر مصر والشام معًا، بعكس المرات السابقة؛ مما جعله يرحل عن القاهرة. ويقول المؤرخ ابن واصل: لو استولى العدو - لعنه الله - على الديار المصرية؛ لاستولى على سائر الخطة الإسلامية[4]. وبهزيمة عمورى أصبحت مصر فى قبضة جيش نور الدين، وتولى شيركوه وزارة العاضد الفاطمى[5]، بعد قتل شاور[6] على يد صلاح الدين، بموافقة العاضد؛ لخيانته للمسلمين، وممالأته للأجنبى، وذلك فى أثناء زيارة شاور لشيركوه، فقبض عليه صلاح الدين وكتفه وأخذه ليقتله؛ وإن كان من حيل شاور قبل أن يقتل، أنه دبر مؤامرة لقتل شيركوه وصلاح الدين، ولكنها لم تقم؛ لأنه قدَّر حقيقة كره المصريين له لاستبداده بهم وحرقه الفسطاط، وفقد كثير منهم بيوتهم ومتاعهم؛ بحيث هجروها. وقد أصبح شيركوه بتوليته وزارة العاضد: السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين، أى أنه سيطر على كل شىء فى الخلافة الفاطمية؛ بما فيها الجيوش، والقضاة، والدعاة. فكان لقبه

---

(١) الأتابكية، ص ٢٥٤.

(٢) حسن المحاضرة، ٢ص ١٨

(٣) الكامل، ٩ص ١٠٠ س ١ ،١١.

(٤) مفرج الكروب، ١ص ١٦٠

(٥) صبح، ١ص ٨٠ - ٩.

(٦) النجوم، ٥ص ٣٥١ ، ٣٥٢؛ الكامل، ٩ص ١ ١. يقال قتله جوريك النورى (ت ٥٤٩هـ / ١١٥٤م)، وهو تركى ذيل الروضتين ، القاهرة ١٩٢٧، ص ١١.

المنصور، وهو لقب شاور السابق، وأن أصبح له لقب السلطان أيضًا، دون أن يتلّقب به وزراء الفاطميين من قبل.

ولكن شيركوه توفى أو قتل بالسم، ممن لانعرف، ربما من العاضد أو صلاح الدين، ولم يمكث فى الوزارة أكثر من شهرين. فتولاها بعده صلاح الدين ـ ابن أخ شيركوه ـ ولقّب بالملك الناصر؛ وإن غلب عليه لقب السلطان أيضًا، دون أن يتلّقب به فى ٢٥ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ / ٢٦ مارس ١١٦٩م. وقد أثير حول تولية صلاح الدين الوزارة أقوال كثيرة؛ منها أنه تولاها بوصية سابقة من شيركوه، كما ورد فى سجل توليته، الذى كتب فيه الخليفة العاضد بخط يده، مع أن الخلفاء الفاطميين لايكتبون إلا نادرًا، ورد فيه: «هذا عهد لاعهد لوزير بمثله»[١]. فقد اختاره العاضد لأنه جمع بين حكمة المشيب ومضاء الشباب، وخوله السلطات التى كان خولها لعمه شيركوه. فخرج سجله فى قماش أبيض، وألبسه العاضد بنفسه أمام جمع عظيم من موظفى الدولة فى يوم مشهود خلعة الوزارة، وجميعها لونها بيضاء[٢]، شعار الخلافة الفاطمية الشيعية وتتكون من عمامة بطرز ذهب، وثوب بطرز ذهب، وجُبة بطرز ذهب، وطيلسان أو طرحة بطرز ذهب، وعقد جوهر، وسيف محلى بجوهر، وفرس لم يكن بالديار المصرية أسبق منه، وتخت[٣] ضخم يوضع حول رقبة الفرس، وسرفسار[٤] وهو من أطقم الخيل، وحجر[٥] مشدة ـ إيشارب ـ فيها جوهر وهو لزينة الفرس؛ وأربع قوائم، وأربعة عقود من جوهر كلها زينة للفرس. وبتولية صلاح الدين الوزارة الفاطمية، ولم يكن عمره يزيد على اثنتين وثلاثين سنة؛ فتحت صفحة جديدة فى تاريخ

---

(١) صبح الأعشى، ١٠ص ٣٠٨. نص السجل. نفسه، ١٠ص ٩١ ومابعدها؛ الشيال، مجموعة الوثائق الفاطمية، ١ص ٥ ٤ ومابعدها.

(٢) الروضتين، ١ ص١٧٣ ص ٤٣٩؛ حسن المحاضرة، ٢ص ١٨. عن زى الوزراء، انظر. ماورد فى كتابنا نظم الفاطميين، ١ص ٨٩ ومابعدها.

(٣) انظر. Dozy .: Suppl, P 142. وهى من أطقم الخيل.

(٤) سرفسار كلمة فارسية. انظر .Ibid,2, p. 2 60

(٥) انظر .Ibid. I. p.737 الحجر نفسه جوهرة

مستقبله الباهر؛ إذ إنه فى مصر ظهر لأول مرة ما كمن فى شخصيته من صفات السياسة والحنكة، كما أصبح أبرز فرد فى أسرته، وأبرز من أبيه أيوب؛ ولم يكن أقوى منه بين أمراء نور الدين.

حينئذ قرر عمورى من جديد، الاستعانة بالبيزنطيين بقصد احتلال الدلتا؛ وذلك بإرسال حملة بحرية كبيرة إلى ثغر دمياط الهام على فرع النيل المسمى باسمه، بلغت مايزيد على ألف ومائتى مركب، وذلك فى سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م[١]. ،على الرغم من غضب مانويل «Manuel» البيزنطى على عمورى«Amauri»؛ بسبب قيامه بالحملة السابقة وحده ؛ ومع ذلك وافق على إرسال أسطول اليونان القوى إلى عسقلان، بقيادة أندرينكوس كونتستفانوس "Andronicus Contostephanus" . وقد أورد لنا المؤرخ الصليبى وليام الصورى (١١٤٣ ـ ١١٢٨م)، صورة لهذه الاتفاقية، التى وقعها نيابة عن عمورى[٢] فى هذه المرة أيضًا.

فلما وصلت الحملة إلى دمياط، بذل صلاح الدين، ومعه المصريون من جند الفاطميين، مجهودًا هائلاً؛ لتستمر مقاومة حاميتها[٣]؛ كما أن نور الدين هاجم حصون الفرنجة[٤]، وترتب على ذلك إخفاق الحملة فى اقتحام ثغر دمياط. وبعد خمس وخمسين يومًا عادت تجر أذيال الفشل؛ كما أن بلاد الفرنجة فى الشام أصبحت خرابا يبابًا من هجوم نور الدين. وقد شُبهت هذه الحملة بالنعامة، التى ذهبت تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين[٥].

* *

وبعد هذا الانتصار ورغبة فى توحيد جبهة المسلمين فى المنطقة العربية، قرر صلاح الدين، بتحريض من نور والخليفة العباسى، القضاء نهائيًا على خلافة الفاطميين، أو لعله أراد أن يقوم بدور فى سياسة المسلمين؛ إذ لايذكر المؤرخون له أطماع مبكرة. ونحن لانستبعد تولد الطموح عنده إلى السؤدد والرياسة؛ وذلك

(١) الخطط، ٢ص ٣٤٦؛ انظر: Schlumberger: Campagnes, p. 258 - 61. عن دمياط، انظر. معجم البلدان، ٤ص ٨٥ ـ ٨٩.

(٢) أنظر. R.H.C. Occ, t I,2ème partie, p. 961, n (9)

(٣) الروضتين، ١ص ١٨١.

(٤) الأتابكية، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠.

(٥) نفسه، ص ٢٦٠؛ الكامل ٩٢ ص ١٠٥.

بعد أن وضعته الأقدار فى هذه الظروف. ويمكننا أن نجزم بأن صلاح الدين أصبح من أهدافه الكبيرة دفع خطر الصليبيين وإليه وإلى عمه يرجع الفضل فى أن مصر بقيت للمسلمين.

ومع أن صلاح الدين، لم يستطع ذلك فى أول الأمر، إلا أنه اتخذ التدابير التدريجية لبلوغ هذا الهدف. فعمل على محاربة الدعوة الفاطمية، وساعده فى ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة. فعزل قضاة مصر الشيعة وقطع أرزاقهم، وولى بدلهم قضاة على المذهب الشافعى؛ مع أن الأيوبيين أنفسهم كانوا أساسًا أشعرية[1] مثل والزنكيين؛ حيث اختلط مذهبهم بالفكر الشافعى، وكانت الأشعرية قد انتشرت فى العراق على الخصوص، واعتنقها السلاجقة أيضًا، فشجع صلاح الدين المذهب الشافعى لتقاربه مع الأشعرية، وبخاصة أن الشافعية كانت مذهب غالبية المصريين قبل مجىء الفاطميين. فيذكر الرحالة محمد بن جبيرالاهتمام بالمشهد الشافعى، والتأنق فى إعادة بنائه من جديد، ليكون مثل مشهد الحسين الفاطمى، وإن بقى المشهد الحسينى على مكانته، لحب المصريين لآل البيت النبوى وإن بنى صلاح الدين بإزائه مدرسة للمذهب السنى.

كذلك شرد الدعاة للمذهب الشيعى، وألغى مجالسهم؛ حيث كانت الخلافة الفاطمية أقامت نظامًا دقيقًا لتحويل المصريين، وبخاصة موظفى الدولة، على مذهبها، وسموه الدعوة أو الدعوة الهادية، وإن سماه وليم الصورى المذهب المصرى كما ذكرنا[2]. وفى نفس الوقت جعل هدفه عودة المصريين إلى المذهب السنى، فأخذ فى بناء المدارس لتدريسه[3] فى جميع أنحاء مصر؛ حيث يقول القلقشندى: إن صلاح الدين، أول من أحدث المدارس بالفسطاط. وقد ذكر علىّ مبارك فى كتابه: خطط القاهرة عدد ست وتسعين مدرسة أنشئت فى العصر الأيوبى، مع أنه قبلهم كانت المدارس تنشأ فى خارج القاهرة، ولكنها فى أيام صلاح الدين أصبحت تبنى فيها؛ وفى خلال أربعين سنة وجدت فى القاهرة

(١) من أشهرفقهاء الأشعرية: فى العراق: عبد الملك الجوينى ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) والغزالى (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١م) والباقلانى (القرن الرابع الهجرى / ١٢م). السبكى، طبقات الشافعية، فى عدة أجزاء.

(٢) أنظر. قبله.

(٣) صبح الأعشى، ٣ص، ٦٢ ـ ٦٤، ٣٤٢.

وحدها عشرون مدرسة[١]. فبنى صلاح الدين لنفسه مدرستين عند الجامع العتيق، فى ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م؛ واحدة للمذهب الشافعى، والأخرى للمالكى، ثم بنيت بعد ست سنوات مدرسة ثالثة للمذهب الحنفى. فقد كان صلاح الدين نقى العقيدة السنية[٢]، ويكره المتكلمين، بدليل أنه قتل المتكلم المشهور السهروردى[٣]، كما كان يحب الاستماع إلى الحديث، ويميل هو وخلفه[٤] للمتصوفة؛ وهو أول من بنى الخوانق والتكايا، وكان يستمتع بأحاديثهم؛ حتى أن الشيزرى ألف له كتابًا بعنوان: المنهج المسلوك فى سياسة الملوك. ومع ذلك؛ فإن المدارس فى عهده لم تكن للدين فقط، فيذكر الرحالة ابن جبير أنه كانت توجد بالإسكندرية مدارس لتعليم الطب، يفد إليها الطلاب من كل مكان، فيجدون المأوى والحمام والمطعم والمستشفى. وفى الوقت نفسه ألغى صلاح الدين الخطبة فى يوم الجمعة فى الجامع الأزهر، وهو من إنشاء الفاطميين لتعليم مذهبهم الشيعى، فتعطلت فيه لمدة القرن، وحرمه من موارده المالية، وأخرجه من دائرة الضوء، مع أنه كان أول وأهم مساجدهم[٥]، ولم تعد فيه خطبة الجمعة إلا فى أيام دولة سلاطين المماليك. كذلك بدد الكتب الفاطمية وأبادها، ورماها على جبل المقطم؛ بحيث أصبحت كيمانًا، وأحرق المكتبة الفاطمية وكانت أربعين حجرة.

ثم خطا خطوة أخرى ترمى إلى إضعاف نفوذ حاشية القصر، حتى أن الدولة الفاطمية بسبب نفوذها الكبير ونسبت إليهم، فعرفت بالدولة القصرية[٦]، وبخاصة أنه ازداد نفوذها فى وقت العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وأصبحت تتدخل فى شئون السياسة أيضًا؛ حيث بلغ عددها ثمانية عشر ألفا[٧]، عرفوا بالأستاذين أى عبيد القصر، ويرأسهم الأساتذة المحنكون؛ لتميزهم بزىّ الحنك، وهو أن يمر

---

(١) الخطط، بولاق، ٢ص ٣٦٣ - ٣٦٨.

(٢) ابن شداد، النوادر، ص ٧.

(٣) نفسه، ص ١٠.

(٤) أشهر المتصوفة فى زمن الأيوبيين هم: ابن الفارض، والكيزاتى، وعبد الرحيم القنائى، وإبراهيم الدسوقى، والشاذلى، وأبو العباس المرسى وغيرهم. انظر. النجوم، ٦ص، ٢٨٨ - ٢٢٩؛ الأدفوى، الطالع السعيد، ص ١٥٦ - ١٦٦.

(٥) انظر. Leonor Ferrande: Mamluke Politics and Education .Ann Islamo T.xx111, 1987, P. 87s qq

(٦) القفطى، إنباء الرواة على أبناء النحاة، تحقيق ابو الفضل، القاهرة ١٩٥٠.

(٧) الخطط، ٢ص ٣٦٩س ٨.

طرف العمامة تحت الحنك. فاغتال كبيرهم مؤتمن الدولة، وكان خصيًّا أسود اللون؛ بحجة أنه تآمر على الإسلام، واستدعى الفرنجة كما فعل شاور من قبل، وعين صلاح الدين للقصر الفاطمى خصيًّا آخر أبيض اللون من أتباعه، ولعله تركى الأصل، وكان شيركوه أعتقه واسمه قراقوش[1] - بهاء الدين - بمعنى الطائر الأسود؛ بحيث أصبحت لاتجرى فى القصر صغيرة ولا كبيرة إلا بأمر من صلاح الدين[2]؛ وأصبح الخليفة العاضد معه كالمحجور عليه.

ثم اتخذ صلاح الدين خطوات حاسمة للإجهاز على قوة الخلافة الفاطمية الحربية، التى كانت ضعفت؛ بدليل تسابق الترك والصليبيين إلى الاستيلاء على مصر؛ حيث كان جيشها فى وقت صلاح الدين يستمد قوته من عنصرين أساسيين: المصريين وسودان مصر - النوبيين - ولم نعد نسمع فى تكوينه عن العناصر السابقة من المغاربة البربر والمشارقة الترك والديلم، أو حتى الأرمن الذين كثروا منذ بدر الجمالى الوزير الفاطمى القوى؛ فعلى حسب ملاحظة المقريزى[3]، فإنها جميعها تلاشت. فقد كان المصريون مهددين من جانب الفرنجة الصليبيين من ناحية، والسلاجقة الترك من ناحية أخرى؛ فاضطروا إلى القيام بالدفاع بأنفسهم عن بلادهم، وأصبحوا عماد الجند والقواد فى الجيش الفاطمى؛ بحيث نقرأ فى كتب المؤرخين عبارة: الأمراء المصريين، أى القواد منهم. فيرسل صلاح الدين لقتالهم؛ ولاسيما السودان منهم أخاه الأكبر توران شاه - بمعنى ملك الشرق - على رأس الترك السلاجقة؛ كما أجبر العاضد على تخذيلهم[4]؛ مما أدى إلى هزيمتهم، وإحراق معسكراتهم - حاراتهم - حول القاهرة، ثم استبد بالأمراء المصريين، وقبض عليهم فى ليلة واحدة[5]، مع أن عمه شيركوه قبله لم يغيّر عليهم شيئًا.

---

(١) عنه: وفيات الأعيان، ٢ص ١٨٣ - ١٨٤؛ انظر. Ency de L,Isl, (art Karakúch) t2, p. 786 -7

(٢) شاهنشاه بن أيوب، منتخبات من كتب التاريخ لصاحب حماة، تتعلق بسيرة السلطان صلاح الدين الأيوبى، ص ٦٢، ملحق فى كتاب ابن شداد - بهاء الدين - سيرة صلاح الدين الأيوبى.

(٣) الخطط، ٣ص ٢س ١٦.

(٤) نفسه، ٣ص ٣مابعدها. عن توران شاه: وفيات الأعيان، ١ص ١٧٥ - ١٧٧.

(٥) نفسه، ٢ص ١٧٥س ٢١ - ٢٢، ٣ص ٣٧٩س ١؛ الحنبلى، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٣١ ٢٤ تاريخ، المجلد السابع عشر.

ولما تم إضعاف جانب الخلافة الفاطمية وهدم دعوتها[١]؛ عزل الخليفة العاضد، الذى مالبث أن توفى، وعمد إلى إلغائها فى أول يوم جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ / ١٠ سبتمبر ١١٧١م. أما أولاد العاضد وأقرباؤه، وكانوا أكثر من مائة وثلاثين غير الأطفال؛ فإنهم اعتقلوا، وفرّق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا، واستمروا معتقلين طوال زمن الدولة الأيوبية[٢]. وقد أصبحت أسماء: الخليفة العباسى المستضئ بأمر الله، ونور الدين، وصلاح الدين تذكر من على منابر مصر[٣]؛ وذلك بعد أن كانت الخطبة العباسية قطعت من مصر منذ مائتى سنة؛ حتى ألف ابن الجوزى - أبو الفرج - (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، وهو عراقى متعصب، كتابًا سماه: النصر على مصر[٤]. وقد بعث صلاح الدين ببشارة الإلغاء إلى نور الدين؛ كما أرسل صلاح الدين للمستضئ بأمر الله بكتاب من إنشاء القاضى الفاضل[٥]، للبشارة بها. ومن وقتها أصبح صلاح الدين يلّقب بقسيم أمير المؤمنين[٦]، أى أنه يشارك الخليفة فى لقبه الخلافى، بحكم أنه أصبح يحكم فى مصر باسمه.

وعلى العكس، كان لسقوط خلافة الفاطميين وقع أليم وأسى بين المصريين؛ حتى أن ابن تغرى بردى يقول: إن نفوس المصريين كادت تزهق[٧]؛ لانتهاء دولة الفاطميين، التى جعلت مصر خلافة مستقلة تنافس خلافة العراق، ونبهت إلى مركز مصر الريادى فى دار الإسلام؛ حتى أن معظم المؤرخين أجمعوا على تسميتها: دولة المصريين[٨]. فيقول الرحالة ابن جبير، الذى زار مصر عدة مرات

---

(١) أنظر ماقيل فى ذلك: النجوم، ٥ص ٣٣٤ - ٣٣٥؛
وبتفصيل: Ency de l'Isl, (art al - Adid)2 éd,tI, P. 203 - 4.
ماجد، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر، ط٣، ص ٣٩٤ ومابعدها.

(٢) الخطط، ٢ص ٢١٦، ٣٤٩ - ٣٩٦.

(٣) النجوم، ٥ص ٣٥٧.

(٤) حسن المحاضرة،٢ ص ١٩. عنه، انظر.
Ency de l'Isl, (arl bn al - Djawzí) T2, p. 394 - 5.

(٥) الحنبلى، شفاء القلوب فى بنى أيوب، ورقات ٢٠ ، ٢١.

(٦) نقش بتاريخ ٥٨٠هـ / ١١٨٤م .أنظر Rép, 9, 129

(٧) النجوم، ٥ص ٣٥٧س٢.

(٨) الروضتين، ١ص ٢٠، ٥٣.

فى أيام صلاح الدين أنه بإنهاء الخلافة الفاطمية تملك الغزّ - أى السلاجقة - ديار مصر[1]. لذلك قام المصريون ضد صلاح الدين فى القاهرة ومصر وحتى فى الصعيد بثورات عارمة[2]؛ بقصد التخلص من احتلال الترك لبلادهم؛ إلا أن صلاح الدين عمل على التقرب من المصريين بقيامه بإصلاحات داخلية، منها: تخفيف الضرائب، وبظهور همته القوية فى حرب الصليبيين، الذين هددوا مصر نفسها؛ مما جعلهم يقبلون الأمر الواقع. وبذلك جعل صلاح الدين المسلمين صفا واحدًا فى المذهب؛ واعتبره إنجازاً كبيرًا فى سبيل العمل الواحد.

* *

ولكن صلاح الدين وهو من بيت كردى أدرك أن ماناله من سؤدد فى مصر أغضب نور الدين، الذى بدأ يكشر له عن أنيابه. ولعل نور الدين بإرساله إلى مصر أيوبًا وأخاه الأكبر توران شاه، كان بقصد إيجاد منافسين له فى مصر؛ بحيث قال أحدهم: لقد جرى ذكر فتح مصر فوالله ما ابتهج به نور الدين، وربما كان نور الدين طلب من العاضد الفاطمى الاستغناء عن شيركوه وإرساله إلى مصر[3]. ولكن حقد نور الدين بلغ أقصاه، لما استحوذ صلاح الدين بعد وفاة عمه على وزارة العاضد؛ إذ تأكد له طموح الأيوبيين، وأنهم يعملون لأنفسهم؛ فكان كثيرًا ما يقول متحسرًا: «ملك ابن أيوب»[4]. ومع وجود «الوحشة» بينه وبين نور الدين؛ إلا أن صلاح الدين كان مصمما على الاحتفاظ بما وصل إليه من سؤدد فى مصر.

ولكن الأقدار كانت فى ركابه تمهّد له الطريق؛ فأزالت نور الدين فى الوقت المناسب؛ وإن قيل إن صلاح الدين تأثر لموته وخنقته العبرات؛ مما يدل على تقديره

---

(١) أنظر Ency de l'Isl, (art Ibn Djubair) t2, 296.

(٢) سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م، و ٥٧٠هـ / ١١٧٤م، و٥٧٢هـ / ١١٧٦م، و٥٧٧هـ / ١١٨١م، و ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م. بتفصيل: ماجد، ظهور خلافة الفاطميين، ص ٣٩٨ ومابعدها.

(٣) الروضتين، ١ص ١٧٢؛ انظر. حبشى، نور الدين، ص ١٣١.

(٤) الروضتين، ١ص ١٧٣.

لصفات نور الدين، على الرغم من عداوتهما الأخيرة[1]. وبموت نور الدين تأكدت سيطرة صلاح الدين على مصر؛ إلا أنه فكر أيضًا فى السيطرة على البيت الزنكى فى الشام وبلاد الجزيرة، أى على بلاد نور الدين؛ لأن صلاح الدين مثل نور الدين كان يستهدف من وراء ذلك تكوين جبهة إسلامية قوية فى المنطقة العربية، أو على حد قوله[2]: إن أمور الحرب لا تحتمل فى التدبير إلا الوحدة، أى جمع الكلمة[3]. وقد شجعه على ذلك أن نور الدين ترك طفلاً صغيرًا خلفًا له، ولايزيد عمره على إحدى عشرة سنة، وهو الملك الصالح إسماعيل[4]، وتحت ستار الدفاع عن حقوق ابن نور الدين وتربيته؛ أسرع بالمجىء إلى الشام، ودخل دمشق فى ربيع الآخر من سنة ٥٧٠هـ / أكتوبر ١١٧٤م؛ كما استولى على مدن أخرى مجاورة لها، وحاصر حلب عدة مرات. وفى أثناء ذلك دهمه بعض الفداوية الإسماعيلية، وهم شيعة، وكان يرأسهم راشد الدين سنان، المسمى بشيخ الجبل،وكانت له قلاع وحصون فى الشام، ويحارب الأيوبيين؛ حيث أطلق الصليبيون عليهم «Assacis»؛ لكثرة من قتلوه من أعدائهم، وتحول اللفظ الى الكلمة الفرنسية «Assasins»، وكاد صلاح الدين نفسه يُقتل على أيديهم؛ لولا وجود صفائح الحديد حول عنقه[5]؛ مما دعاه إلى الهجوم على حصونهم وقلاعهم. وقد تزوج صلاح الدين فى أثناء وجوده فى دمشق من الخاتون عصمة الدين، أم الملك الصالح إسماعيل، وهى أرملة نور الدين، وكانت تعيش فى دمشق بعد موت نور الدين، ويقال: إن صلاح الدين كان قد أحبها[6]، منذ أن كان فى قصر نور الدين بدمشق، حينما كان شابا وقتذاك.

---

(١) الحنبلى، شفاء القلوب، ورقة ١٦؛ انظر. ماجد، الناصر صلاح الدين، ص ١١٠.

(٢) الروضتين، ٢ص ٤٨س ١٦ ، ١٧. النص: ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة؛ لما عز عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا أساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين، وإنما أمور الحرب لاتحتمل فى التدبير إلا الوحدة.

(٣) نفسه، ورقة ٢٣. ورد ذلك فى كتاب أرسله صلاح الدين الى الملك الصالح

(٤) سنا البرق الشامى، ص ٨١؛ الروضتين، ١ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧؛ الكامل؛ الكامل ٩ص ١٣٠ ـ ١٣١؛ السلوك، ١ / ٢ ص ٥٨؛ الأتابكية، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١؛
Ency de l'Isl, (art al - Malik al - Sâlih) t4, p. 114 - 115.

(٥) الروضتين، ١ص ٢٣٩؛ الكامل، ٩ص ١٣٣؛ انظر:
Ency del'Isl, (art Ismailiya) t2, p. 586.

(٦) الروضتين، ١ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤؛ انظر:
Gaston: La Légende de Saladin. J. des Savants. Paris, p. 285.

إلا أن سعد الدين كمشتكين - بمعنى الأمير الفضى - وهو أحد قواده؛ خطف الملك الصالح، وذهب به الى حلب؛ ليحكم باسمه فيها. وقد كتب الخليفة المستضىء العباسى تقليدًا بالسلطنة لصلاح الدين على مصر والشام[1]؛ مستثنيًا حلب، لتبقى فى يد الصالح إسماعيل؛ بسبب ماقام به أبوه نور الدين فى خدمة الإسلام، ووصف الخليفة صلاح الدين بأنه سند الخلافة وهادم الشيعة بمصر واليمن، وأرسل إليه خلعا وأعلامًا سوداء، شعار الخلافة العباسية؛ كما أكد له لقبه الناصر، الذى كان قد ناله من الخليفة الفاطمى العاضد، بينما لم يمنحه نور الدين غير لقب «الإسفهسلار» بمعنى القائد. فكان هذا التقليد أول مظهر شرعى لسيادة صلاح الدين فى مصر والشام.

ولكن الملك الصالح إسماعيل غضب على وصّيه كمشتكين وقتله فى ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م، لاستبداده به؛ مما جعل صلاح الدين يتوقف عن مهاجمة حلب، ربما طمعًا فى السيطرة عليها بالحسنى؛ وليبين للمسلمين وفاءه لنور الدين، والاحترام لتقليد الخليفة العباسى. ولكن لما توفى الصالح إسماعيل فى عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م، وكان أوصى بتولية حلب لعزّ الدين مسعود، وهو من البيت الزنكى، الذى كان يحكم فى بلاد الجزيرة؛ إلا أن هذا الأخير تنازل عنها لأخيه سيف الدين عماد الدين، وكان هذا الأخير على علاقة طيبة بصلاح الدين؛ بحيث لما ذهب صلاح الدين لحصارها فى ٥٨٩هـ / ١١٩٣م؛ سلمها له[2]. وبأخذ حلب؛ قال صلاح الدين: الآن قد تبينت أننى أملك البلاد، وعلمت أن ملكى قد استقر وثبت[3]. وبذلك يكون صلاح الدين قد حقق هدفًا آخر ببسط سلطانه على جميع بقاع الشام أيضًا.

وبعدها وجه صلاح الدين همه إلى الاستيلاء على بلاد الجزيرة وقصبتها الموصِل؛ فحاصرها عدة مرات، ويذكر المؤرخ ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م)، استماتة أهلها فى مقاومته[4]. ولكن صاحب الموصل ، وهو عز الدين

---

(١) الروضتين، ١ص ٢٤٠؛ حسن المحاضرة، ٢ص ١٩ ومابعدها.

(٢) الكامل، ٩ص ١٦٢، ١٦٣.

(٣) الروضتين، ٢ص ٤٥.

(٤) الكامل، ٩ص ١٦٧ - ١٦٩.

مسعود ـ إذ كـانت من أملاكه أيضًا ـ تحت إلحاح أهلهـا، صالح صلاح الدين؛ مما جعله يرسل إليـه مندوبه المؤرخ ابن شداد (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م)، الذى بدلا من تأييده لموقف أمـيره، انضم لصلاح الدين، وبقى فى خدمـته، وهو الذى رسم لنا لوحة سيرته بقلم المؤرخ الأديب فى كتابه: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»؛ وعلى أية حـال، تمت المصالحـة فى ٥٨١هـ / ١١٨٥م[1]. وبعدها سـعى صلاح الدين إلى امتلاك بقية بلاد البيت الزنكى؛ فكان كلما مات واحد منهم ضم أملاكه إليه، وساعده على ذلك تفـرقهم، والخلاف فيما بينهم، ووجود كـثير من الأكراد من بنى جنسه فى هذه النواحى.

* * *

والثابت أن صـلاح الدين قضى على نفوذ الأتابكيـة السلجوقيـة، ومن قبل قضى على الخلافة الفاطمـية، وهو الذى لم يكن يدور بخلده مطلقا ـ لما جاء إلى مصر ـ أن يرث أمـلاك الدولتين، ويكون بزعامته دولة موحـدة من البلاد الثلاثة: مصر، والـشام، وبلاد الجزيرة؛ فضـلاً عن أنه سعى إلى أن يرتبط بعلاقات طـيبة بسلاجقة آسـية الصغرى[2]، التى تقـع فى طريق الفـرنجـة البـرية إلـى الشـرق الإسلامى.

---

(١) نفسه، ٩ص ٢١٨س ١٥٠ ـ ١٦٠.

(٢) نفسه، ٩ص ٢٢٥ س ٩؛ انظر. ماجد، الناصر صلاح الدين، ص ١٢٢.

الفصل الخامس

انتصار صلاح الدين فى حطّين، ودور العساكر المصرية البارز فى استرداد بيت المقدس

لما اطمأن صلاح الدين إلى تضامن المسلمين فى المنطقه العربية عمل على بث روح النضال بينهم ضد الصليبيين. وبالفعل نشط الكتّاب فى وقته فى تأليف كتب يغلب عليها طابع النصائح للحكام والرعية؛ حيث إن الناس على دين ملوكهم، حتى يرتفعوا إلى مستوى المسئولية والوعىّ والجدية، بسبب ظروف الحروب الصليبية؛ وإن كانت النصائح للحكام يكون أغلبها بالتلميح، حتى لاتكلف أحيانًا كاتبها حياته(١). وفى الواقع إن صلاح الدين مثل غيره من الحكام المسلمين كانوا يشجعون على ظهور مثل هذه التآليف(٢)؛ لإذكاء الروح المعنوية عند الناس. كذلك ظهرت الملاحم البطولية، مثل: سيرة عنترة بن شداد، الشاعر والفارس، الذى سعى إلى وحدة العرب، والسيرة الهلالية، وهى سيرة شجعان وفرسان، استوعبت قيم العرب من الحق والخير والمرءوة والجمال؛. حيث ظهرت فى أواخر العصر الفاطمى من القرن الخامس الهجرى، الذى بدأت فيه الحملات الصليبية على الشرق. ويؤكد الرحالة الأندلسى ابن جبير(٣)؛ الذى زار الشرق الإسلامى فى وقت صلاح الدين أن الشعب المصرى كان على وعىٍّ تام بمسئولياته فى هذه الظروف الحرجة من الحروب الصليبية، حتى أن الناس فى الإسكندرية كانوا يعملون بالليل مثلما يعملون بالنهار، وأن الطلاب كانوا يفدون إليها من كل مكان؛ فيجدون المأوى والحمام والمطعم، كما أنها امتلأت بالمتطوعة والمجاهدين.

---

(١) مثل ابن المقفع، الذى قتل بسبب جرأته فى نصائحه لهارون الرشيد، فى رسالة الصحابة.

(٢) مثل عبد الرحمن الشيزرى (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) فى كتابه: المنهج المسلوك فى سياسة الملوك، ط القاهرة ١٣٢٦هـ ؛الذى الفه لصلاح الدين، وفيه مزج بين السياسة الشرعية والأحكام السلطانية، والقفطى ـ ابو الحسن ـ (ت ٥٩٨هـ / ١٢٠٢)م، فى كتابه: تهذيب الداعى فى إصلاح الرعية والراعى؛ وقد ذكره حاجى خليفة، كشف الظنون، ١ص ٥١٤، ٥١٥ وغيرهما.

(٣) أنظر. رحلة ابن جبير.

وكان صلاح الدين يتمتع بشخصية قوية؛ فهو مسلم متحمس لدينه، ومحارب بسليقته، ولقد هجر فى مسجد الجهاد أهله وأولاده ووطنه وراحته؛ ليقنع بالعيش فى ظل خيمة فى واحة الوغى. ويتجلى حماس صلاح الدين لحرب الصليبيين من قوله فى إحدى مكاتباته للخليفة(١): إنه يود أن تعود الكنائس مساجد، والمذابح معابد للمسلمين، والصليب المرفوع حطبًا فى المواقد، والناقوس الصاهل أخرس؛ حتى وصفه معاصرنا تشرشل «Churchill» فى كلامه عن سيّر الأبطال؛ بأنه كان أدهى رجال عصره، وأن اسمه يدل على الزعامة الرشيدة.

وفى الواقع؛ فإن صلاح الدين منذ أن توفى نور الدين، لم يألوا جهدًا فى حرب الصليبيين، بشكل لم يسمع به من قبل، ولاسيما أن الفرنجة كانوا يريدون أن يستفيدوا من الاضطراب الذى ساد بين المسلمين بوفاة نور الدين، عدوهم اللدود السابق. فهاجم صلاح الدين حصون الصليبيين المتفرقة فى الشام حصنًا فحصنًا، وكانت طريقته المبادأة فى الحرب بالهجوم الخاطف، والقيام بحرب العصابات. وقد جمع لذلك جنودًا كثيرة من الكرد والأتراك، والأعاريب(٢)، وبخاصة من المصريين وسودان مصر(٣)؛ حيث اعتبرت مصر وعاء بشريًا لإمداد جيشه؛ فيقول النص التاريخى: إنه لما وصل العسكر المصرى فرّقه على المعارك(٤). ولما ضم صلاح الدين الشام وبلاد الجزيرة إلى ملكه، أخذ من أهلها أعدادًا كبيرة أيضًا؛ بحيث بلغ عدد قادة جيشه وفرسانه فى عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م: عدد ١١١ أميرًا و ٦,٩٧٦ فارسًا كامل التجهيز (طواشى)، و١,١٥٣ فرسانًا آخرين (قراغلام)(٥)؛ وهم فى مرتبة تالية للفرسان الأول.

---

(١) الروضتين، ٢ص ٤٩ ربما يقصد المساجد التى حولها الصليبيون إلى كنائس.

(٢) الخطط، ١ص ١٥٢س ٢٥

(٣) نفسه، ١ص ١٣٩.

(٤) عماد الدين الأصفهانى، الفتح القسى، مصر ١٣٢١هـ، ص ١٦٣؛ انظر ماجد، صلاح الدين، ص١٣٠.

(٥) الخطط، ٢ص ٣١١، اورد هذا العدد ط.1951, pp. 304 320

وقد أصبح هم صلاح الدين تخليص أرض فلسطين أو فَلسطين؛ التى هى أرض عربية، تعتبر امتدادًا لجزيرة العرب. وقد شجعه على ذلك انقسام الفرنجة بموت ملكهم بغدوين الرابع، الذى توفى بمرض الجذام، وتلاه بغدوين الخامس، الذى اختفى هو الآخر، فانتقل الملك إلى أمه سيبيلا «Sybella»، التى تزوجت فارسًا قدم إلى الشام من أوربا اسمه جى دى لوسينان Gui Lusignan (Guy)، ويسميه المؤرخون المسلمون جوى أوكى او ابن غتم[١]، فوضعت التاج على رأسه وأعلنته ملكًا على الفرنجة. ولكن أمير طرابلس القومص الصنجيلى ريموند "Comte Raymond III de Saint Agilles"[٢]، كان يطمع فى الملك بدلاً منه ولم يرض على ذلك، حتى أنه كان يحث صلاح الدين على قصد ملك الفرنجة.

وقد تعددت اتجاهات صلاح الدين فى حربه للصليبيين، وبدأها فى المرحلة الافتتاحية، بمهاجمة حصن الكَرَك[٣] «Crac» - الصليبى، الذى كان يحكمه فارس مشهور، اعتبر من أخلص التابعين لملك بيت المقدس، اسمه رينودى شاتيون " Renaud de Chatillon»، أو أرولد«Arauld »، أو رينولد «Raynold»، أو ماسماه العرب البرنس أرناط[٤] ؛ بينما مؤرخو الصليبيين يطلقون عليه الأمير الطاغية[٥]؛ لأنه كان يحارب حتى بنى وطنه[٦]، ولايتردد فى اقتحام الأديرة واغتصاب الراهبات[٧]، كما هاجم قلعة الشوبك، وكلاهما كان يقف دون اتصال مُلك صلاح الدين فى مصر والشام.

فأراد ملك القدس وقف صلاح الدين عند حده، بعد غاراته العديدة فى بلادهم، وتقابل جيشه الذى ضم فرسانًا من كل القلاع الصليبية مع جيش المسلمين فى جبل حِطّين أو حَطّين[٨]، فى مكان صخرى، استدرجهم إليه صلاح الدين؛

---

(١) انفرد ابن خلدون بذكر ابن غتم. العبر، ٥ص ٣٠٥.

(٢) السلوك، ١ / ١ص ٧٧س ١ - ٢؛ R.H.C. occ, 12, p. 4,2ème Partie, p 517 sqq. تسمية العرب لريموند. انظر. الكامل، ٩ص ١٣٢، ١٧٤. و يبدو أن القومص تعريب حرفى للكلمة اللاتينية «Coms»، التى صارت إلى«Comte » فى اللغة الفرنسية؛ بمعنى الرفيق..

(٣) عنها: معجم البلدان، ٧ص ٢٤٠، انظر:
Ency. del'Isl. (Art al - Karak) t2, p. 905 - 6.

(٤) وليام، ترجمة، ٣ص ٣٨٠.

(٥) نفسه، ٣ص ١ ٤.

(٦) نفسه، ٣ص ٤٠٢

(٧) السلوك، ١ / ١ص ٦٤ وهامش(٥).

(٨) عن هذه المعركة بالتفصيل على الاحص' الكامل، ٩ص ١٧٧ - ١٧٩؛ R.H.C. Occ t2, p. 62 Sqq؛ انظر سعداوى، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين القاهرة ١٩٥٧، ص ١٨٣، ١٨٤. عن البلدة، انظر. معجم البلدان، ٣ص ٢٩٨ - ٢٩٩؛ Ency. de l'Isl. (Art Hattîn ou Hittín)

مما أدى إلى انكشاف إستراتيجى فى الجيش الفرنجى. وقد قاتل المسلمون وهم يصيحون صيحة رجل واحد: الله أكبر؛ فانتصروا. وحين حمل العسكر المسلم على خيمة الملك الفرنجى جى «Guy»، ملك فلسطين الصليبى، وتمكنوا من إسقاطها؛ أسرع الفرنجة الذين اجتمعوا من كل مكان لنصرة ملكهم بالتسليم. وليس أدل على أهمية هذا الانتصار من قول المؤرخ ابن الاثير عن ذلك: فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا أحدًا، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحدًا.

ومما لاشك فيه أنه لم يحدث أن شفى المسلمون غليلهم من الفرنجة منذ مجيئهم إلى الشام مثل هذه المرة؛ بحيث سموا موقعة حطين: بموقعة حطين المباركة(١). ويقول السياسى الإنجليزى المعروف السابق الذكر تشرشل «Churchill»، فى مذكراته عن عظماء التاريخ؛ ممن اشتركوا فى الحروب الصليبية، إن سبب نصر المسلمين فى حطين راجع إلى كثرتهم العددية. ولكننا نظن أن نصرهم راجع بالأولى إلى تنظيم قواهم على يد صلاح الدين، ووحدة هدفهم بالعمل على استنقاذ أرضهم؛ على عكس الصليبيين، الذين أصبحوا عناصر يسودها الاختلاف والتنافس فيما بينها. هذا فضلاً عن التكتيك الحربى الرائع الذى استخدمه صلاح الدين بفضل معرفته للأرض التى يحارب عليها، حتى أن الفرنجة قد بلغ منهم العطش حدًا لم يستطيعوا معه الحركة، فاستسلموا وعلى رأسهم ملكهم وأمرائهم.

وبعد هذا الظفر العظيم، جلس صلاح الدين لعرض الأسرى الكثيرين، وهم يتهادون فى القيود أمامه كالسكارى بسبب العطش، وكان العسكرى المسلم يربط بالحبل الواحد ثلاثين أو أربعين أسيرًا منهم(٢). ولما أحضر ملك الفرنجة أمامه أجلسه عن يمينه، وهدأ من روعه، وأعلمه، عن طريق الترجمان، أن من عادة الملوك ألا يقتل الملك ملكًا مثله، وقدّم إليه ماء مثلجًا؛ حيث كان الثلج متداولاً من قبل عند الفاطميين، يأخذونه معهم فى قيظ مكّة، وفى الحروب. ثم أخذ فى تأنيب أمير الكرك لسخريته من نبى المسلمين، وقال له: «هاأنا انتصرت لمحمد».

---

(١) النجوم، ٦ص ٣١س ٧.

(٢) الفتح القسى، ص ١٩ - ٢٠؛ الروضتين، ٢ص ٧٩ ومابعدها؛ R.H.C. Occ. t2. p. 66 Sqq.

ولما كان صلاح الدين قد نذر دم هذا الأمير من قبل، إن وقع في يده؛ بسبب أنه أرسل رجالاً لدخول مدينة الرسول وإخراج جسده الشريف منها؛ حتى أن صلاح الدين أرسل قوة وراءهم وأسرهم[١]؛ بقيادة[٢] أخيه العادل سيف الدين. ولذلك رفض أن يسقيه الماء، وضربه بالسيف على كتفه وقطع رأسه، وأطعم جثته الكلاب[٣]. كذلك ضرب أعناق الرهبان الفرسان من طائفتي الداوية والإسبتارية، ولم يبقهم في الأسر؛ لأنهم كانوا يمثلون التعصب المسيحى؛ وكان معظمهم من رجال الدين المحاربين؛ وقال أبو شامة عنهم[٤]: «إن ماجرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقلعان عن المعاداة، ولايخدمان من فى الأسر».

ومن ثم كانت هذه الوقعة العظيمة ـ وقعة حطين ـ مقدمة لانتصارات حربية هائلة هامة على فرنجة الشام[٥]، بسبب أنهم فقدوا فيها معظم رؤسائهم، إما قتلى أو أسرى. فقد كانت هذه الانتصارات عليهم سببًا فى فتح بلاد الساحل، ويُقصد بها البلاد الواقعة على ساحل الشام، مثل: عكّة وغزة وحيفا وصيدا وبيروت وعَسقلان. كذلك فتحت بعض الأماكن المجاورة لبيت المقدس، مثل: طَبرية وبيت لحم والرملة ونابُلس، وفى هذه الأخيرة قاتل العسكر الإسلامى فرقة من اليهود كانت تدافع عنها مع النصارى، فقتلوهم عن بكرة أبيهم[٦].

* *

بعد ذلك، قويت همة صلاح الدين لاسترداد القدس أو بيت المقدس قصبة فلسطين[٧]، التى ترتبط أشد الارتباط بالإسلام؛ بسبب ماقيل من أن النبى إبراهيم أقام فى القدس المسجد الأقصى، مثلما أقام فى مكّة المسجد الحرام، وهى الكعبة المشرفة فى مكة أوما سمى أيضًا بالبيت العتيق أى الذى لايملكه أحد، بناه من حجارة صماء ذات لون أزرق؛ ليكون هو الآخر مقرًا لعبادة الآله الواحد، أو ماعرف بدين الحنيفية أو الحنيفية السمحة، التى جاء الإسلام ليحييها. ثم إن

---

(١) رحلة ابن جبير، ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٢ ص ١٢٧.
(٣) الكامل، ٩ص ١٧٤؛ R.H.C. Occ t2, p. 34.
(٤) الروضتين، ٢ص ٧٩
(٥) الكامل، ٩ص ١٧٩ ومابعدها.
(٦) رحلة ابن جبير، ص ٨٨.
(٧) عنها معجم البلدان، ٨ص ١١ ومابعدها؛ Ency del'Isl, (art al - Kuds) t2, p. 1139 sqq.

القدس، هى أول قبلة للمسلمين قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة. وبسبب وجود الصخرة المقدسة فيها، وهى الأخرى حجر لونه أزرق[1]، لم يطأها أحد برجله غير قدم إسماعيل بن إبراهيم، الذى ينسب إليه عرب الحجاز؛ فعرفوا أيضًا ببنى إسماعيل؛ وبإسماعيل انتقلت النبوة من بنى إسرائيل إلى العرب، حيث كان الإسرائيليون من نسل سارة، بينما عرب الحجاز هم من نسل هاجر أم إسماعيل، وهى جارية مصرية كانت لإبراهيم؛ وأصبحت الصخرة الزرقاء فى قداستها أشبه بالحجر الأسود فى مكة؛ فكانت مسرى لنبى الإسلام[2]. ولذلك اعتبرت القدس فى نظر المسلمين ثالث الحرمين فى المكانة بعد مكة والمدينة، فكان المسلمون إذا جاء موسم الحج يذهبون إليها؛ إذا لم يستطيعوا الذهاب إلى مكة، ويضحون هناك، وهو ماعُرف عندهم بالتقديس. ولعل هذا التقليد قد وجد منذ الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، الذى حج إلى القدس فى خلافته أكثر من عشرين ألف شخص.

ومع ذلك، فلايبدو أنه كان يوجد أى بناء فى هذه البقعة المقدسة للمسلمين قبل خلافة الأمويين، الذين ينسب المؤرخون إليهم وحدهم البناء فيها. فقد نُسب إلى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أنه أقام المسجد على الصخرة فى عام ٧٢هـ / ٦٩١م[3]؛ الذى عرف بمسجد قبة الصخرة، التى مستها قدم النبى ليلة الإسراء مثلما مستها قدم إسماعيل أبى العرب من قبل، وإن قالت الروايات: إنه بنى على أساس المسجد الذى بناه عمر بن الخطاب عليها، على طريقة البداوة، عند مجيئه إلى بيت المقدس، ولذلك عُرف خطأ باسم مسجد عمر[4]. ونحن لا نستطيع أن نقبل الرواية القائلة، بأن عبد الملك قصد من بناء مسجد قبة الصخرة، جعل الناس تحج إليها، أو أنه منع الناس من الحج إلى مكة من أجل فتنة ابن الزبير[5]، الذى كان ينافسه على منصب الخلافة؛ وليس لدينا أية إشارة فى ذلك فى سيرة عبد الملك. وعلى النقيض يذكر الجغرافى المقدسى، أن سبب بناء

(١) سفرنامه، ص ٢٩. وقيل بيضاء اللون. الفتح القسى، ص ٤٦ س ١٩.
(٢) القرآن ١٧ : ١.
(٣) أنظر. Van Berchem: Corpus, t. 44,ème partie, p. 230 sqq;
انظر. ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، ط٧، ص ١٨٩.
(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢؛ انظر.
Ency de l'Isl. (art Kubbat al - Sakhra) t2, p. 11255qq.
(٥) المقدسى، احسن التقاسيم ، فى (B.G.A.)، ص ٥٩.

عبد الملك لمسجده على قبة الصخرة هو ألا يترك المسلمين يبهرون ببناء كنيسة القيامة[١]. ولقد كان مسجد قبة الصخرة فريدًا فى بنائه لم يقلده المسلمون فى مساجدهم الأخرى؛ فهو أشبه ببناء مثمن الأضلاع تعلوه قبة عالية مزخرفة بالفسيفساء بدقة متناهية. أما المسجد الأقصى، الذى أخذ اسمه من آية فى القرآن الخاصة بالإسراء[٢]، فينسب بناؤه الى الوليد بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ / ٧٠٥ ـ ٧١٧م)، فى ساحة مسجد قبة الصخرة، وهو بناء ضخم يشتمل على أروقة، ومزوق هو الآخر بالفسيفساء، فعرف لفخامته ببلاط الوليد[٣]، وقد غيرّ الصليبيون كثيرًا فى بنائه حينما احتلوا بيت المقدس؛ بحيث لم يعد يعرف أصله.

ولكى تتحقق هذه المعجزة باسترداد القدس؛ فإن صلاح جعل مصر قاعدة للنضال ضد الصليبيين، وبالتالى جعل أهلها وهم أكثر شعوب العرب عددًا ركيزة لجيشه فى مقاتلتهم. حقًا إن صلاح الدين فى أول الأمر اعتمد فى توطيد حكمه فى مصر أو حتى فى الشام أو بلاد الجزيرة على بنى جنسه من الأكراد؛ إلا أن هؤلاء كانوا أشبه بالطوائف الخاصة، ولذا عرفوا بالخاصكية، أو خواص السلطان، أو باسمه: الصلاحية[٤]، أو بلقبه: الناصرية؛ أو حتى جند الحلقة المنصورة السلطانية[٥]؛ لأنهم كانوا يحيطون به فى أثناء القتال كالحلقة. ومن قبل صلاح الدين كان للفاطميين أيضًا طوائف خاصة؛ تنسب للخلفاء أو لأولياء العهد أو لرجال القصر الكبار، وخصوصًا للوزراء العظام، فنذكر من هذه طوائفهم: الآمرية، والحافظية، والعهدية، واليانسية، والوزيرية، والجيوشية، والأفضلية وغيرها[٦]. وبعد صلاح الدين؛ فإن سلاطين المماليك اتبعوا نفس النظام فى اتخاذ الجيوش الخاصة، وأشهرها: المماليك البحرية والمماليك البرجية نسبة الى أماكن سكناهم فى مصر، فالأولى سكنت فى قلعة الروضة على النيل، أو ماكان يسمى

---

(١) سعيد بن بطريق، ج٢ص ١١ ـ [illegible]

(٢) القرآن ١٧ ؛١ انظر.
Ency de l'Isl, (art al Masdjid al - Aksa) t3, p. 442.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٨٢س ١٥.

(٤) ابن واصل، مفرج، ٢ص ٣٢٥

(٥) ابن شداد، النوادر، ص ١١٤؛ أبو شامة، الروضتين، ٢ص ١٥٨؛ ١٦١؛ انظر. Elbeheiry :
Les Institutions de L'Egypte au Temps des Ayyûbides (Thèse). Paris, . p. 3., 5.

(٦) أنظر. ماجد، نظم الفاطميين، ط٣، ١ص ١٩٨ ـ ١٩٩؛ وهوامش.

سكناهم فى مصر، فالأولى سكنت فى قلعة الروضة على النيل، أو ماكان يسمى أيضًا ببحر النيل، والثانية بسبب سكناهم فى بروج القلعة على جبل المقطم، التى بنيت أيام صلاح الدين وتم بناؤها فى عهد حفيده الكامل، وأصبحت مقرا لحكم المماليك بعد الأيوبيين[1]. فهذه الطوائف الخاصة هى بالأولى لتأييد الحكم، ولم تتعد بأية حال من الأحوال فى عددها الآلاف.

أما بالنسبة للمعارك الكبرى، أو معارك المصير؛ فإن صلاح الدين كان مثل الفاطميين من قبل، والمماليك من بعدهم، يتخذ من المصريين ركيزة صلبة لجيشه، الذى يصل بإعداده إلى مئات الألوف. فكان لايقوم بحملاته الكبيرة على الصليبيين إلا عندما يصله العسكر المصرى بالذات؛ حيث أقبل المصريون على الجهاد معه[2]، وكما تقول النصوص التاريخية بوضوح تام عن معاركه مع الصليبيين، إنه كان يقاتلهم بعسكر مصر التى جاءته: «بأهلها السمر»[3]. وفى مكان آخر: «فلما وصل العساكر المستدعى من الديار المصرية[4]؛ فرقهم فى الميدان، فقويت بهم قلوب الأمة المحمدية»[5]؛ ولاريب، فالمصريون فى رباط إلى يوم الدين على حسب قول نبى الإسلام. ومع ذلك؛ فيجب أن نقول: إنه كان يوجد فى جيش صلاح الدين غير عسكر المصريين عسكر من بلاد الفرات والشام؛ بحيث كان يطلق عليهم جميعًا: العساكر الإسلامية. وليس معنى ذلك أن الطوائف الخاصة لم تحارب مع العساكر الإسلامية، وإنما يكون اشتراكها على الخصوص بحراسة السلطان؛ إذ يكونون حيث يكون السلطان، والقيادة أيضًا.

ولكنه اختار العساكر المصريين من دون بقية العساكر الإسلامية الأخرى؛ ليذهب على رأسهم لاسترداد القدس، وقد قسمه أطلابًا ـ مفردها طلب[6]، والطلب عدده ٥٠٠ رجالة، وألف فارس، وينقسم إلى كتائب، وجماعات، وسرايا، وتقسيمات غيرها ـ وذلك راجع لكفاءة العساكر المصرية التى كانت

---

(١) أنظر: ماجد، نظم المماليك، ط٢، ١ص ١٠.

(٢) عماد الدين، الفتح القسى، ص ١٠ س٢. او قوله عسكر مصر. نفسه، ص ١٠ (فى آحر الصفحة).

(٣) نفسه، ص ١٦٤ س ١٢. ويقول ابن الأثير: المصريين أنظر. الكامل، ٩ص ٢٠٨ س ١٢.

(٤) نفسه، ص ١٠س ١٢. الأجناد المصريين. الخطط، ١ص ١٤٠س ١١؛ الكامل، ٩ص ١٣٩.

(٥) نفسه، ص ٨٠س ١١ ـ ١٤.

(٦) أنظر. Elbcheiry: Op. Cit, p. 92 sqq.

ظهرت منهم فى المعارك السابقة، ولأن المصريين بالذات كانوا هم الذين تفانوا فى الدفاع عن القدس؛ لما استولى عليها الفرنجة فى عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م. وقد بدأ يظهر دور العساكر المصرية بشكل بارز؛ منذ أن اتخذ خلفاء الفاطميين مصر قاعدة لخلافتهم الواسعة؛ إذ اعتبروا مصر الغنية بمالها ورجالها قاعدة أصيلة فى الدفاع عن الكيانين العربى والإسلامى، وبذلك نبه الفاطميون إلى دور مصر والمصريين الرائد.

وبالفعل عندما كانت تقوم المعارك الكبرى للإسلام فى أيامهم؛ فإن معظم جيشهم كان من المصريين، فقد وجدوا فيهم نبعًا لا ينضب من الرجال؛ فمصر كانت دائمًا أكثر البلاد الإسلامية عددًا. ففى أيامهم كما تقول النصوص التاريخية، كان المصريون يعبأون للحرب بما سمى: «النفير» أو «النفير العام»[١] بالسجلات والكتب[٢] فى المصريين «الناس»، فيأتى المصريون من جميع أرجاء مصر من أسوان إلى الإسكندرية[٣]. وبذلك ظهر لأول مرة فى مصر التجنيد الإجبارى «La Levée en Masse». وفى آخر أيام الفاطميين أصبح المصريون يكونون غالبية جيشهم الثابت، سواء من الجنود أم الأمراء أى القواد[٤]؛ بحيث نسمع كثيرًا عن جنود وأمراء المصريين، فقد كان المصريون مهددين من جانب الصليبيين من أهل أوربا من ناحية، والسلاجقة الترك من ناحية أخرى؛ كما ذكرنا[٥].

كذلك لم تكن مصر تزود جيش صلاح الدين فى حربه مع الصليبيين بعساكر من أهلها فقط، وإنما بعساكر من السودان أيضًا، الذين سكنوها، وكثروا فيها؛ إذ يقول النص التاريخى: جاءته بأهلها من السمر المصريين، وسودان مصر»[٦]. حقًا إن استخدام العسكر من السودان؛ قد ظهر منذ وقت مبكر فى مصر الإسلامية، وفى أيام الفاطميين على الخصوص؛ حيث بلغوا فى جيشهم أكثر

(١) الفتح القسى، ص ٣٩ س ٢٠ ، ٢١.
(٢) النجوم، ٤ص ١٢١س ٥. مثلا حينما غزا باسيل الثانى الشام فى عام ٣٨٦هـ / ٩٩٦م.
(٣) يحيى الأنطاكى، تاريخ، تحقيق شيخو، ص ٢٥٤ ومابعدها، ص ٢٦٨.
(٤) الخطط، ٣ص ٢س ١٦؛ وقبله.
(٥) أنظر. قبله.
(٦) الفتح القسى، ص ١٦٣ س ١٥.

من مائة ألف؛ حتى أن الخليفة الفاطمى عرف باسمهم: «صاحب السودان»، مثلما كان يُعرف «بالخليفة المصرى». فوجدت لهم معسكرات كبيرة فى القاهرة يذكرها المؤرخون فى كتبهم الخطط؛ ولاسيما المقريزى. فكانوا أيضًا فى وقت صلاح الدين فى جنده، وشاركوا أخوانهم المصريين فى الدفاع عن الإسلام ضد الفرنجة.

وحتى قبط مصر، وهم يكوّنون قسمًا هامًّا من شعبها، أصبحوا أيضا عونًا لصلاح الدين فى حروبه ضد الصليبيين؛ فنصوص معاصرة كثيرة تبّين أنهم كانوا مع العساكر الإسلامية فى الشام، ويقومون بأعمال شتى، وعلى الخصوص أعمال الكتابة فى الدواوين. وقد كان الصليبيون يعتبرون القبط مثل المسلمين من الكفار؛ إذ تقول الرواية القبطية وقتئذ: «وصرنا معشر النصارى اليعاقبة، القبط، لانصل إلى الحج إليها - أى الى بيت المقدس - ولا نتمكن من الدنو من ذلك؛ لأجل ماهو معروف من بغضهم لنا، وسوء اعتقادهم فينا، وتكفيرهم إيانا»(١). بل إن صور صلاح الدين، التى بين أيدينا، هى من عمل القبط وحدهم؛ إذ كانوا يضعون صورته بجانب الآنية المقدسة فى الكنائس؛ تقديرًا لجهاده ضد الفرنجة(٢). فقد أدرك صلاح الدين أن القبط هم من أهل مصر، ولا يستغنى عنهم فى إدارة الدواوين، وفى عهده استمر إسلام القبط بكثرة، ومنهم الكاتب المعروف ابن مماتى مؤلف: قوانين الدواوين.

وبالإضافة إلى أن المصريين هم ركيزة جيش صلاح الدين البرى، فإنهم على حسب النصوص التاريخية التى بين أيدينا، كانوا أيضًا عماد الأسطول البحرى، ويدربون على القتال البحرى والبرى، ويسمون لذلك: بحرى وبرى، كما ذكرنا. فكانت أشهر أساطيل المسلمين فى عصر صلاح الدين هى أساطيل الإسكندرية ودمياط، وإن عرفت جميعها باسم: الأسطول المصرى أو الأسطول المنصور، أو حتى بحرية مصر(٣). وقبل صلاح الدين، كانت الخدمة فى الأسطول غير

---

(١) ابن المقفع، سير الآباء البطاركة، ٢ / ٣ص ٤٩.

(٢) أنظر كتابنا: الناصر صلاح الدين الأيوبى. أنظر. Zaki Pacha: Coupe Magique dedié à Salah ad - Dîn, 1916, p. 241 - 287.

(٣) الفتح القسى، ص ٦٣ س ٥.

إجبارية، إلا أنه فى عهده صدر أمر بأخذ الرجال للخدمة فيه[١]. فكان الناس فى مصر يقدرون جهاد المقاتلة فيه، ويتبركون بدعائهم، ويسمونهم: المجاهدون فى سبيل الله، والغزاة فى أعداء الله[٢]. وقد أنشئ للأسطول المصرى فى عهد صلاح الدين ديوان خاص به؛ عرف بديوان الأسطول؛ ليقوم بالإشراف على عمليات بناء المراكب وتجهيزها، ودفع نفقة العاملين فيها. وقد كان الاهتمام بالأسطول سببًا فى العناية بأحراش مصر لتوفير الأخشاب اللازمة فى بنائه، وبخاصة أخشاب شجرة السنط القوية، بحيث ظهر لها ديوان ساحل السنط؛ ولأهمية السنط فى وقت الأيوبيين فى مصر، عملوا على انتشار زراعتها، فكانت تحصى، وحرم على الأهالى قطعها، وأصبحت ملكًا للدولة[٣]، وكان نقل خشبها إلى ترسانات صناعة السفن - الصناعة - يحتاج إلى تنظيم دقيق[٤]. فكان إنشاء هذه الأساطيل فى دور الصناعة فى مصر، يقوم به القبط على الخصوص، الذين اشتهروا منذ القدم فى هذه الصناعة؛ فهم الذين بنو للمسلمين الأساطيل العربية فى أيام الفتوحات الإسلامية الأولى، ويظهر ذلك من وثائق البردى العربى فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى[٥].

فكان أشهر المراكب الحربية فى عهد صلاح الدين مثلما كانت فى أيام الفاطميين: الشوانى جمع شينى أو شونة[٦] التى بلغ عددها ستين شينيا، وهى - كما ذكرنا من قبل - مراكب طوال تجدف بثلاثة وأربعين ومائة مجدافا، وتحتوى على أهراء لخزن القمح، وصهاريج لخزن الماء الحلو، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم، والحراريق جمع حراقة، وهى مراكب مزودة بالنفط، الذى يرمى بآلات

---

(١) العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، ٢١ / ٣ ورقه ٥٩٦؛ انظر. سعداوى، التاريخ الحربى، ص ١٠٩؛ Ehrenkrutz: The place of Saladin in naval of Mediterránean Sea, in the Middle' Ages J.S.O.As. Vol 75, 1955, pp.llo sqq.

(٢) الروضتين، ٢ص ١٣ - ١٤.

(٣) النابلسى، لمع، ص ٤٥ ،٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩؛ انظر. أحمد فؤاد، رسالة (بإشرافى)، ٥٦٢.

(٤) ابن مماتى، قوانين، ص ٣٤٨؛ صبح الأعشى، ٣ص ٤٧٩.

(٥) أنظر. ماجد، دور المصريين فى البحرية الإسلامية فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى، ندوة اتحاد المؤرخين العرب، نوفمبر ١٩٩٣، ص ٢٧١ وما بعدها.

(٦) الروضتين، ٢ص ١١. عن انواع المراكب بتفصيل: درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، دار المعارف ١٩٧٩.

القذف من المنجنيقات، أو بالسهام، وفى القوارير؛ سفن العدو. والبُطس جمع بطسة، وهى تشتمل على عدة طبقات، وعلى قلوع كثيرة، تقدّر بأكثر من أربعين قلعًا، وتستخدم فى حمل الأزواد والذخيرة، وعلى الأخص الرجال؛ فكانت إحدى البطس تحمل خمسمائة وألف شخص.

ولم يقف مجهود أهل مصر فى الجهاد مع صلاح الدين عند ذلك؛ إنما اشتمل أيضًا على صناعة السلاح، التى برعوا فيها. ولدينا كتاب عن ذلك لمؤلف اسمه الحسن الأبرقى الإسكندرانى(١)، الذى كان يمارس مهنته فى صنع الأسلحة فى أواخر أيام الفاطميين، وألف لصلاح الدين فى الفن الحربى وأنواع السلاح، بعنوان: رسالة السلاح. فمن البراعات المصرية فى صنع السلاح، نذكر منها آلة حديدية تسمى مثلثة، لها أحجام مختلفة، لنشرها على الأرض كالألغام فى وقتنا؛ لتعوق تقدم العدو وبخاصة فرسانه. كذلك برعوا فى استعمال النفط أو النفوط، وعرفوا منه النفط الأسود أو الزفت، الذى كان يوجد على ساحل البحر الأحمر(القُلزم) فى سيناء، ويسيل من أعلى جبل، ويجمع فى خزائن(٢). فكان صلاح الدين يستخدم هذا النوع من النفط الملتهب بكثرة(٣)؛ حيث يقذفونه فى قارورات، ويلقونه بالقوس والسهم والزراقات والمنجنيق. من ناحية أخرى كان إنشاء التحصينات العديدة وبناء القلاع يتم بيد المصريين فى مصرأ والشام أو فى أى مكان آخر.

* *

ومثلما كان المصريون هم الركيزة الأولى فى جيش صلاح الدين فى معارك المصير ضد الصليبيين، وبكل عناصرهم، فإنهم وضعوا لهذه المعارك كل إمكاناتهم الاقتصادية أيضًا، بسبب مطالب النفقات الكبيرة على هذه الحروب؛ حيث كان يتوافر دائمًا لمصرموارد مالية عديدة منذ تاريخها القديم. فعملت الدولة الأيوبية على تنظيم دواوينها المالية تنظيمًا دقيقًا(٤) ؛إذ لايجوز أن يكون الواقع الاقتصادى يقوم على تنظيم مالى متخلف.

---

(١) حققه Cahen وترجمه، بعنوان: Un traité d' armurerie. B.E.O, txII 1947 - 8, p.103 - 104.
(٢) صبح الأعشى، ٣ص ٢٨٨.
(٣) الخطط، ٢ص ٣١١.
(٤) أنظر بتفصيل: Ency of Isl, (art Diwán) 2 ed, t2, p329 - 330.

وقد جعل الإشراف على شئون المال لصاحب ديوان المال، الذى هو فى الوقت ذاته صاحب ديوان النظر؛ ليعنى أنه الخبير الأول فى شئون المال والاقتصاد فى الدولة الأيوبية والإشراف العام عليها؛ حيث يتكلم عنه بتفصيل دقيق عثمان النابلسى فى كتابه: لمع القوانين[1]. فكان هذا الموظف المالى الكبير فى دولة الأيوبيين دائم البحث عن الأكفاء العارفين بشئون المال بين الكُتّاب المتخصصين فيه، مثل المستوفى الذى يعتبر نائبه، وشاهد بيت المال، والمراجعين، والخازن، وغيرهم. فكان عمل هذا الديوان الأساسى الإشراف على ديوانين ماليين هما: ديوان الأعمال، ويتعلق عمله بشئون المال فى الأقاليم، وبخاصة شئون الإقطاع الحربى أو الجيشى[2]؛ لفرضه فى الدولة الأيوبية؛ بحيث أصبحت له جرائد الإقطاعات، مع أن الإقطاع لم يتخذ مثل هذه الأهمية فى الدولة الفاطمية، وأخذ مظهرًا مستقلاً فى سائر جهات مصر[3]، وحل محل ديوانى الصعيد وأسفل الأرض فى العصر الفاطمى؛ فكان يقوم بجباية المال فى الأقاليم، مثل: ضريبة الخراج، وهى ضريبة الأرض، والهلالى وهى ضريبه الإنتاج، وغيرهما. أما الديوان الآخر الذى أشرف عليه صاحب ديوان المال أيضًا، فهو ديوان الباب، ويتعلق عمله بشئون المال فى العاصمة؛ حيث ظهرت له دواوين فرعية، مثل: ديوان خاص بمال بالزكاة أو الزكوات[4]، وديوان الجوالى أو ضريبة الجزية فى العصر الإسلامى الأول، وكان لها مشرف لجبابيها هو جهبذ الجوالى[5]؛ وهى ثلاث طبقات: الفقير والمريض دينار واحد، والمتوسط ديناران، والغنى أربة دنانير، وتثبت بالبلوغ، وتنتهى بالموت، وتؤخذ بالشهور الهلالية. حقًا إن ديوان المال وجد من عهد عمر بن الخطاب؛ ليشرف على احتياطى الذهب؛ إلا أنه فى العصر الأيوبى أصبح له الإشراف على الديوانين السابقين؛ بحيث اعتبرا ديوانيين جديدين، ظهرا لأول مرة فى العصر الأيوبى. إضافة إلى أن ديوان المال. أشرف على ديوان ثالث هو ديوان الأهراء[6]؛ لتوفير المؤن للبلاد، والحبوب والمعلوفات للجيش، وعرفت لذلك بالأهراء المباركة.

ولكى تقوم الدواوين الماليه بدور فعال، يتناسب مع طروف الحرب واحتياجاتها المالية؛ أقيم الروك الصلاحى فى مصر عام ٥٧٢هـ / ١١٧٦م؛ وكفل

---

(١) النابلسى، لمع القوانين، ص١٤-١٥.

(٢) السبكى، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق النجار وآخرون، القاهرة ١٩٤٥، ص٢٩-٣، انظر Cahen: Evolutian de l'Iqtc, du Ix au X111 Siécle, in Annales Islano, V11, 1953, p25-52.

(٣) ابن مماتى، قوانين الدواوين تحقيق، سوريال، ص٣٤٧ وما بعدها.

(٤) لمع، ص١٤-١٥؛ المنتقى، ص٤٢.

(٥) المخزومى، المنتقى، ص٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٩.

(٦) قوانين الدوانين الدواوين، ص٣٥٠

الإشراف عليه لقراقوش بن أيبك[1]؛ بقصيد حصر الأراضى الزراعية فى النواحى الإدارية؛ حيث بلغت مساحتها ثلاثين ألف ألف (٣٠ مليون) فدان. واعتبر خامس روك لأراضى مصر فى العصر الإسلامى؛ وظهرت بخصوصه تعابير اصطلاحية متعددة لنوعيه أراضيها، منها: أرض «باق»؛ لتعنى أرضًا خصبة لزراعة القمح على الخصوص، وأرض «تخضير»، وهى قابلة للزراعة، وأرض «خرس» وتحتاج إلى استصلاح، وأرض غالب؛ ليس من السهل زراعتها، وأرض «مستبحر»، أى فيها ساء كثير، وأرض «رى» أى أنها تروى، وأرض «شراقى» أى غير مروية، وأرض «عين» أى أن خراجها يدفع نقدًا، وأرض «حب» أى أنها تدفع الحبوب فى خراجها.

كذلك وجد فى العصر الأيوبى ديوان هام عرف باسم: ديوان الثغور أو ديوان المتجر السلطانى؛ ليقوم بالمشتريات العسكرية لحساب الدولة؛ من خلال ثغور مصر، مثل: الإسكندرية، ودمياط، وتنّيس - حماها الله[1] - حيث كانت مصر تقوم بتجارة العبور - الترانزيت - مع جمهوريات المدن الإيطالية، مثل: بيزة، وجنوة، ونابلى، والبندقية، وأقريطش، وبيزنطة؛ حيث كانت تعتقد معها اتفاقيات، ولاسيما فى وقت الهدنات مع الصليبيين. ولدينا خطاب من صلاح الدين بتاريخ ٥٧٢هـ / ١١٧٧م؛ موجهًا إلى تجار الخمس أى غير المسلمين من بيزة، يطمئنهم فيه بالأمان، ويمنيهم بالربح الوفير[3]. فكان المستورد من: الخشب، والحديد والقار، وحوائج العطور، والذهب، والفضة، والحرير الخام، والبز على اختلاف أنواعه، أما مصر فكانت تصدر لهذه الجمهوريات وبيزانطة وغيرها؛ مورد مصر الثابت من الشبة[4]؛ طوال العصور الوسطى.

ولدينا وصف لدار سك العملة بثغر الإسكندرية[5]؛ فكانت ترد إليها السبائك والدنانير المختلفة، والمكسور، والمصاغ؛ فيوقد عليها فى الأتون، وتنقى قضبانًا، وتحمل لتصبح العيار، فيقطع، ويحرر الوزن، ويكون المعيار الأصل القاهرى بالميزان، ثم يختم بختم السكة السلطانية، وتصير العملة جائز، أى عملة جيدة.

---

(١) الخطط، ١ ص١٣٨-١٤١، ١٥٣-١٥٤، ١٥٦.

(٢) تعصيل: Cahen: Douanes et Commerce: dans les ports Méditerraneans de l.'Eggpte, Médiévale d'aprés Le Minhadg D'al - Makhzumi. JISHo Vol 7,p. 218-313.

(٣) أنظر الوثيقة الرابعة، وهى مترجمة فى ملاحق رسالة أحمد فؤاد، من رسالته للماجستير التى قدمها عن نظم الأيوبيين، وكانت بإشرافى، وانظر. Cahen: Les Marchands Etrangers au Caire, sous Les. Fatimides et Les Ayyoubides. Colloque au caire, 1972, p. 97-102.

(٤) ابن مماتى، قوانين، ص٣٥٠.

(٥) المخزومى، المنتقى، ص٣٠-٣١.

والخلاصة أن شئون الاقتصاد أصبحت موضع اهتمام كبير من قبل الدولة الأيوبية؛ لتساعد على تحقيق الأهداف الكبرى فى تحرير الأرض العربية والدفاع عنها ضد غزاتها من الفرنجة.

* *

ومع أنه فى موقعة حِطّين كان أسر ملك بيت المقدس؛ وعدد كبير من أمراء الفرنجة؛ إلا أن البطرك أو البطريك الأعظم[1]، كان قد هرب إلى بيت المقدس، وأصبح مركزه فيها أقوى من ملك، وكان فيها حينئذ من الفرنج ستون ألف مقاتل[2]، ومنهم فرسان الداوية والإستبارية والبارونية والفريرية[3]. ولما جاء صلاح الدين القدس بعسكر من السمر المصريين وسودان مصر؛ أخذ يفكر هو والقادة المصريين، فى كيفية الاستيلاء عليها، واستمر طوافه هو وقواده بأسوارها خمسة أيام، لينظر من أين يأتيها لحصانتها ومناعتها؛ إذ كانت تقع على قمة جبل صهيون، وأن الأرض المحيطة بها غير مستوية، ووديان عميقة، وأرض جرداء خالية تمامًا من الماء، واعتمادها على مياه الأمطار والينابيع البعيدة. فنصب عليها المنجنيقات الكثيرة من ناحية الشمال، وتحت ستار رميها الشديد، تمكن الجند المصريين من الوصول للخندق، وثقب السور، ودخول القدس.

عندئذ طلب البطريريك الأمان له ولفرنجة القدس، فرفض صلاح الدين لرغبته فى فتحها عنوة بحد السيف؛ بقصد الانتقام لما فعله الفرنجة من القتل والسلب، لما ملكوها. ولكن لما هدد البطريرك بقتل أسرى المسلمين لديه؛ وبقتاله قتالا شديدًا حتى الموت، قبل منه الأمان بناء على مشورة قواده. وقد اشترط صلاح الدين على الفرنجة أن يرحلوا من البلدة فى خلال أربعين يومًا، وأن يتركوا خيلهم وأسلحتهم، وأن يدفع كل رجل فدية عشرة دنانير «خمسة جنيهات»، وكل امرأة خمسة دنانير، وكل صغير دينارين. ولا نجد فى الأمان شروطا لليهود، ربما لأن الفرنجة لم يكونوا يسمحون لهم بالبقاء معهم بالقدس، أو تقليدًا لما حدث فى أيام عمر بن الخطاب، الذى منح الأمان للنصارى دون اليهود، ومع ذلك لم يمنع صلاح الدين اليهود من العودة إلى القدس. وبعد فتحها، أظهر صلاح الدين تسامحًا نادرًا نحو أسراه من المسيحيين؛ فأطلق من كان من نصيبه منهم دون فداء، وتنازل أيضًا عن نصيبه فى الغنائم لفقراء المسيحيين؛ بحيث اعتبر صلاح الدين أرحم فاتح من المسلمين.

---

(١) الفتح القسى، ص ٣٧ س ١٣.
(٢) نفسه، ص ٤٠س ٢٤، ٢٥.
(٣) نفسه، ص ٤١س ، ١٤.

وقد كان تسليم القدس فى ليلة الإسراء من يوم الجمعة ٢٧ من رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢ ديسمبر ١١٨٧؛ بعد أن بقى فى أيدى الفرنجة إحدى وتسعين سنة؛ حيث عرف فتحها بالفتح الأكبر. ولم يرض صلاح الدين أن يدخلها إلا ومعه مندوبون من أطراف البلاد الإسلامية؛ كما لم يتخلف شخص ذو حيثية من المثول معه، وبخاصة من علماء مصر ومتصوفيها، الذين كان صلاح الدين يميل إليهم؛ ويذهب إلى الإسكندرية لسماع الحديث على أكبر علمائهم، أمثال: أبى الحافظ السلفى، وأبى الطاهر بن عوف وغيرهما؛ حيث طوف الأول وراء جمع الحديث ثم استقر فى الإسكندرية فى أيام الفاطميين، وأقام له وقتذاك الوزير ابن السلار مدرسة متخصصة لدراسة الحديث فى عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م، صارت كعبة فى مصر لطلب الحديث. فدخل صلاح الدين القدس ومعه زهاء عشرة آلاف عمامة؛ وجلس للتهنئة وحوله الشعراء، وأكثرهم كانوا من المصريين - كما يقول النص التاريخى - ينشدون له قصائد المديح، سميت بالقدسيات؛ نسبة إلى يوم استرداد القدس من الصليبيين. وفى أثناء تواجده فى القدس أقام مدرسة للفقهاء الشافعية على مذهب المصريين(١)؛ كما رتب فيها الدواوين، وأقام فى كل منها عدداً من النواب المصريين(٢).

وبتسليم بيت المقدس أعاد صلاح الدين للمساجد طابعها الإسلامى بعد أن حولها الصليبيون إلى كنائس، ولدينا نقوش من عهده تدل على تجديدها(٣). فهو الذى أمر بإظهار الصخرة المقدسة، التى كان الفرنجة قد فرشوا الرخام فوقها لحفظها؛ بسبب أنه كان يقطع منها قطعاً صغيرة للبركة أو لبيعها، فلما ظهرت قام بغسلها وهو يبكى، وأمر بخلع الصليب الكبير، وكان يسمى صليب الصلوات، الذى أقيم على قبتها، وهو من النحاس، ومحلى بماء الذهب، ووضع مكانه هلالاً بين حماس المسلمين وفرحهم(٤). كذلك أعاد صلاح المسجد الأقصى إلى حالته الأولى(٥)، ولدينا نقش بذلك من عام ٥٨٣هـ / ١٠٩٣م(٦)، وبعد أن كان الفرنجة حولوه إلى كنيسة، فأمر بهدم ما أضيف إليه، وأزال التماثيل والصور منه، ووضع فيه القناديل، وفرشه بالبسط؛ وأقيمت فيه صلاة الجمعة فى اليوم التالى لدخول

---

(١) نفسه، ص ٥٣س ٢١.
(٢) نفسه، ص ٤٤س ٣ - ٤.
(٣) السلوك، ١ / ١ص ١٠١ - ١٠٢.
(٤) أنظر . Répertoire,9, P. 159 - 160.
(٥) عن التفاصيل. الكامل، ٩ص ١٨٤ - ١٨٥؛ الفتح القسى، ص ٤٨، ٥٠ - ٥٣؛ انظر . Ency de, l'Isl, (art al - Kuds) t2, p. 1165 - 6
(٦) أنظر : Répertoire, 9,p. 129 - 160.

صـلاح الدين، فكان الخطيب يعـدد مآثر البـطل الفاتح ويدعـو له[1]، والمصلون يؤمنون على دعائه. وقد أشير على صلاح الدين بهدم كنيسة القيامة انتقامًا لما فعله الفرنجة بمساجد، فلم يوافق؛ لأن عمر بن الخطاب كان أبقاها حينما تسلّم القدس، إلا أن صلاح الدين أمر بغلقها وكسر أجراسها وإزالة صلبانها، ثم فتحها بعد مدة، وقرر على أن يرد إليها من الفرنجة مبلغًا من المال فكان تصـرف صلاح الدين السمح نحو كنيسة القيامة المقدسة، يخالف تصرف الفرنجة المشين نحو مسجدى قبة الصخرة والأقصى.

ومع فرح المسلمين الزائد باسترداد بيت المقدس؛ فإنه على النقيض لايبدو أن خليفة المسلمين بالعراق، وهو الناصر لدين الله أبو العباس أحـمد قد سر بفتحها، ربما حسـدًا لصلاح الدين، ويظهـر حقده المكبوت بإرساله كـتابًا شـديدًا لصلاح الدين، وردت فيه هـذه العبارة: «يفتخـر علينا بالقدس»[2]. وكان الخليفـة الناصر لدين الله قد أقـام لنفسـه تنظيمًا شـعبيًّـا من الفتيـان، ولبس له سراويل الفـتوة، وظهرت به دعوة سماها دعـوة الفتوة الناصرية،اعتبرت فى أصلها دعـوة سياسية، أثارت هى الأخرى حـماس المقـاومة ضد الصليـبيين فى بلاد الإسـلام، حتى أن الأيوبيين أنفسهم انضـموا إليها[3]. ويبـدو الحقـد المكبـوت فى العراق أيضًـا فى اصطدام حجـاج العراق بحـجاج مـصر فى عرفـات؛ حتى أنهم قـتلوا من هؤلاء جماعة؛ بحـجة أنهم يحملون طبولا[4]. فكان هذا الحقـد العراقى المكبـوت ضد صلاح الدين أو المصريين؛ بسبب استرداد بيت المقدس من الصليبيين على يد السمر المصريين.

* * *

وبذلك تحقـقت معجزة استـرداد بيت المقدس من الصليبـيين على يد عسكر مصر وحدهم من دون عـسكر المسلمين جميعًا؛ بحيث قـال عماد الدين الكاتب، وهو شـاهد عيـان لاستعـادتها: «ولتـفـخر مـصر وعكسـرها على باقى سـائر الأمصار»[5]،وذلك بعد أن كـاد الياس يعمّ المسلمين جـميعًـا من عودتهـا إليهم؛ بسبب أن المسلمين كانوا قـد وهنوا، واعتبر استـردادها هجرة ثانية[5]، أى هجرة الإسلام إلى بيت المقدس، وأن فـتحها هو فتح الشـام الثانى. ولكى يؤمن صلاح الدين انتصـاره الباهر فيهـا؛ فإنه جىء لها من مـصر بخزانة سلاح لم ير مـثلها، وكانت من كل نوع كالجبال[6].

(١) عن نص الخطبة، انظر. الحنبلى، ورقات ٣٧، ٣٨.

(٢) الفتح القسى، ص ٣٩س ٢٠ ـ ٢١.

(٣) ابن شاهنشـاه، (٦١١هـ / ١٢٢١م)، مضمار الحـقائق، القاهرة ١٩٦٨ ص ٨٦، ١٧٧؛ ابن العـماد، كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى حواد، بغداد ١٩٥٨.

(٤)الفتح القسى ص ٣٩

(٥) نفسه، ص ٥س٤

(٦) نفسه، ص ٧٨

الفصل السادس

رد الفعل الفرنجى، والهدنة مع الصليبيين

كان سقوط بيت المقـدس سببًا فى أن جعل أوربا تتحرك سـريعًا لاستنقاذه؛ ولاسيـما أن البطريرك الذى كان ببيـت المقدس، وتركه صـلاح الدين يرحل عنها بالأمان، دخل بلاد الفرنجـة بأوربا «أفرنجة» يطوفها جـميعها، ومـعه صورة لرجل عربى يضرب المسيح، ليحثهم على الأخذ بثأر بيت المقدس من المسلمين[1] ؛ كما ظهرت مرثيات ملحمية عن سـقوطها، بعضها يتكون من آلاف الأبيات[2]. فعمل البابا كلمنت الثالث «Clement III» (١٠٨٠ ـ ١١٥٠م)، هو الآخر بالتبشير بحرب صليبيـة جديدة، وهى التى عُرفت بالحملة الصليبيـة الثالثة؛ واشتركت أوربا فـيها بجميع بلادها وإمكاناتها، وحتى بنسائها اللاتى جندن فى زىّ الرجال؛ كما اشترك فيـها أكبر ملـوكه، ومنهم: ملك ألمانيا فـردريك بربَاروسا «Fredrik Barbrosa»، وملك فرنسا فيليب أغسطس "Philippe Augustus" وملك إنجلترا ريتـشارد قلب الأسد «Richard Lion Heart»، حيـث يقول ابن الأثيـر عن الألمان إنهم نوع من الفرنجة شديدى الباس[3]، وأن عدد مقاتليهم بلغ ألف ألف (مليون).

وفى الوقت ذاته، أصبحت أساطيل مـصر، أو مايعُرف بأسطول أو أساطيل الإسكندرية؛ تقوم بنصيب فعـال فى قتال الفرنجة، الذين كانت مراكـبهم متواصلة كثيرة على الساحل الشامى. فحينما اختار الفرنجة عكة أو عكاء «Akko»، جعلوها الهـدف الأول فى سبيـل استعـادة بيت المقـدس، وحاصروها مـن البر والبـحر، استدعى صلاح الدين من مصر خمسين شينياً من المراكب الحربية الكبيرة، والمزودة بالمنجنيقات القذافة[4]، وعلى ظهرها عـشرة آلاف بحار مـصرى[5]، فكان وجود

---

(١) الكامل، ٩ص ٢٠١.

(٢) مثل مرثية البطريرك جريجورى الابن (١١٨٩م)، وهو أرمنى، وتتكون من ٢٣٩٤ بيتًا. انظر R.H.C. Arm I, p.269 - 271.

(٣) الكامل، ٩ص ٢٠٧، ٨ ،٢؛ انظر. ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٧٣.

(٤) الفتح القسى، ص ١٦٦

(٥) نفسه، ص ١٦٨.

هذه المراكب الحربية المصرية فى عكّـه، داعيًا إلى تقوية حاميتهـا ضد المحاصرين، ولاسيما أن بحـارتها كانوا مدربين على القتال البحرى والبـرى، ويسمونهم بحرى وبرى. ففى مـرة استولـى الأسطول المصرى على خمـسة مراكب إنجـليزية كبـيرة وطراد[(١)]؛ وهذا الأخير نوع من المراكب التى تحمل الخيل للفرسان.

ولعل أهم عمل قـام به الأسطول المصرى ـ كما كـان يسمى ـ إقامتـه البدل لحامية عكة[(٢)]، ففى فصل الشتاء لما سحب الفرنج مراكبهم المحاصرة من أمام عكة لهياج البحـر، استغل الأسطول المصرى الفرصة ونقل إليهـا زهاء عشرين ألفًا من رجال البر والبـحر. ويبدو أن أغلب من دخلها من الجند المصـريين، بدليل وجود كتّاب القبط معهم. وقال المؤرخ ابن الأثير[(٣)] ـ المعاصر لهـذه الحملة ـ إنه كان همّ الفرنجة محاربة المصريين وكسر شـوكتهم؛ بحيث إن المصريين وحدهم خرجوا لهم وقتلوا منهم فى إحدى الوقائع البحرية عشرة آلاف قتيل[(٤)].

وقد استمرت حامية عكّه تقاوم هذا الغزو الصليبى من البر والبحر لمدة ثلاث سنوات، من ٥٨٥ ـ ٥٨٧هـ / ١١٨٩ ـ ١١٩١م؛ بسـبب أن المصـريين كانوا قـد أعادوا تحصيناتها، وأشرف عليها بهاء الدين قراقوش، مهندس صلاح الدين، الذى حصن القاهرة، وبنى قلعتـها، فجاء إليها ومعه عمـال ومهندسون من أهل مصر؛ كما أحضر أدوات وآلات كثيرة من مصر[(٥)]. كذلك توافد على عكّة المجاهدون من أنحاء بلاد المسلـمين، بمن فيهم المغـاربة، وفرسان الـبحر الأندلسـيون[(٦)]؛ فكانوا يقصـدون الإسكندرية أولاً، قبل أن يحملهم الأسطول المصـرى إلى عكة؛ بحيث أصبحت الإسكندرية وطنًا ثانيًا لهم؛ مما دعا صلاح الدين إلى إنشاء دار دائمة لهم فيها ومارستان، وحتى مدرسة[(٧)]، أما فى القـاهرة، فكان سكنهم فى مسـجد ابن طولون؛ كما ذكر الرحالة الأندلسى ابن جبير[(٨)].

---

(١)نفسه، ص ٢٤٠.

(٢) نفسه، ص ٢٢٧ وما بعدها؛ الكامل، ٩ص ٢٠٧.

(٣) الكامل، ٩ص ٢٠٢ ومابعدها.

(٤) الفتح القسى، ص ٢٠١س ١، ص ١٩٩ وما بعدها

(٥) نفسه، ص ٩٠، ٩١.

(٦)أنظر علي احمـد، دور الأندلسيين والمغـاربة فى الحروب الصليبـية على مـسرح الشام ومـصر، المؤرخ العربى، ٤، ١٩٩٦، ص ٢٠٩وما بعدها.

(٧)النويرى، الإلمام، نسخة مخطوطة بدار الكتب، برقم ١٤١أ، ورقة ١١٦ب أنظر. سالم، من جديد حول التأثيرات الأندلسية، فصلة من مجلة المعهد المصرى بمدريد، المجلد ٢١، ١٩٨١ ـ٢، ص ١٤

(٨) أنظر. رحلة ابن جبير

ولكن عكّة أصبحت وشيكة السقوط فى أيدى الفرنجة؛ بسبب أن المصريين وحدهم أصبحوا المدافعين عنها، ومقاومتهم فيها اعتبرت صفحة ناصعة من الأمجاد المصرية فى التاريخ مثلما حدث فى عسقلان وغيرها من المدن الساحلية الأخرى؛ بينما خليفة العراق لم يرض المشاركة بأى جهد، ولو بدعائه للمقاتلين فيها[1]، وأن سلطان العجم بإيران[2]، وأمراء الترك بآسية الصغرى لم يلبوا النداء الذى وجهه إليهم صلاح الدين، وحتى أهل شمال أفريقيا بزعامة الموحدين؛ وهى دولة بربرية، لم يكتفوا بموقفهم السلبى، وإنما فكروا فى انتهاز الفرصة للاستيلاء على مصر، وجعل الشرق الإسلامى يخضع لهم، وبخاصة أنه كان يوجد عداء سابق مع صلاح الذين الذين، أرسل مملوكه قراقوش التقوى المطغرى، وهو من الأكراد، فى حملة لمساعدة بقايا دولة المرابطين فى ٥٦٨هـ / ١١٧٢م[3]، التى أسقطتها دولة الموحدين وحلت محلها. فاستولى قراقوش التقوى على برقَة وطرابلُس بمساعدة العرب فيهما؛ ولما نزل إفريقية - تونس - ودخل القيروان؛ انضم إليه عربها من بنى سُليم. فكانت دولة الموحدين، تحرض بربر جبل نفوسة ضد الحملة المصرية العربية؛ إلا أن قراقوش التقوى كان يرحل من مكان إلى آخر، ويعمل على مساعدة المرابطين، حتى لا تسقط دولتهم فى أيدى الموحدين. كذلك قيل إن السبب فى إرسال قراقوش التقوى إلى المغرب، خوفا من أن يعمل الموحدون على سبيل الانتقام؛ بإعادة الخلافة الفاطمية التى قضى صلاح الدين عليها، أو حتى لتكون برقة وطرابلس ملجأ لصلاح الدين؛ إذا ما عزله نور الدين بعد أن أظهر عداوته له. وعلى كل حال تحسنت العلاقات بين صلاح الدين والموحدين، حينما أرسل رسولاً من قبله إلى أبى يعقوب بن المنصور، حفيد عبد المؤمن، مؤسس دولة الموحدين، يطلب منه أن يعمل أسطوله على قطع خطوط تموين العدو الصليبى، من ناحيته.

ولدينا وصف تفصيلى للقتال فى عكّة، وهى وشيكة السقوط، بعد أن تهدمت أسوارها، تحت رمى منجنيقات الفرنجة الكثيرة، فكانت كلما فتحت ثغرة فيها سواها المقاتلة بأشلاء موتاهم. و لكن لما تهدمت أسوارها، ودمرت

---

(١) الفتح القسى، ص ١٧٩.

(٢) نفسه، ص ١٧٣ - ١٧٥

(٣) شاهنشاه بن أيوب وصاحب حمادة، مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشى، ١٩٦٨، ص ٣٤ وما بعدها

أبراجهـا، وانحدر الفرنجة بجـموع كثيـرة داخل البلدة، ونشروا فيـها راياتهم التى تحمل الصليب مـرسومًا عليها، ومع ذلـك استمر القتـال فى الشوارع من بيت إلى بيت، حتى على الأسطح(١)، وأخيرًا سلمت عكة فى يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة، سنة ٥٨٧هـ / يوليو ١١٩١م.

وقد أسـرع صلاح الدين بعـد هذه الهزيمة إلى بيت المقدس خـوفًا عليـها؛ لتقوية حـصونها حتى كان يحـمل على كتفه الأحـجار مثل بقية العـمال؛ مما دعا الآخرين بمن فـيهم؛ عماد الـدين الأصفهانى والقـاضى الفاضل، وهما من كـتّابه المشهورين، الاقتداء به فى حمل الأحجار(٢)؛ كما حشد فيها عسكرًا استقدمهم من مصر بالذات. فيقول النص التـاريخى كان السلطان وهو فى الشام يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله(٣)، ويدعـوهم لنجـدة أهل القـدس على الكفـر وأهله. فلبى العسكر المصرى نداءه، وضرب خيامه على بِلبيس مدة، حتى اجتمع الرفاق. ويبدو أن ملك الإنجليـز «ريتشـارد Richard»، الذى اشـتـهـر بلقب قلب الأسـد «Lion Heart»؛ لشجاعـته وقوة قلبه - يسميـه العرب ليجرت ملك الأنكتير - وكـان أكبر ملوك أوربا، قد فكر قبل أن يتجه إلى بيت المقدس أن يسعى إلى الاسـتيلاء على مصـر، أو على الأقل أن يقطع الطريق بين مصر وصـلاح الدين فى الشام الموقف الإمدادات من مصر.

* *

ولعل جميع الأطراف قد بدأت تتعب من هذه الحرب المدمرة، إذ إن الحروب الصليبية كانت من أكبر صراعات البشر، فالصليبيون لم يستطيعوا أن يستردوا بيت المقدس على الرغم من وصولـهم قربها عدة مرات، واسـتيلائهم على بعض المدن الشامية من جديد، ووصولهم إلى ساحل مـصر، أما المصريون فهم أيضًا كانوا قد تعـبوا من الجـهد المتـواصل فى الهـجوم والدفـاع، حـيث كانوا ركـيزة عـسكره الإسلامى. حينئذ بدأ الطرفان فى التفكير فى السلم؛ طالما أن الحرب لم تستطع أن تحسم النزاع بينهما؛ بحيث رحب الطرفـان بالمصالحة؛ حتى أنه لم يحدث أن رحب المسلمون ولا سـيما المصـريون؛ بصلح مثله منذ صلح الحـديبية، الذى أقـامه نبى الإسلام مع الكفار.

---

(١) الفتح القسى، ص ٢٦٣.
(٢) أوردها Lewis فى كتابه: Islam, I, p. 68
(٣) نفسه، ص ٣٠٦.

ومن قبل ظهرت الاتجاهات السلامية فى أثناء حصار عكّة، لما مرض ريتشارد ملك الإنجليز، وكان فى حاجة إلى الدجاج والفواكه والثلج، فأرسل إليه صلاح الدين ما يريده منها، ومكّن رسله من زيارة الأسواق الإسلامية[1]، وبعد نصر الفرنجة فى عكة اقترح ريتشارد على صلاح الدين رد القدس إلى الفرنجة. ويبدو أنه فى أثناء هذه المفاوضات اتصلت طداقته بالعادل، أخى صلاح الدين، وأصبح يعرف لهم بلقبه «Saphadin»[2]، أى سيف الدين؛ حتى أنه لما طلب مرة أن يسمعه غناء المسلمين، أحضر له مغنية تضرب بالعود، فغنت له، فاستحسن ذلك، وعرض ريتشارد على العادل أن يزوجه من أخته جان «Jean»، ويقيم هو وزوجته فى القدس، وبذلك ينتهى النزاع، وقد قبل صلاح الدين ذلك، إلا أن ريتشارد تحت تحريض رجال الدين لديه اعتذر.

وأخيرا، وقعت المصالحة بين صلاح الدين وريتشارد، ووافق عليها جميع المسيحيين، وتكون مدتها ثلاث سنين، وثمانية أشهر؛ على أن تكون هدنة عامة فى البر والبحر والسهل والوعر، وذلك فى يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨هـ / سبتمبر ١١٩٢م[3]. وقد نص الصلح على أن يحتفظ كل فريق بما فى يده؛ على أن توجد بينهما منطقة منزوعة السلاح «No Man'sLand»، وأن يسمح للحجاج النصارى بالوصول إلى بيت المقدس.

فكان إقرار الصلح بداية الصلات والمودة بين الفريقين؛ فاختلط العسكر، واختلطت التجارة[4]، وتعامل الصليبيون بالدنانير الأيوبية لنقائها وارتفاع وزنها، وأطلقوا عيلها اسم: «Besant Saracenat»، أى العربية؛ وإن أضافوا إليها عقيدة التثليث بدلا من عقيدة التوحيد الإسلامية[5]. وقد أمر صلاح الدين بالمناداة فى المسلمين أن الصلح قد انتظم، فمن شاء من الفرنجة أن يدخل بلادنا فليفعل[6]،

---

(١) نفسه، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٢) أنظر Ency de l'Isl.. (art al - Adil) tI. p. 197 - 8.

(٣) الفتح القسى، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥، الكامل، ٩ص ٢١٦ ـ ٢١٧

(٤) الفتح القسى، ص ٣١٥ وما بعدها.

(٥) انظر Lavoix: Monnaies à Légendes Arabes, frappées en Syrie par les Croisés .Paris.
Balog: Monnaies à légendes Arabes de L, Orient Latin.
Nums. 6 ème Série, TI, 1958, P. 137.

(٦) السلوك ١ / ١ ص ١١١° انظر . ماجد، العلاقات، ص ١٨٤

(٧) نفسه، ١ / ١ ص ١١؛ انظر . نفسه.

فكانت هذه أول مرة تنتهى حملة صليبية إلى صلح أو اتفاق بين النصارى والمسلمين، وتجمعهما على التعايش معًا، وقبول الأمر الواقع «Modus Vivendi». كذلك وصل الحجاج إلى القدس، وزاروا كنيسة القيامة المقدسة. ولما مرض ملك إنجلترا؛ فإن صلاح الدين عاده، بينما لما رحل ريتشارد إلى إنجلترا حاربه أخوه. وقد اعتبر ريتشارد فى نظر المسيحيين من الملوك الصالحين؛ مع أنه قبل مجيئه إلى الشرق، كان يضطهد اليهود فى إنجلترا، ويصادر أموالهم معتلاً فى ذلك بأنهم من الكفار، وفى الوقت نفسه، ينتفع بمالهم فى حرب المسلمين.

ولا شك أن صلاح الدين كان محاربًا شديدًا؛ إلا أنه جنح إلى السلم، لما جنح الأعداء إليه أيضًا؛ إذ كان من هؤلاء القادة العسكريين والمفكرين، الذين لا يرون أن الحرب هى الحل،وإن قامت؛ فإنها يجب أن تنتهى إلى السلم. ودليل ذلك أنه كان يواسى فى موت ملوك بيت المقدس فى المناسبات، حتى أن القلقشندى[١] أورد نص رسالة كان صلاح الدين أرسلها إلى بلدوين الرابع، فى ٥٨٠هـ / ١١٨٥م، لما خلف عمورى على عرش بيت المقدس، فارسل إليه يعزيه، فى وفاة والده،ويهنئه فى الوقت ذاته بالجلوس مكانه، وكانت هذه المواساة من إنشاء القاضى الفاضل أكبر كتّابه، مع أنه وقعت حروب شديدة بين عمورى وصلاح الدين، لما تطلع عمورى إلى الاستيلاء على مصر .فورد فى نص رسالة صلاح الدين: أنه يتأسف لفقده ـ عمورى ـ ويعرض عليه صداقته. وهذه الرسالة لم يذكرها وليم الصورى مؤرخ الصليبيين؛كما أن بلدوين هو الآخر شنها حربًا شعواء ضد صلاح الدين بعد ذلك.

هذا القائد العظيم، المتحمس للإسلام، ولوحدة العرب فى الشرق الإسلامى، والذى اتخذ النسر رمزًا له؛ ليدل على تحفزه للانقضاض على أعداء الإسلام، لم يلبث وقتًا بعد ذلك، حتى وافته المنية فى ليلة الأربعاء ١٧ من صفر سته ٥٨٩ هـ / ٤ مارس ١١٩٣م[٢]. فدفن فى مقبرة خاصة فى شمال دمشق.

---

(١) صبح الأعشى، ٧ص ١١٥، ١١٦. انظر مقالة عادل حمزة، رسالة صلاح الدين إلى بلدوين الرابع ملك بيت المقدس، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٤، ١٩٩٦، ص ٢٤٩ وما بعدها

(٢) السلوك، ٢ / ١ص ١١٢ ـ ١١٣؛ وفيات الأعيان، ٣ص ٨ أومابعدها؛ العماد، شذرات الذهب ١٣٥٠هـ، ٥ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩؛ R.H.C. occ. t 2, P. 217

فكان موته يومًا مشهودًا؛ لم يصب الإسلام بمثله منذ عهد الخلفاء الراشدين، حتى أن الرحالة عبد اللطيف البغدادى[1]، الذى عاصره وقابله فى القدس بعد استردادها، يكتب أنه لم ير فى حياته من بكى عليه الناس من المسلمين وغيرهم مثله، ويقول: كان ملكًا عظيمًا يملأ العين روعة، والقلوب محبة، وأن أصحابه يتشبهون به، ويتسابقون إلى المعروف مثله. كذلك رأت الفرنجة فى صلاح الدين خصالاً رائعة، حتى أن الشاعر الإيطالى دانتى«Danti» ميّزه فى أعتاب الجحيم المسمى: اللمبو، «Limbo»، مع حكام العالم الكبار وأبطاله.

---

(١) أوردها ابن أبى أصيبعة، الإنباء، ٢ص ٢٠٦.

الفصل السابع

الأيوبيون والحركة الصليبية بعد موت صلاح الدين

تتميّز الحركة الصليبية بعد وفاة صلاح الدين؛ بأنه لم يعد قصدها بيت المقدس كما كانت الحال من قبل، وإنما الاستيلاء على مصر. فقد أدرك الصليبيون انه لا مجال لتنفيذ خططهم بالبقاء فى أرض العرب، ودق أسفينهم فى نظامهم الإقليمى؛ إلا بالاستيلاء على مصر، رأس الجسد العربى وقلبه، فوضعوا نُصب أعينهم غزوها فى حملات كبرى ومكثفة وشرسة ومتوالية، استمرت إلى وقت سقوط الدولة الأيوبية، وليس كما كانت الحال من قبل فى حملات طارئة.

وقد أدرك صلاح الدين وخلفه من ملوك الأيوبيين طمع الصليبين فى مصر؛ فحصنوها تحصينا قويًا؛ حيث كفل ذلك إلى الأمير قراقوش - بهاء الدين - عبقرية عصره فى البناء(١). فبنيت فى القاهرة المحروسة قلعة كبرى باهرة على جبل المقطم؛ عُرفت بقلعة الجبل؛ وحفرت فيها بئر عميقة هى بئر يوسف؛ لتوفير المياه لسكانها، وأشرف على المشروع كما يبيّن النقش ولىّ عهده الملك العادل سيف الدين بكر محمد(٢)؛ حيث تم بناؤها فى عهد السلطان الكامل محمدحفيد صلاح الدين، ومن وقتها أصبحت قلعة الجبل قاعدة للحكم الأيوبى فى مصر، ومن بعده الحكم المملوكى. ولدينا حجر الأساس لبناء القلعة مؤرخًا بسنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م، عند أقدم أبوابها وهو الباب المدرج (٣). كذلك أصبحت قلعة الجبل بالديار المصرية فى القاهرة مركزًا هامًا للبريد، الذى نّظم تنظيمًا دقيقًا لظروف الحرب من خيل وهجن وبغال وحمام زاجل(٤). إضافة إلى إنها أحيطت بأسوار من الحجر، بدلاً من السور القديم الذى كان قد بناه جوهر الصقلى من الطوب «اللبن»، وحصن بالأبراج والأبواب المصفحة؛ كما أقيمت الجسور على نهر النيل لتسهيل تنقلات الجند، وبنيت قلعة أخرى عليه فى المقس.

---

(١) الخطط، ٢ص ٢٠٥، ٣ص ٣٣٠ ومابعدها؛انظر. Casanova: Histoire et description de la Citadelle du Caire. M.M.A.F. tvl, p. 535 sqq.
قيل: إنه بناها خوفًا على نفسه من نور الدين. الخطط، ٣ص ٣٣٠.

(٢) أنظر. Ré pertoire, 2,p. 123 - 124.

(٣) أنظر. Corpus, p. 81, n049.: Van Barchem

(٤) صبح الأعشى، ١٤ص ٣٩٠.

أضف إلى ذلك أن الأيوبيين عملوا على تنظيم الدفاع عن ثغور مصر البحرية. فبنيت قلعة صلاح الدين على البحر الأحمر (القلزم) فى سيناء(١)، ولاتزال توجد بأطلالها للآن. وفى الإسكندرية وهى المدينة العظيمة، التى وصفها الجغرافيون المسلمون بالسعة والجلالة(٢)، وأنها مدينة ذات قوة وبأس، فقد حصنت تحصينا قويا، وبها المنارة إحدى عجائب الدنيا، وكانت بنيت على فوهة مينائها الأعظم، وفيها مواقيد تعلوها النيران، وتظهر فى مراياها صور المراكب كبيرة الحجم. ويصف الرحالة الهروى شوارعها القديمة،التى تقع تحت مستوى الأرض، وهى من العصور اليونانية والرومانية، حيث توجد فى ثلاث طبقات، وأن من كان يتمشى فيها وكأنه يتمشى فى الشوارع التى فى مستوى الأرض(٣). فأحيطت بالأسوار والخنادق، وألقيت فى مينائها عواميد رومانية(٤) لتسهيل الملاحة فيه. والواقع أن الإسكندرية حصنت من أيام حكم ابن طولون بسور ضخم فى عام ٢٥٩هـ / ٨٧٢م، وأنها كانت تطورت عمرانًا فى عهد الفاطميين؛ فاكتظت بالمنشآت. ولكن صلاح الدين هو الذى طوق مناطقها الجديدة، التى خرجت عن الأسوار الطولونية بسور آخر(٥)، ربما فى وقت وزارته للخليفة الفاطمى العاضد، ولكن بعد توليه حكم مصر؛ فإنه جدد أسوارها فى عام ٥٧٧ هـ/ ١١٨٢م(٦)، وجعلها مزدوجة، لينفتح فى سورها الأمامى باب واحد، وقد ذهب بنفسه لمشاهدته، وخيم عنده.

وفى مدخل ميناء دمياط، بنى برج السلسلة(٧)،الذى تشد بينه وبين برج آخر مقابل له سلسلة عظيمة القدر وثقيلة من الحديد؛ لمنع المراكب المعادية من دخول الميناء؛ حيث بلغت تكاليف بناء البرج وأحد الجسور ما يزيد على سبعين ألف دينار(٨)، وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت. فهذا الثغر الهام ـ دمياط(٩) ـ ويقع فى

---

(١) السلوك، ١ / ١ ص ٥١٧،
(٢) اليعقوبى، تاريخ، ص ٩٧.
(٣) الهروى، زيارات؛ انظر Répertoire, 9, p. 158.
(٤) ابن جبير، رحله، ص ٨ ـ ٩.
(٥) الروصتين، ٢ص ٤٦٨.
(٦) مفرج، ٢ص ١١٢.
(٧) الخطط، ١ص ٣٤٧س ١٦؛ انظر. الشيال، محمل تاريخ دمياط، القاهرة ١٩٤٩، ص٧
(٨) أورد ذلك الشيال، فى كتابه: الأيوبيون والمماليك، ٢ص ١٠٥
(٩) عنها: معجم البلدان، ٤ص ٨٥ وما بعدها؛ انظر. Ency of (art Damyát) 2ed, t11, P. 202.

زاوية البحر المتوسط والنيل، ويفصله شريط من الأرض عن بحيرة المنزلة؛ احتفظ بسور شديد التحصين؛ وقيل إن الملك العزيز بن صلاح الدين؛ فكر فى هدم أحد الأهرامات ونقل أحجارها إليه لتقويته؛ وإن لم تقل المصادر التاريخية إنه فعل ذلك.

فهذا الثغر الدمياطى، اعتبر أهم ثغور مصر بعد الإسكندرية فى الحركة التجارية، وميزته فى أنه لا تهب عليه نوات شديدة مثل نوات الإسكندرية، ولاتنال منه الأمواج العالية والمد والجزر. وقد اشتهر على الخصوص بتجارة الترانزيت فى التوابل، أو ماسماه العرب تجارة العبور بين الشرق والغرب. فقد كان فرع النيل الواصل إلى دمياط، وقد أخذ الأهمية محل الفرع البلوزى الذى ينتهى عند بلوزيم «Plusium» القديمة ـ وهى بلوظة ـ أو قرب الفرما ـ وهى بورسعيد ـ التى أعتبرت مدخل مصر من ناحية أسيا؛ حين كان الفرع البلوزى أخذًا فى الاضمحلال.

كذلك تأكدت أهمية دمياط فى وجود صناعات كبرى، منها على الأخص صناعة بناء السفن الحربية الكبرى، مثل: المسطحات، والشلنديات، والشوانى[١]. فكان الأسطول الذى يخرج من دمياط للجهاد، يكون له فى بلاد العدو صيت ورهبة[٢]؛ كما أصبحت دمياط مرسى للمراكب العظام، الواردة من الشام والمغرب؛ وكان يوجد بين كل ألف مركب فى مينائها ما هو ملك للتجار المصريين الكبار. إضافة إلى أن دمياط اشتهرت وقتذاك بصناعة المنسوجات فى المناسج الحكومية «الطراز»[٣]. وغير الحكومية، وتميّزت أقمشتها بصباغتها المتقنة، وبالزخرفة والرسومات، ومنها: المقصب الأبيض والملون، والثياب الشرب الرقيقة، والمخمل، والوشى، والبوقلمون، وهو قماش ملون[٤]، وغيرها. فكان انتعاش دمياط الاقتصادى التجارى والصناعى؛ سببا آخر فى انتعاش المدن الأخرى المحيطة بها مثل: تنيّس؛ على الخصوص.

---

(١) الخطط، ٣ص ٣١٣ س ٧ ـ ٨. عن هذه المراكب، انظر. النخيلى، السفن، ماجد، النظم؛ وانظر. Dozy: Suppl. I, p.652, 782, 812. ,

(٢) الخطط، ١ص ٣١٤س ١٥ ـ ١٦.

(٣) نفسه، ١ص ٣٤١ ـ ٣٤٣؛ ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١٠ ـ ٢٢١؛ Ency de l'Isl, (art Tiráz) t4, p. 825 sqq.

(٤) سفر نامه، ص٣٨؛ انظر: Dozy: Suypl, I, P. 740, 460, 693.

(٥) عنها: معجم البلدان، ٢ص ٤١٩ ومابعدها. مثل: شطا، ودبيق : الخطط، ١ص ٨٤،

فكان هدف الصليبيين بعد موت صلاح الدين ثغر دمياط هذا، من دون ثغورها الأخرى؛ باعتباره مفتاح الاستيلاء على مصر؛ حيث ذاعت نبوءة بينهم مؤداها أن أخذه يكون على أيديهم(1). حقًا إن الهدنة التى عقدت مع صلاح الدين فى ٢١ من شعبان سنة ٥٨٨هـ / سبتمبر ١١٩٢م، وكانت مدتها ثلاث سنوات وثمانية أشهر، قد انتهت فى سنه٥٩٢هـ / ١١٩٥م، إلا أنها جددت لسنة واحدة أخرى فى عهد ابنه الملك العزيز عثمان، وبعدها لم تجدد؛ مما أدى إلى دخول ملوك الأيوبيين فى مصر فى صراع جديد مع الصليبيين؛ بسبب أن الحملات الصليبية الجديدة كان قصدها مصر؛ فغزوها عدة مرات فى حملات متعددة مكثفة ومتتابعة.

* *

فقامت الحملة الصليبية الرابعة، التى أورد أخبارها مؤرخون مسلمون(2) ومؤرخون أوربيون معاصرون(3)، وكان جل المشتركين فيها من البنادقة؛ بزعامة الدوق هنرى دونادولو «Henri Donadolo» (١١٠٧ ـ ١٢٠٥م)؛ بهدف غزو مصر. ومع ذلك فإن الحملة لم تصل إليها؛ لأنها لما وصلت الى القسطنطينية عاصمة بيزنطة احتلتها، واكتفت فى حركتها الصليبية بذلك؛ وسر البابا فى روما، إنوسنت الثالث Innocent t11 (١٢٠٤م)؛ بخضوع كنيسة القسطنطينية له.

وفى الواقع، فإن البندقية وقتذاك ظهرت فيها اتجاهات الاقتصاد السياسى الحر، بحيث أصبحت على رأس الرأسمالية الأوربية الناشئة، وفضلت المكاسب المادية على الحرب، وكانت لها امتيازات «Privlegium» متعددة فى دول كثيرة بما فيها بيزنطة بالذات(4) فى عهد الإمبراطور أليكسيوس "Alexius"، وفى مملكة بيت المقدس "Jerosolimtanum" فى عهد ملكها بلدوين "Baldwinum"(5)، وفى مملكة أرمينية "Regem Armenorum" فى وقت ملكها هاتون "Heton"، وفى مملكة النورمان بصقليّة. فى عهدى غليام "Guilielmi"، وفردريك الثانى "Fredrico Secundo"، اللذان منحاها لدوق البندقية "Ducis Venecie"، المسمى يعقوب "Jacobi Theupulo"(6). والواقع أنه وجد اعتقاد فى البندقية أن من يسيطر على القسطنطينية يتحكم فى المال.

(١) أنظر: Meyer: Prise de Damiette. Paris, 1877, 510 Sqq.

(٢) من كتبهم: مفرج الكروب، ٣ص ٢٧٠ ومابعدها؛ الخطط، ١ص ٣٤٨ ومابعدها، صبح الأعشى، ٥ص ٤٠١ ـ ٤٠٢؛ العبر، ٥ص ٢٠٩ ـ ٢١٠؛ انظر. ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب، ط. بيروت، ص١٨٧ ومابعدها.

(٣) مثل: الفرنسى روبرت كلارى "Clari"، واليونانى نيستاس "Nicetas".

(٤) أرشيف البندقية: Libri Albus, p. 17.

(٥) أنظر. Ibid. p. 228

(٦) أنظر. ; Ibid,Lxl'p, 286, Libri Blancos,Lvlll, P. 267.

وكان العادل [الأول]، سلطان مصر والشام الأيوبى، وهو أخو صلاح الدين؛ يدرك أهمية التجارة فى سياسة جمهورية البندقية؛ وبخاصة أنه كان عقد معها اتفاقية تجارية فى ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م؛ حيث كان يوجد فى مصر عدد كبير من التجار البنادقة[١]؛ فأسرع بعقد هدنة معها فى ٦٠٧هـ / ١٢١٠م، كنوع من الإغراء المادى حتى لاتتحول الحملة الصليبية إلى مصر، ولاسيما أن العادل كان هو الذى تفاوض مع الصليبيين من قبل، وعقدت على يده أول هدنة بين ملوك أوربا وصلاح الدين.

* *

ومع ذلك، فإن أوربا لم تقبل ذلك، وقامت حملة جديدة من آلاف الأطفال فى ٦٠٩هـ / ١٢١٢م[٢]؛ لإثارة نخوة الرجال، وركبوا المراكب فى البحر، ولكن غرق معظمهم أو اختطفهم القراصنة. وقد مهدّت هذه الحملة للحملة الصليبية الخامسة، التى دعا لها البابا هونوريوس الثالث «Honorius III» (١٢١٦ - ١٢٢٧م)[٣]، وكان جل المشتركين فيها من الفرنسيين والطليان؛ بزعامة حنّا دى بريين "Jean de Brienne" (١١٤٨ - ١٢٣٧م)، الذى تزوج من ماريا "Maria" ابنة عمورى الثانى "Amauri II"، أى من السلالة الملكية اللاتينية فى عكة(٤)، وكانت أهم معاقل الصليبيين فى الشرق، منذ استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس؛ وأصبحت لها قداسة بيت المقدس نفسه، فعرفت لهم باسم "Saint - Jean d'Acre"؛ لأن فرسان سان جون "St John"، الذين كانوا فى بيت المقدس وبنوا فيها كنيسة كبيرة. فأصبح لحنا دى بريين بالزواج من ماريا حق المحاربة من أجل عرش بيت المقدس انتقلوا إليهه، وكان شيخًا قد ناهز الستين.

وصلت الحملة الى شواطئ دمياط فى ٢٩ من صفر سنة ٦١٥هـ / ٣١ مايو ١٢١٨م، ونزلت فى البر الغربى تجاهه فى مكان اسمه جيزة دمياط، وحصنوا أنفسهم فيه، وهو فى الناحية اليمنى من النيل وخلفهم البحر؛ إذ لم يكن من السهل اقتحام الميناء لوجود برج السلسلة الغليظ. وكان السلطان العادل وقتئذ فى دمشق، وابنه الأكبر الأمير الكامل نائبًا عنه فى مصر. فأراد العادل أن يغرى

---

(١) أنظر. البار، الايوبيون فى مصر، ص ١١٣
(٢) أنظر. Muir: The Last Crusade, London.؛ بتفصيل وهوامش: ماجد، العلاقات، ص١٩٠.
(٣) أنظر. Ency Italiana,xv, p. 843 sqq؛ وبتفصيل: ماجد، العلاقات، ص ١٨٩ ومابعدها.
(٤) أنظر. Ency of Isl, (art Akka) 2 ed, tI, p.340

صليبى الحملة بأن يرد لهم بيت المقدس، وماكان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل، وتسليمهم صليب الصلبوت المقدس، الذى كان مرفوعًا على كنيسة القيامة فى وقتهم؛ على أن يتركوا دمياط. ولكن حنّا دى بريين رفض هذا العرض السخى بتحريض من البابا، وقام بهجوم ناجح فى آخر يوليو تمكن به من الاستيلاء على حصن البرج فى ٢٥ أغسطس، بعد مقاومة استمرت أربعة أشهر. وكان العادل طلب من الصوفى الأندلسى الكبير الشيخ أبى العباس المرسى(١) ـ الذى عرف بالراس ـ بالدعاء له وبالنصرة على العدو، وهو الذى دفن بالإسكندرية، وأصبح من معالمها. ولما سمع العادل بسقوط البرج توفى فى جمادى الآخرة فى سنة ٦١٥ هـ / ٣١ أغسطس ١٢١٨م.

وقد حاصر حنّا المدينة من كل ناحية، وأخذ فى ضربها بالعرادات ـ وهى منجنيقات قوية ـ صبت عليها النار والحجارة، وكان الصليبيون يرمون إلى المحاصرين برءوس قتلاهم من أعلى أسوار المدينة. وعلى الرغم من قلة الأقوات، وانتشار الأوبئة بين المحاصرين، فإن المدينة استمرت تقاوم الغزاة حوالى السنة وستة أشهر إلى أن سقطت فى أيديهم فى شعبان ٦١٦هـ / نوفمبر ١٢١٩م؛ فقتل الصليبيون كل من وجدوه من أهلها؛ كما فعلوا فى بيت المقدس من قبل، وفجروا فى نسائها فى الجامع.

عندئذ أعلن الملك الكامل محمد(٢)، الذى تسلطن فى مصر بعد أبيه العادل [الأول] النفير العامة(٣)، وهى التعبئة العامة للمصريين، الذين جاءوه من كل مكان، من القاهرة ومصر وسائر النواحى بين أسوان والقاهرة. فعسكر الجميع فى قرية جنوب دمياط، سموها المنصورة؛ لما يتفاءل بها من الانتصار عدوهم، واستعدوا لحرب طويلة الأمد، فبنيت فيها الدور والأسواق، كما وصلت للملك الكامل نجدة من ملوك الأيوبيين فى بلاد الشام والجزيرة، حيث يذكر المقريزى أن المصريين كانوا يقاتلون بشجاعة أكثر من العساكر الكردية.

---

(١) تعلم المرسى على ستمائه شيخ. انظر. صفى الدين بن أبى المنصور (٥٩٥ ـ ٦٨٢هـ/ ١١٩٨ ـ ١٢٨٣م) وهو مصرى، تحقيق Denis Gril ، فى منشورات المعهد الفرنسى بالقاهرة ١٩٦٨، ص ٢٠.

(٢) بتفصيل: Gotschalk: Al - Melik al - Kámil. Wiesbaden, 1958; Ency of Isl, (art: al,Kâmil) 2ed, t III, p. 520 - 21.

(٣) الخطط، ١ص ٣٥١س ٢٤ ـ ٢٦.

فلما أراد الصليبيون السير إلى القاهرة؛ بعد أن وصلتهم الإمدادات، فإن المصريين قطعوا السدود، وأغرقوا الأرض أمام زحفهم؛ بحيث وجد الصليبيون أنفسهم محاصرين بالماء، والمصريون حولهم من كل جانب. فعمد الصليبيون إلى الخروج من هذا المأزق، وقد انتشرت بينهم الأوبئة، فتقهقروا إلى دمياط، بعد أن خربّوا المعسكر الذى أقاموه، وطلبوا وقف القتال والصلح. فوافق الملك الكامل على ذلك؛ ولأنه قامت ضده مؤامرة من قبل أحد قواده الكبار، وهو أحمد ابن المشطوب[1]، وكان أبوه دافع عن عكة فى أيام جده صلاح الدين. فعقدت الهدنة بين حنّا دى برين والكامل لمدة ثمانى سنين، فى ٧ من رجب سنة ٦١٨هـ / أغسطس ١٢٢١م[2]؛ وأخذت رهائن من قادة الصليبيين إلى أن تم جلاؤهم عن دمياط فى ١٩ من رجب من العام نفسه / ٨ سبتمبر ١٢٢١م.

وقد أظهر الملك الكامل تسامحًا إسلاميًّا مع أعدائه؛ حينما سمح للكاهن الإيطالى المشهور فرانشسيسكو داسيسى "Francisco Dássisi"[3] - فرانسوا - مؤسس طائفة الفرنشسكان "Franciscans"، أو الأخوة الفقراء؛ وكان يشارك فى حملة دى برين؛ بالمجىء إلى القاهرة والوعظ فيها، وزيارة بيت المقدس؛ إذ لم يكن مثل بقية الصليبيين يحقد على المسلمين، ويطلق عليهم أخوته.

وقد استمع الملك الكامل لموعظة فرانشيسكو بشغف، وكان مثل بقية ملوك الأيوبيين منذ صلاح الدين يميل إلى المتصوفة؛ حيث وجد فى عهده أشهر المتصوفة، وبخاصة: ابن الفارض(ت٦٣٢هـ / ١٢٣٤م)، الذى تزهد وعاش فى خرابات الفسطاط، وكان الكامل يزوره[4] فيها، والشاذلى الذى كان جاء بصحبة المرسى أبى العباس وزار السلطان الكامل فى القلعة. فحاول الكامل أن يغرى فرانشسكو بالمال والهدايا ولكنه رفضهما، ورد على الكامل بقوله: إذا تنصر - أى الكامل - هو وشعبه؛ فلأجل حبه - أى حب المسيح - يبقى فى مصر، وعرض عليه أن يقوم أمامه بالمباهلة - وتشبه البشعة - بأن يدخل فى نار مشتعلة؛ فإذا خرج منها سليمًا،

---

(١) انظر: Meyer: Op. Cit, p. 517.

(٢) الخطط، ١ص ٣٥٣ س ١٣.

(٣) انظر. Giuilio Bassictti: Mohammed etSaint François. Ottowa, 1959, p. 37 sqq:

(٤) النجوم، ٦ص ٢٨٨ - ٢٩٠، وقبله.

تحول الكامل وشعبه إلى المسيحية؛ أما إذا احترق فإن ذلك بسبب خطاياه، ولكن الكامل رأفة به رفض العرض، الذى كان يعرف نتيجته.

وبعدها انسحب حنّا وعسكره إلى عكّة التى جاء منها، دون أن يحققوا هدفهم فى الاستيلاء على مصر. وبعد انسحابهم إلى عكّه، وصلت لهم نجدة فى ألف مركب، فلما علمت بعقد الهدنة مع الكامل رحلت، ولولا حدوث الصلح لكان حدث مالم يكن فى الحسبان؛ بسبب وصول هذه الإمدادات الجديدة، على حسب ملاحظة المؤرخين المسلمين.

* *

والظاهر أن الفشل الذى لاحق الحملة الصليبية الخامسة أوجد تغييراً مؤقتًا فى اتجاه الحملة الصليبية السادسة، التى نزلت فى عكة من أهم قواعد الفرنجة فى فلسطين؛ بزعامة فردريك الثانى "Frederick II" - فردريش - ، وكان وريثًا لعرش ألمانيا[1]، ولعرش النورمان فى صقليّة، التى كانت من قبل فى يد الأغالبة ومن بعدهم فى يد الفاطميين، ثم استولى عليها النورمان، ولزواجه من إيزابيلا[2] "Isabella"؛ ابنة جان دى برين، ملك الدولة اللاتينية فى عكة وقُبرس؛ مما جعل لفردريك الحق فى المطالبة ببيت المقدس، وقد عُرف فردريك للعرب بملك الألمان، الملقّب بالأنبرور[3] - أى الإمبراطور - أو بملك الفرنج الألمانية.

ولدينا وصف لحملة فردريك الثانى، من مؤرخ ألمانى معاصر[4]، وهو كانتور فيتز Cantorwitz، بالإضافة إلى ماورد عنها فى كتب المؤرخين المسلمين. وفى الواقع لم يكن قصد فردريك الثانى حرب المسلمين، وإنما التفاوض معهم. فلعل ظهور هذه الروح الجديدة عند الفرنج راجع بالأولى إلى شخصيته؛ نتيجة لإقامته فى صقليّة، ملتقى الحضارة العربية فى أوربا. فكان يوجد فى بلاط النورمان فى صقّلية، نخبة من علماء المسلمين الكبار كالجغرافى المشهور الإدريسى، الذى رسم ثمانى وثمانين خريطة، وفى بعضها رسم ثمانى وثمانين خريطة، وفى بعضها رسم أجزاء من أوربا. أما عن فرديك الثانى، فكان قد تعلم العربية؛ حتى

(١) أنظر . Bichringer: Kaiser Friedrich II. Berlin, 1912:
ماجد، العلاقات، ص ١٩٣ ومابعدها؛ Atiya: The Crusade, In the Later Middle Ages, p. 88 - 89.

(٢) تزوجت من ثلاثة أزواج.

(٣) الكامل، ٩ص ٣٧٦، ٣٧٨.

أنه تراسل مع الفيلسوف العربى ابن سبعين؛ وتوجد لدينا مراسلاتهما، كما كان معجبًا غاية الإعجاب بالفيلسوف ابن رشد، الذى اشتهر فى وقته فى العالم المتنور؛ إذ كان يؤمن بوحدة الوجود والعقائد؛ حتى أن النحات الإيطالى المعروف ميكلا نجو (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤م) رسمه فى لوحته المسماة مدرسة أثينا، ووضعه فيها مع زرادشت نبى الفرس، وعرف للأوربيين باسم "Averroés"؛ فقد تأثر فردريك بأفكاره الرشيدية فى كتابه: فصل المقال بين الحكمة والشريعة من الاتصال، حيث ذاعت لابن رشد بين الأوربيين شروحه الفلسفية فى ترجمات لاتينية وعبرية، بقرار سياسى منه، حيث كان فردريك نفسه يقف فى مواجهة النظام الإقطاعى المتحالف مع الكنيسة. ولا غرو فقد أصبح القرآن المجيد معروفًا للأوربيين منذ أن ترجم إلى اللاتينية فى عام ١١٤٤م / ٥٣٩هـ؛ وإن ظلت ترجمته حبيسة خمسة قرون، إلى أن ترجم من جديد فى عام ١٥٤٣م (٩٥٠هـ).

وبالفعل دخل فردريك الثانى فى مفاوضات مع الملك الكامل، عن طريق الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وهو من الأسرة الأيوبية ،وأخ للكامل بالرضاعة. فعقدت بينهما هدنة مدتها عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يومًا فى ربيع الآخر ٦٢٦هـ / ١١ فبراير ١٢٢٩م، وبمقتضاها يأخذ الفرنجة القدس، دون قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ولاتكون لهم حامية فيها، كما يأخذون بيت لحم المجاور للقدس، وطريقًا للحجاج النصارى يصل بين القدس وبين عكة على الساحل؛ كما يأخذون بعض مدن أخرى من الساحل، كان صلاح الدين استولى عليها منهم.

ولعل الملك الكامل قد قبل الهدنة لأنه أراد أن يحبب المسلمين فى مصر أو فى فلسطين فى السلام، على أساس أن الحرب ليست هدفًا؛ كما أنه قد يكون قبلها بسبب أنه دخل فى منازعات أسرية، شأن ملوك الأسرة الأيوبية فى التنازع فيما بينهم؛ حيث استمر التنازع من أول قيام دولتهم إلى وقت سقوطها. كذلك قد يرجع سعى الكامل للمصالحة مع فردريك، لأنه كان هو الآخر مثل فردريك رجلاً مثقفًا، ويحس بإحساس العصر، وأن هويته قد أصبحت مصرية وحضارية، حتى أنه رغب فى أن يؤلف له كتاب عن الأهرامات والصنم المسمى أبى الهول؛ فألفه له جمال الدين الإدريسى فى حوالى ٦٢٣هـ / ١٢٢٧م بعنوان: أنوار علو الإجرام فى الكشف عن أسرار الأهرام[١].

(١) توجد نسخة منه فى B.N، برقم 2274.

يضاف إلى ذلك أن أوربا نفسها، وفرنسا بالذات، وكانت أكثر الدول الأوربية حماسًا للحروب الصليبية، قد بدأت هى الأخرى تعيد حساباتها لهذه الحروب المدمرة، التى لا تليق بإنسانية الإنسان؛ بحيث ظهرت فى جنوبها جماعات عُرفت بالألبيجوا "Albigeois" أو الكاثارى "Cathares"، بمعنى الأطهار، وكانوا ضد هذه الحروب، ووهبوا أنفسهم لله، حتى أن البابا أنسونت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) حاربهم بحماس مثلما كان يحض على حرب المسلمين، بحرب صليبية حقيقية وهزمهم فى معركتى تُولوز وكَركسون فى عام ١٢١٣م، وقتل منهم عشرين ألفًا. فلعل عقيدة هذه الجماعات، التى كرهت العنف فى حرب المسلمين قد تأثرت بروح الإسلام، حتى أنها خرجت على عقيدتها الكاثوليكية، وكانت لاترى أن المسيح هو الله، وتسخر من الصليب، وقالوا إن البابوات حلفاء الأباطرة، وأنهم زمرة شياطين، وليسوا خلفاء لبطرس الرسولى.

فهذه الهدنة جعلت فردريك الثانى والكامل مثالين يحتذيان وقتذاك فى تنظيم علاقات جديدة بين الشرق والغرب. ومع أن الفيلسوف الألمانى نيتشه وصف فردريك بأنه أول زعيم أوربى يستحق الإعجاب؛ ودانتى قبله وصفه بالرجل العالم، أما المعجبون بأفكاره السلامية فسموه أعجوبة الدنيا "Stupar Mundi"، إلا أن البابا جريجورى التاسع Gregory (١٢٢٧ - ١٢٤١م)، الذى تولى البابوية بعد هونوريوس الثالث Honorius (١٢١٦ - ١٢٢٧م)، لم يرض عن أفكاره، فحرمه وسماه تابع محمد[1]، كما أن شعبى الكامل وفردريك رميا هما بالكفر.

* *

ولكن أغلب أهل أوربا كانوا على خلاف فردريك الثانى، يمقتون المسلمين مقتًا شديدًا؛ ويقدرون أن شوكة الإسلام لا تكسر إلا باحتلال مصر. وعلى الرغم من أن معاهدة فردريك مع الكامل جعلت أوربا تملك بيت المقدس لمدة خمس عشرة سنة (١٢٢٩ - ١٢٤٤م) ؛ فقد قامت بالحملة الصليبية السابعة، وكان معظمها من الفرنسيين، وتزعمها ملك فرنسا لوى[2] "Roy Louis"، الذى سماه العرب لويس بن لويس، أوريد أفرانس، أى ملك فرنسا "Roi de France"، وكانت بصحبته الملكة زوجته مارجريت "Marguerite"، وأخوته الثلاثة، وعدد

(١) انظر. Balzoni: The Popes and The Hohenstaufen. London, 1888.
(٢) صبح الأعشى، ٨ص ٣٤

كبير من الأمــراء والنبلاء الفرنسيين، حيث كــان مؤرخو مصر يعتبـرون فرنسا هى أصل مملكة الفـرنجة فى أوربا، والمحـرك الأول للحروب الصليـبية؛ بحـيث أطلق المؤرخون العـرب لفظة: الفرنجة، على عـموم أهل أوربا. وقد قام البـابا أنسونت الرابع "InnocentIV" بالدعوة لهـا فى مجمع عـقد فى مـدينة ليون سنة ١٢٤٥م (٦٤٣هـ). وكان من المفروض أن يشترك فيهـا فردريك الثانى أيضًا؛ إلا أنه اعتذر المرة تلو المرة[١]، وقيل إنه هو الذى أخبر السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، عن طريق رسـول من قبله بعـزم ملك فرنسـا على المسـير إلى مـصر وأخذها، وربما فعل ذلك أيضًا لحبه للسلم؛ كما ذكرنا.

ولدينا وصف مسهب عن الحملة الصليبية السابـعة؛ فيما كتبه عدد لابأس به من المؤرخين المعاصرين، وخصوصًا من قبل مؤرخ فرنسى وهو الفارس جوانفيل[٢] "Joinville"، الذى صحب الحملة وأرخ لهـا. فقد ترك ملك فرنسا شـئون دولته فى يد أمه بلانش القشـتالية "Blanche de Castille"، فى ١٢٤٨م (٦٤٦هـ) وذهب على رأس حملته الكبيرة الى الشرق مـارا بقبرس، التى كانت تحكمها أسرة فرنسية وقتذاك؛ حيـث شتى هناك. وقد لاحظ المؤرخ ابن فضل الله العمرى، أن عـساكـر الملك الفرنسى فى البـر أطول منهـا فى البحـر، وأنه ليس له أسطول أو مراكب، فحملتهم سفن الجونيين والبزيين من جمهوريات مدن إيطاليا[٣]؛ فأجرت له جنوة عشر سـفن بين كبيرة وصـغيرة[٤]، وبالمقابل عقـدت معه اتفاقـية تجارية بذلك. على كل حال أبحر لويس فى ١٧٠٠ مـركب؛ وإن غرق أغلبها ولم يصل منها إلى دمياط إلا ٧٠٠ مركب فقط. وقبل أن يهاجم دمياط، كتب إلى السلطان الأيوبى فى مصر يقول[٥]: إنه يسوق المسلمـين فى الأندلس سوق البقـر، ويقتل

---

(١) الخطط، ١ص ٣٥٣.

(٢) انظر. Joinville: Histoire de Saint Louis. Texte Original du xivè siècle, accompagné, d, une traduction en Francais moderne, par Wailly. Paris, 1874.

وتحقيق من Amari، فى Roma. و ترجمة وتعليق من حسن حبشى بعنوان: جوا نفـيل: القديس لويس، حياته وحمـلاته على مصر والشام، القاهرة ١٩٦٨. و عن الحملة؛ انظر. مـصادر أخرى، مثل: ابن واصل، وابن العبـرى، والمقريزى، وابن خلدون، وابن فضل الله، وايـضًا، انظر جوزيف نسـيم، لويس التاسع فى الشرق الأوسط، وزيادة: حملة لويس التاسع على مصر.

(٣) أنظر. جوزيف، علاقـات مصر بالممالك التـجارية الإيطالية؛ بحث مسـتخرج ١٩٧١، ص ٧٣ وهامش ٥١.

(٤) انظر. Les Archives deL' Orient Latin. Paris, 1884, 232 - 6.

(٥) صبح الأعشى، ٨ ص ٣٦ ـ ٣٨؛ السلوك، ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

الرجال، ويرمل النساء، ويستأسر البنات والصبيان، وإن عدد عساكره كعدد الحصى، ويدعوه إلى الخضوع له، على أن يبقى للمسلمين على مساجدهم فى القدس، ويقبل منه دفع الجزية. ومع أن عرضه لقى قبولا من القبط فى مصر؛ إلا أن المسلمين رفضوه، ورد عليه السلطان مهدداً إياه بالفناء، وواصفًا إياه بالغرور، ومذكرًا إياه بهزائم الفرنسيين السابقة. ولكن الملك الفرنسى كان مصممًا على غزو مصر، وأخذ يحرض ملوك أسبانيا النصرانية بالاشتراك معه فى حملته عليها.

وقد استطاعت الحملة الفرنسية الدخول إلى دمياط بعد استيلائها على حصن البرج الحصين فى ٧ بقين من صفر ٦٤٧هـ / ٥ يونية ١٢٤٩م، وكانت فيها حامية أغلبها من عرب قبيلة كنانة، وفى القيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ، الذى اشترك من قبل فى صد حملة جنّا دى بريين الصليبية السابقة. وعلى الرغم من أن المدينة كانت مشحونة بالأزواد والأقوات والذخائر والأسلحة العظيمة والأموال؛ خوفًا عليها من أن يصيبها ما أصابها فى أيام الكامل؛ إلا أن معظم حاميتها العرب هربت جبنًا، ولم تقم بأية مقاومة تذكر. ويُذكر أن الملك لويس لما دخل دمياط حول مسجدها إلى كتدرائية سماها نوتردام Notre - Dame؛ على اسم كنيسة نوتردام فى باريس.

فى الوقت نفسه، دُعى المصريون بالنفير العام؛ حيث يقول النص التاريخى إنه خرج عالم عظيم من البلاد لجهاد الفرنج؛ فجاءوها من كل مكان نحو المنصورة، وكانت معسكرًا لهم منذ حملة جنّا دى بريين السابقة، وهرب أهل دمياط إليها ومعهم العسكر الفارون، وكان قد جدد سورها وحصنه بالأبراج، وحفرت فيها الخنادق، وجددت مبانيها بما فيها قصر السلطان. فلما حضر السلطان نجم الدين من دمشق محمولا على محفة لمرضه، وكانت تؤلمه قرحة فى مأبضه وهو باطن ركبته؛ تعوقه عن ركوب فرسه، وحصل له منها ناصور وقرحة فى الصدر(1) أيضًا، وكان طبيبه الصيدلانى المشهور ابن البيطار (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) وغيره؛ فكانوا يعالجونه بالأعشاب. فعاقب السلطان رؤساء عسكر حامية دمياط، وشنق من قوادهم ما يزيد على خمسين أميرًا؛ بفتوى من الفقهاء(2)، ووبخ قائد الحامية فخر الدين؛ وهو من الأسرة الأيوبية.

---

(١) الخطط، ١ص ٣٥٥س ٢١؛ السلوك، ١ / ٢ ص ٣٣٦.

(٢) النجوم، ٦ص ٢٢٠؛ انظر. البار، مصر فى عهد الأيوبيين، ١٩٦١، ص ١٤٢.

وما لبث أن مات السلطان فى قصره بالمنصورة، وهو يترقب هجومهم، فى منتصف شعبان سنة ٥٦٤٧هـ / ٢٣ نوفمبر ١٢٤٩م. فحمل جسده بعد تحنيطه فى مركب إلى القلعة بالروضة، ودفن فى قبر خاص بنى بجوار مدرسته فى القاهرة؛ بنته له زوجته شجر الدر أو شجرة الدرحيث استخدمت الفسيفساء لأول مرة فى زينة قبة[١] المحراب فى المسجد. وقد كانت شجرة الدر؛ امرأة ثقة، يشاورها السلطان فى كل أموره، بما فيها العمل السياسى، ويتركها لتحكم باسمه فى القاهرة فى أثناء غيابه. فأحضرت وهى بالمنصورة الأمراء المماليك، الذين أصبحوا قواد الجيش الأيوبى فى أغلبهم، من معسكرهم فى الجبهة، وجعلتهم يحلفون على أن يكون توران شاه ولىّ العهد سلطانًا بعد نجم الدين، وأن يكون الأمير فخر الدين قائد الجيش أتابكًا فى تدبير شئون المملكة إلى أن يحضر توران شاه من بلاد الجزيرة، وكان أبوه تركه ليحكم فيها، فقالوا لها: سمعًا وطاعة[٢]، ظنًا منهم أنها أوامر السلطان نفسه. كذلك تكتمت موت السلطان، خوفًا من أن الفرنجة يطمعون فى البلاد، وذلك بالاتفاق مع فخر الدين قائد الجيش؛ فكان إذا سأل سائل عن السلطان ردت بأنه مريض، ما يصل إليه أحد[٣]. ويبدو أن السلطان نفسه، كان قد أحس بقرب منيته؛ فوقع على عشرة آلاف علامة[٤]، ليستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته، فاستمرت المراسيم تخرج حاملة علامة السلطان.

ولما علم الصليبيون بموت السلطان؛ عقدوا مجلسًا من البارونات للاستفادة من هذه الظروف المواتية، فاقترح بعضهم بمهاجمة الإسكندرية، والاستيلاء على شواطئ مصر كلها. ولكن أخو الملك وهو الكونت روبير أرتوا «Robert, Comte d,Artoi»، وكان متحمسًا فى قتال المصريين، فإنه حرض بالهجوم على مدينة المنصورة، والانتشار فى الدلتا والسير على القاهرة، أما المصريون الذين جعلوا خط دفاعهم الأول فى أشموم طَناح[٥]، وهى قرب دمياط؛ فإنهم قطعوا البدود؛ بحيث وجد الفرنسيون أنفسهم محاصرين بالماء. وقد لاحظ المؤرخ ابن إياس أن المصريين كانوا يقاتلون أكثر مما كان يقاتل جيش السلطان[٦]. ولاشك أن الفلاحين المصريين يكونون دائمًا جندًا مجيدين؛ إذا ما دربوا على القتال؛ حيث وصف

---

(١) أنظر: Doris Abousif: The Qubba, Ann Lslamo Txix, 1985.

(٢) السلوك، ١ / ٢ص ٣٢٣..

(٣) نفسه، ١ / ٢ص ٣٤٦؛ الخطط، ١ ص ٣٥٨.

(٤) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٣٩. قيل كانت بخط خادمه المسمى سهيل، ولا يشك من رآها أنها ختم السلطان. نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤٤.

(٥) عنها: معجم البلدان، ١ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٦) بدائع، ١ ص ٨٤؛ ٨٦.

الرسول المصريين بأنهم خير أجناد الأرض. فكانوا يتحايلون فى خطف الفرنج؛ حتى أن شخصًا أخذ بطيخة، وأدخل رأسه فيها؛ وغطس فى الماء الى أن قرب من الفرنج؛ فظنه واحد منهم أنها بطيخة، فنزل ليأخذها فاختطف[(١)]، أما العوام فكانوا يقاتلونهم بأى شىء، ويمطرونهم بوابل من الحجارة والطوب. كذلك كان المصريون يحرقون معابرهم، التى أقيمت على الترع والقنوات، بل صنعوا مراكب لتدمير مراكب الفرنجة؛ فكانت مراكب المصريين تحمّل على الجمال. ولما وصلت مراكب فيها ذخيرة للفرنجة؛ تمكنت شوانى المصريين من أخذ اثنين وثلاثين مركبًا، منها تسع شوانى[(٢)]. كذلك كان يذهب الى الجبهة بعض رجال الدين من العلماء والمتصوفة من القاهرة للشد من أزر مقاومة المصريين، ويسيرون بين الجند المسلمين ويشجعونهم بالوعظ فيهم، ومن بينهم الفقيه المشهور عز الدين بن عبد السلام[(٣)]، المعروف بصراحته المطلقة مع الحكام ولايتردد فى نقدهم، والصوفى الكبير أحمد الشاذلى.

ولما قتل قائد الجيش فخر الدين بن شيخ الشيوخ فى أثناء قتاله للفرنجة؛ فإن شجرة الدر كلفت القيادة فى الجيش الى أبرز مماليك السلطان وهو بيبرس[(٤)]، الذى اسمه يعنى الفهد، وكان قد اشتهر بالجرأة فى القتال والذكاء. وفى الوقت ذاته أرسلت شجرة الدر من يستدعى توران شاه، ابن الملك الصالح، وولىّ عهده من بلاد الجزيرة. ولما وصل توران شاه إلى مصر بعد رحلة طويلة، بدأت من حصن كيفا - بلدة فى بلاد الجزيرة على نهر دجلة - مارا بدمشق وغزة، حتى وصل إلى ميدان المعركة مباشرة، دون أن يمر بالقاهرة، فأبدى اقتراحات جديدة فى حرب الصليبيين، وقام على رأس المصريين بهجوم مفاجئ بدأ من فَارسكور، وتقع بين دمياط والمنصورة على الشط الأيمن للنهر، فى المحرم ٦٤٨هـ / أبريل م١٢٥٠؛ مما أدى إلى هزيمة الفرنسيين هزيمة ساحقة، اشتهرت بموقعة الإبادة، حيث كان معظم القتلى فيها من الفرنسيين.

ويبدو أن المصريين استخدموا النار الإغريقية بشكل مكثف لم يُعرف له مثيل؛ حتى أن المؤرخ الفرنسى جوانفيل «Joinville»، الذى صاحب الحملة، يذكر أن الكرات النارية تساقطت عليهم؛ ولم يكن لهم عهد بمثلها من قبل[(١)].

---

(١) السلوك، ١ / ٢ص ٣٤٨.
(٢) نفسه، ١ / ٢ص ٣٥١،٣٥٤
(٣) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٥٤.
(٤) صبح الأعشى، ٢ص ١٤٥، ٥ ص ٤٥٨؛ السلوك ١ / ٢ص ٤٣٦؛ انظر. جمال سرور، بيبرس، القاهرة ١٩٣٨، ص ٢٩، Ency of Isl., (art Baybars) 2ed, tl,p 1124 sqq.

وفى رأينا أن البـارود الذى استـخدم فى مـوقعـة عين جالوت، وأدى إلى سـحق المغول، كان السبب فى هزيمة الفرنسيين أيضًا فى فارسكور؛ إذ كان المصريون على معرفـة تامة به، وبآلاته من القنبلة والمدَفع والمِدفع أو المكحل أوالمكُحلة والبنـدقية؛ حيث تذكر النصوص التاريخية[2]؛ أنه كانت توجـد للمدافع مسـابك فى القاهرة بجوار القلعـة. كذلك اشتـهر بيبـرس قائد الجيش بالتـريض برمى البندق، ولعل تسميته بالبندقدارى بسبب ذلك؛ أى أنه كان يجيـد استخدام البندقية كما يذكر ابن إياس أن من كـان يرمى بالبـارود هـم أولاد الناس أى من المصـريين؛ وذلك لأن المماليك كانوا من الفرسان؛ ولايستعملون إلا السيف أو مافى نوعه رمزًا للرجولة.

ولما هرب الفـرنسيـون إلى المنصورة، دارت فـيها حـرب الشوارع بالـسلاح الأبيض. فكان تدفقهم إليها أن أوقع خسائر فـادحة بهم؛ فقتل من الصليبيين عدد كبير، إذ قتل عشرة آلاف فى قول المقل، وثلاثين ألفا فى قول المكثر[3]، من بينهم فرسان كبار، مثل الكونت أرتوا أخى الملك، الذى قتله الأمير بيبرس بيده؛ كما أن الأديب سعيد العريان[4] يذكر فى كتابه عن شجرة الدر: لايزال الفلاحون إلى الآن يعثرون على أشلاء القتلى الفرنسيين؛ وهى جماجم، حين يحفرون الأرض؛ بينما يذكر المؤرخون المسلمون أنه لم يستشهد فى قـتال الفرنسيين من المصريين غير نحو مائة رجل فقط[5].

---

(١) أنظر. Joinville: Op. Cit,p. 46, 52; Reinaud: Feu Grégeais Paris 1845, p. 53 sqq.

(٢) تخـصص حسن الرمـاح المعروف بالأحـدب (ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥م) ،فى التأليف الحـربى فى كتـابه: الفروسيـة والمناصب الحربية، وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N) فى Paris برقم 2825، ويوجد منه ميكروفيلم بمعـهد المخطوطات بجامعة الدول العـربية، برقم ٣٨ فروسية، كـماظهر له تحقيق من عـيد ضيف العبادى، فى بغداد ١٩٨٤. كذلك أكد العميد محمود نديم فهيم؛ فى كتابه: الفن الحربى فى عصر المماليك؛ القاهرة ١٩٨٣؛ على استخدام البـارود فى فارسكور، وهى رسالته للماجستيـر (بإشرافى). ولدينا أيضا كتاب لابن البقـال البغـدادى (ت ٥٨٥هـ / ١١٩٤م)، بعنوان: المقترح فـى المصطلح، فى تعلم رمى البندق، وهو محطوط بالمكتبة الأهلية بباريس (B.N)، برقم 4639. وانظر. Ayalon: Gunpowder and Firearms, in the Mamluke Kingdom .London, 1926, p. 12 - 13.

وماجد، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، (بتفصيل) ص ١٧٥ وما بعدها.

(٣) السلوك، ١ / ٢ص ٣٥٥، ٣٥٦؛ صبح الأعشى، ٨ص ٣٨٠.

(٤) أنظر. سعيد العريان، شجرة الدر، ص ١٢٥.

(٥) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٥٦ س ١، ٢.

كذلك أسر عدد كبير من الفرسان الفرنسيين ورجالتهم، بلغ أكثر من مائة ألف، بمن فيهم الملك الفرنسى نفسه؛ حيث تمكن مماليك السلطان، الذين أطلق عليهم جوانفيل «Halequa»[1]؛ لأن أساس عملهم كما ذكرنا الإحاطة كالحلقة بالسلطان لحمايته. فقد أسر الملك الفرنسى فى إحدى طرقات المنصورة، وأسر معه أخواه كونت أنجو «Anjou» - سماه العرب الكند - والكونت ألفونس «Alphonse»[2]، وعشرات من النبلاء والبارونات، والفرسان الفرنسيين، حيث كان لويس يحرص على تربية خلصائه تربية نصرانية[3]. فحمل الملك فى قيد من الحديد، وأخذ معطفه - عقارة - وهو قرمزى اللون، وبفرو سنجاب، وبه مشابك، وسيفه، وسيف أخيه أرتوا «Artoi»، الذى قتله بيبرس بيده كما ذكرنا. فسلم الملك للطواشى صبيح المعظمى، وحبس فى دار فخر الدين بن لقمان[4]، صاحب ديوان الإنشاء، وسارت البشائر إلى كل مكان، بهذا الانتصار العظيم على أجنحة الحمام[5]؛ حيث لدينا منها نص، أورده المؤرخ سبط بن الجوزى، وقصائد عديدة منها قصيدة للشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح[6]؛ ألقيت بين يدى شجرة الدر، التى لم تبرح مكانها قبل انتهاء المعركة، ورد فيها:

وكل أصحابك أودعتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير أو جريح
ألهمك الله إلى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باقٍ والطواشى صبيح

---

(١) أنظر. Wiet: Grandeur p. 252; Joinville, p. Lxix.
(٢) أنظر. Joinville, p50؛ السلوك، ١ / ٢ ص ٣٤٨.
(٣) جوانفيل، ترجمة حبشى، ص ٢٩٥.
(٤) أنظر. Hassan Abdlel Wahab: La maison de Lokman. C.H.E Voll, 1949, pp. 529 - 539
(٥) العبر، ٥ص ٣٦٠.
(٦) السلوك، ١ / ٢ص ٣٦٣ - ٤.

وقد تمكن توران شاه من أن يعقد مع لويس اتفاقية؛ حيث جرت مفاوضات ومحاورات ومراجعات وذلك في مايو ١٢٥٠م. فمن نصوصها أن يتعهد توران شاه من جانبه؛ بأن يطلق الأسرى النصارى في مصر والشام، وحتى هؤلاء الذين أسروا من أيام العادل [الأول] والكامل والصالح، وكانت عدتهم بين: ١١, ١٢ ألف أسير (١)، أقلعوا معه إلى جهة عكة. أما الملك لويس فتعهد من جانبه بأن يدفع فدية قدرها ثمانمائة ألف قطعة ذهب ـ دينار ـ بالعملة البيزية(٢) «Besant Sar-racenat»، عليها نقش الصليب وعبارات التثليث؛ يدفع نصفها مباشرة، والنصف الآخر عند رحيله من عكة، جمعتها له زوجته مارجريت، التي كانت بقيت في دمياط؛ ويسلّم الأسرى المسلمين في حوزته، الذين وقعوا في أسر المسيحيين، بمن فيهم أسرى المسلمين في الشام، ويسلم مدينة دمياط. أما ما يوجد فيها من أمتعة الفرنسيين؛ فترسل لهم في وقت لاحق. كذلك أراد توران شاه أن يستفيد من نصره، بأن يخلى الفرنجة معاقلهم في الأراضي المقدسة، أو تلك التي تتبع فرسان الداوية والإسبتارية، ولكن لويس تعلل بأنه ليس من حقه أن يتنازل عن بلاد ليست ملكا له؛ إذ وصف لويس بأنه محاور فطن للغاية. ومع ذلك فلعل شجرة الدر كانت شاركت توران برأيها في عقد هذه الاتفاقية، عن طريق مندوبها الأمير حسام الدين محمد(٣)، الذي كان نائبًا لنجم الدين من قبل.

ومع ذلك لم يرجع ملك فرنسا إلى بلاده، وإنما التجأ إلى عكة، ومن هناك كتب إلى الشعب الفرنسي يخبره بحقيقة ما حدث(٤)، ويدعوه إلى المجيء لحرب المسلمين؛ حيث بقي في عكة ثلاث سنين(٥)، وكان ينوى في القيام بحملة صليبية جديدة على مصر، و أشار عليه كبار قواده بقصد تونس في شمال أفريقيا لضعفها، وكان يحكمها الحفصيون، الذين حكموها بعد الموحدين(٦)؛ ولكن تونس هي

---

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٦٢س ٩، ١٠. عنها أيضًا: النجوم (ط. القاهرة) ٦ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠، ٣٦٤ ـ ٣٧٠؛ انظر. باركر، الحروب الصليبية ترجمة، ص ١٥٦ .
(٢) نفسه، ١ / ٢ص ٣٦٣ وهامش (١)؛ النجوم، ٦ص ٣٧٤.
(٣) السلوك، ١ / ٢ص ٣٦٢ ـ ٣.
(٤) نص الخطاب يوجد مترجمًا عند Michaud، في.. Hist des Croisades, IV, 619 - 631
انظر. ماجد، العلاقات، ص ١٩٨ .
(٥) المفضل (P.O)، ص ٤٦٣، ٤٦٤ .
(٦) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٥٥ س ٥ ـ ٧.

الأخرى؛ لقنته درسًا قاسيًا. وعلى كل حال، منذ ذلك الوقت ظهرت أطماع الفرنسيين فى دول شمال أفريقيا العربية، وأصبحوا يتربصون بها؛ للانقضاض عليها.

* * *

وبذلك قُضى على أكبر حملات الصليبيين علي مصر؛ إلا أنها فشلت مثل غيرها من حملاتهم السابقة عليها؛ مما جعلهم يكفون عن إرسال حملات أخرى عليها أو على فلسطين. فقد فهم الفرنجة أن القوة الرابضة فى مصر؛ ستكون دائمًا حائلاً لأطماعهم فى الشرق الإسلامى، وإن كانت مصر هى التى ستقوم برد الفعل بعد ذلك، باقتلاع آخر معاقلهم فى عكة؛ وإن تأخر ذلك وقتًا؛ لسبب ظروف مصر الداخلية بانتقال الحكم من ملوك الأيوبيين إلى سلاطين المماليك، الذين تبدأ بهم حقبة جديدة فى تاريخ مصر الإسلامية. ومن المؤكد أن التحولات الكبرى "Tournat de l'Histoire"؛ فى تاريخ مصر الإسلامية؛ جاءت دائمًا نتيجة من نتائج الحملات الصليبية على مصر، مثلما كان قيام دولة الأيوبيين فى مصر نتيجة للحملات الصليبية أيضًا.

الفصل الثامن

سقوط الدولة الأيوبية فى مصر فى يد المماليك

نعرف أن صلاح الدين الأيوبى، قد تمكن من تكوين جبهة إسلامية واسعة، امتدت من طرابلس غربًا، حتى الفرات ودجلة شرقًا فضلاً عن امتدادها إلى الحجاز واليمن فى الجنوب؛ مما اعتبر إنجازًا هامًّا فى المنطقة العربية. ولكن هذه الجبهة الموحدة القوية، سرعان ما تفككت بعد موته؛ إذ ترك صلاح الدين سبعة عشر ولدا[1]، غير الأخوة وأولاد العم، فوقع بينهم الخلاف، ووثب بعضهم على بعض، ولم يقتنع أحدهم بما فى يده. فكونوا ممالك وإمارات متشاحنة، كل واحدة منها اعتبرت نفسها مستقلة عن الأخرى، وكل واحد من حكامها جعل له أتابكًا[2]، أى وصيًّا على أبنائه، وذلك على الطريقة السلجوقية السائدة فى عصرهم، فكان الأتابكة بدورهم يسعون إلى التنافس. واستمر هذا الطابع[3] فى المنازعات والمشاحنات والدسائس بين أفراد الأسرة الأيوبية طوال الفترة التى حكموا فيها مصر، وبلاد الشام، وبلاد الجزيرة. ومع ذلك؛كان أقوى أفراد البيت الأيوبى من يتولى منهم الحكم فى مصر، وحينئذ يتلقب بالسلطان، وقد نجح عدة مرات فى أن يجعلهم يعترفون بنفوذه عليهم؛ لأنه كبير البيت الأيوبى.

فبعد موت صلاح الدين فى ٢٧ صفر ٥٨٩هـ / ٤ مارس سنه ١١٩٣م، انقسمت دولته بين أبنائه وأفراد أسرته، وكان قد وزعها فيما بينهم. فكانت مصر من نصيب العزيز عثمان، وشمل حكمه معظم جنوب فلسطين، ودمشق من نصيب الأفضل علىّ، وشاركه فى حكمها مع حَماة وحِمص بعض الأمراء الأيوبيين، وحلب من نصيب الظاهر غازى، وبلاد الجزيرة فى يد العادل أبى بكر أخى صلاح الدين،وإن ضمت حلب إليه أكثر من مرة؛ كما رجع إليها الظاهر

---

(١) الفتح القسى، ص ٣٢٦. يقول ابن تغرى بردى: إنهم ستة عشر ذكراً، وابنة واحدة .النجوم، ٦ص ٦٢.

(٢) أنظر. قبله.

(٣) عن منازعاتهم، انظر كتاب: التاريخ المنصورى لابن نظيف، تحقيق أبو العيد دودو، دمشق ١٩٨٢.

غازى من جديد، واليمن فى يد طغتكين - طغدكين - الذى ورث أباه توران شاه فى حكمها، وهو أخو صلاح الدين.

ولكن العادل أبا بكر محمد، من دونهم جميعًا كان يرمى إلى إعادة الدولة الأيوبية الموحدة التى أسسها صلاح الدين، ولاسيما أنه أصبح كبير البيت الأيوبى؛ فتداخل بينهم، وساعده على ذلك، أنه كان وصيًا على الأفضل فى دمشق، وأتابكًا للعزيز فى مصر، فلما توفى العزيز فى رحلة صيد إلى الفيوم، أصبح وصيًا على ابنه المنصور، وكان صبيًا؛ فعزله وأعلن السلطنة لنفسه فى الشام ومصر معاً فى ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م. ومع ذلك؛ فإن الوحدة الأيوبية التى أقامها العادل، كانت وحدة هشة، ولم تصل إلى الوحدة الشاملة بين أفراد البيت الواحد، التى أقامها صلاح الدين قبله.

كذلك بعد موت العادل أبى بكر فى ٧ من جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ / ٣١ أغسطس ١٢١٨م، حدث ما حدث بعد موت صلاح الدين؛ إذ وزع مملكته بين أبنائه على أنهم نوابه[١]. ففى دمشق المعظم عيسى، وفى مصر الكامل محمد نصر الدين، وفى ديار بكر ببلاد الجزيرة الأشرف موسى. ولكن الكامل كان مثل أبيه وعمه سعى إلى إقامة الدولة الأيوبية الموحدة؛ فعمد الى توحيد مصر مع سورية وبلاد الجزيرة، واستولى على مدن أخوته وأقربائه، وساءت علاقته معهم وبخاصة مع أخيه المعظم عيسى فى دمشق.

ولما توفى الكامل محمد فى ٢١ من رجب سنة ٦٣٥هـ / ٦ مارس ١٢٣٨م، وكان جعل العادل سيف الدين [الثانى] فى سوريا ومصر[٢]، مع أنه الابن الأصغر، فنازعه النفوذ أخوه الأكبر نجم الدين أيوب[٣]، الذى لقب بالملك الصالح، وكان نائبا لأبيه فى حصن كيفا ببلاد الجزيرة، وبخاصة أنه كان فى أول أمره فى ولاية عهده، وربما كان ينوى الخروج على أبيه بسبب ذلك. حقًا كان الموقف صعبًا بالنسبة لنجم الدين لتحقيق طموحاته فى السلطنة فى مصر، وهو فى بلاد الجزيرة، إلا أنه لم يكن يقل عن غيره من الأيوبيين فى تآمره ومشاحناته. فاعتمد فى أول أمره على جند مرتزقة أتوا من خوارزم، بعد أن انحلت دولتهم

---

(١) أوردها المقريزى فى السلوك، ١ / ٢ ص ٣٧٠.
(٢) نفسه، ١ / ٢ص ٢٦٧
(٣) عنه بتفصيل: Ency de l'Isl, (art al - Malik as - Sálih) 14, p. 112 sqq.

على يد المغول، وهزيمة ملكهم جلال الدين خوارزم شاه، وتفرُّقهم فى جيوش الملوك الأيوبيين المتنافسين؛ بحيث أصبحوا يتحكمون فى بلادهم[(١)]؛ كما تحكموا أيضًا فى بلاد سلاجقة آسية الصغرى، وإن تخلّص من هؤلاء بإبعادهم إلى ديار مضر ببلاد الجزيرة؛ ليشاركوا الأيوبيين فها. فكان الملك الرحيم صاحب الموصل هو أشد أعدائه فى بلاد الجزيرة، حتى بلغت كراهيته له أنه أراد أن يقبض عليه، ويحمله فى قفص[(٢)]، ويسلمه إلى الخليفة فى بغداد. ولكن نجم الدين الذى سوى أموره فى بلاد الجزيرة بالجند الخوارزميين، وبعد ذلك قرر تركها إلى دمشق؛ بعد أن ترك ابنه توران شاه مكانه فى حصن كِيفًا فى بلاد الجزيرة، ومعه الصاحب زهير الشاعر المصرى فى عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م [(٣)]، منتهزاً وجود نزاع بين العادل الصغير [الثانى] فى مصر ونوابه فى الشام؛ حيث كان نجم الدين يحرض الذى هؤلاء ضده. ثم اتجه إلى مصر فى العام التالى ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م، وساعده فى الاستيلاء عليها فخر الدين بن شيخ الشيوخ، أحد أفراد الأسرة الأيوبية، وكان يحقد على العادل [الثانى]، إذ سجنه لمكاتبته نجم الدين[(٤)]. فبويع لنجم الدين بالسلطنة فى مصر ووصله التقليد والخلع الخلاقية، حيث قرأ تقليده الخلاقى المؤرخ المعروف سبط بن الجوزى [ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م)[(٥)]، فى حضور مؤرخ مشهور آخر هو ابن العديم (ت ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م).

وقد سرَّ الناس فى مصر سروراً كبيراً بسلطنة نجم الدين، وزينت له القاهرة ومصر وظواهرها وقلعة الجبل زينة عظيمة؛ ذلك لأن العادل [الثانى] لم يكن يهتم بمصالح الدولة[(٦)] اهتمامه بالجوارى الجنكيات، وهن عازفات آلة الجنك من آلات الطرب، والعوديات، والراقصات، وحتى رقاص الأفراح[(٧)]، وإقامة الأسمطة - وهى الولائم الفخمة فى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل، بحيث كان قد صرف كل ما كان يوجد فى خزائن الدولة من الأموال، وبلغ ماصرفه منها ستة آلاف ألف

(١) السلوك، ١ / ٢ص ٢٧٠، ٣١٦، ٣٣٩.
(٢) نفسه، ١ / ٢ص ٢٧٠.
(٣) نفسه، ١ / ٢ص ٢٧٥؛ ٢٨٠.
(٤) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٧٦.
(٥) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٩٨.
(٦) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٩٧.
(٧) نفسه، ١ / ٢ص ٢٧٥.

دينار [٦ مليـون]، وعشرين ألف ألف درهـم [٢٠ مليون][١]. فسجن نجم الدين أخـاه العادل [الثـانى] فى القلعـة فى جـبل المقطم، ثم أرسل إليـه من خنقـه فى السجن، ولم يتول غير بضعة عشر شهراً.

وعلى عكس العادل [الثانى]، كان نجم الدين سلطانًا مهيبًا يملأ العينين، وقد عرفـه المصريون فى سـيرة الظاهر بيبـرس بالنجابة والشـهامة، وأنه مـكشوف عنه الحجاب، وذو همـة كبيرة مـثل جده صلاح الدين، وسلاحه فى هزيمـة الفرنسيين عصاو درع من خـشب الجميز بملاحظة المؤرخين. ومع هذه المهـابة، فإنه لم يكن يرفع بصره إلى أبعد من الذى يحـادثه، وأكثر مايقول إذا شـتم: يا «متخلف»[٢]، ولاعرف من النكاح غير زوجته شـجرة الدر، وكانت فى الأصل من رقيق الترك، التقطها وهى صغيرة؛ حينما كان أميـرًا لبلاد الجزيرة، فلازمته من وقتها، وجاءت معه إلى مـصر، وانجبت له ولدًا اسمـه خليل، لقّب بالملك المنصور خليل، إلا أنه توفى فى مصـر، ولبس المصريون عليه البـياض، زىّ الحداد من أيام الفـاطميين، فعرفت بسـبب ذلك بأم خليل. ولما كانت تسيطر على زوجـها بجمالهـا وذكائها، حتى وصفت بأنها أنثى ذات جـمال وفتنة، وأدب وفن، وزوجة ذات حب ووفاء؛ فقد غمرها بالدر والجـوهر، وبسبب كثرة مجوهراتها اشتهرت باسـمها شجرة الدر أو شجر الدر[٣]، أو شجرة الدر الصالحية نسبة إليه،أو ولعلها سميت هكذا؛ لأنها كالشجرة التى تظلل عرشه[٤].

• كـذلك عمَّـر نجم الدين فى مـصر مـالم يعمـره أحـد من ملوك بنى أيوب قبله[٥]؛ وكان يحب العـمارة مثل كل ملوك مـصر وحكامهـا؛ فكانت له منشآت حربيـة ومدنية. فـبنى لنفسه قـصرًا ـ وهو قصـر المنزلى الحالى ـ فى جزيرة قـبالة

---

(١) نفسه، ١ / ٢ص ٢٩٤ ـ ٥.

(٢) نفسه، ١ / ٢ص ٣٤.

(٣) بتفصيل: Ency del.Isl (art Shadjar al - Durr) le d. t4, p. 249 - 50.

(٤) ابن حبيب، درة الأسلاك فى دولة الأتراك، مخطوط برقم ٤٦٨٠، ورقة ١٧؛ انظر. ماجد، دولة سلاطين المماليك، ص ٦٩.

(٥) السلوك، ١ / ٢ص ٣٠١ وهامش (٧).

الفسطاط، عُرفت باسم: الروضة[1]؛ لأن الوزير الأفضل الفاطمى، كان قد أنشأ بها مكانًا فى ساحلها ـ ولعله كان بستانًا ـ سماه الروضة، وكانت مدينة عامرة. فهدم السلطان نجم الدين مساكنها وبنى الدور السلطانية، وشيد القلعة بالروضة والأسوار، وجعل إلى جانبها ميدانًا؛ ليلعب فيه بالكرة، إذ كان مغرمًا بلعبها، كما أقام جسرًا على النيل يربط بينها وبين الفسطاط. كذلك اشتهر نجم الدين مثل جده ببناء المدارس؛ حيث إن منهجها هو المذهب السنى، وأشهرها مدرسته الصالحية[2]، ولدينا حجر تأسيسها مؤرخًا فى ٦٤١هـ / ١٢٤٣م ـ وهى قرب خان الخليلى ـ وبنت بها شجرة الدر قبره، وكانت أول مدرسة بمصر؛ رتبت فيها دروسًا للمذاهب الأربعة؛ حيث كفل التدريس فيها لمفتى البلاد المشهور الشيخ عز الدين ابن عبدالسلام[3].

كذلك دخل نجم الدين، مثل بقية أفراد الأسرة الأيوبية فى صراع مع أفراد أسرته، وبخاصة مع ابن أخيه الصالح إسماعيل، ملك دمشق الأيوبى، الذى وليها منذ عام ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م، ومع ابن عمه الناصر داود أمير كَرْك فى فلسطين، ومع الخوارزميين أيضًا، الذين أصبحوا تارة معه وتارة ضده. فحارب عمه الملك الصالح إسماعيل؛ بسبب أنه سمح لفرنجة عكة، وكانت أهم معاقل الصليبيين والباقية لهم من مدن الساحل فى فلسطين بدخولهم دمشق، وشراء السلاح[4]، بل أعطاهم مافتحه صلاح الدين من قبل، وسمح لهم بإقامة مراكز بيت المقدس التى كان جدهم صلاح الدين استردها منهم بعسكره السمر المصريين كما ذكرنا؛ بحيث اعتبر استردادها معجزة؛ بسبب يأس المسلمين من رجوعها. وقد أفتى الفقيه المشهور، الشيخ عز الدين بن عبد السلام، الذى كان الملك الصالح إسماعيل عينه فى خطابة جامع دمشق[5]؛ مما جعله يعزله، ويلزمه داره؛ فترك الشيخ عز الدين دمشق، وتوجه إلى مصر عام ٦٣٩هـ / ١٢٤١م؛ وعلى العكس أكرمه نجم الدين وقلده الخطابة فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط[6]. ولما التقى عسكر نجم

---

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤١.
(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٠٨؛ انظر. Van Berchem: Corpus, 102 - 110, No 64, 65,67
(٣) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٩٤.
(٤) نفسه، ١ / ٢ص ٣٠٤.
(٥) نفسه، ١ / ٢ص ٢٩٩.
(٦) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٠٨.

الدين مع عسكر الصالح إسماعيل ومعهم الفرنجة؛ فإن عسكرَ الشام انضموا طواعية للعسكر المصريين، وقاتلوا معهم الفرنج وهزموهم فى معركة تل العجول[1]. فاستولى نجم الدين على دمشق، وأحضر عمه أسيراً إلى القاهرة، ثم عفا عنه. كذلك لما كثر نهب الخوارزمية، وسفكهم للدماء، وانتهاكهم للحرمات، ولاسيما أن نجم الدين لم يسمح لهم بالدخول إلى مصر؛ فحاربهم مع بقية ملوك الأيوبيين، ووقعت وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزميون هزيمة منكرة فى عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م[2].

ولما توفى نجم الدين فى ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م؛ استدعت زوجته شجرة الدر ولى عهده توران شاه، الذى كان فى حصن كيفا ببلاد الجزيرة؛ وأرسلت إليه الأمير حسام الدين نائب السلطنة، والأمير فارس الدين أقطاى (أو أقطيا) رئيس المماليك، والقاضى بدر الدين السنجارى، وبويع لتوران شاه بالسلطنة فى عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م، ولقب بالسلطان الملك المعظم، وإن قيل إن نجم الدين لم يكن راضيًا عنه، وكان ينوى تسليم مصر للخليفة العباسى فى بغداد[3]. ومع ذلك؛ فإن النصوص التاريخية تبيّن أن توران شاه على عكس ما أشيع عنه من أنه خفيف وأهوج وسكير، كان مولعًا بمجالس أهل العلم، وعلى بيّنة بالخلاف والفقه والأصول، وهى علوم أساسية عند المسلمين، وكان يناقش العلماء فيما يعلمه ويفحمهم، وكان جده الكامل يحبه لذلك. ومما ينفى عنه هذا الافتراء أيضًا؛ انتصاره الناجح فى وقعة فارسكور بأسلوب حربى متميزّ؛ مما تسبب فى هزيمة الفرنسيين هزيمة ساحقة، وأثبت بانتصاره الكبير أنه كان هو الآخر سلطانًا عظيمًا لمصر. فربما أتى تشوبه سيرته من قبل مماليك مصر، وهم عنصر غير عنصر الكرد، الذى ينتمى إليه الأيوبيون، فمن هؤلاء المماليك؟؟

* *

وفى أول الأمر، كان من يتولى حكم مصر من الأيوبيين يعتمد فى حكمه على الكرد من بنى جنسه؛ إذ كان كل من أسد الدين شيركوه وصلاح الدين قد جلب منهم أعدادًا فى مصر، عرفوا باسميهما: الأسدية والصلاحية. ويبدو أن

(١) نفسه، ١ / ٢ص ٢٩٩.
(٢) نفسه، ١ / ٢ص ٣٢٤.
(٣) السلوك، ١ / ٢ص ٣٤٢.

سلاطين مصر الأيوبيين، كانوا قد امتنعوا عن أن يجلبوا طوائف أخرى منهم من موطنهم الأصلى، ولاسيما أن الأسرة الأيوبية أصبح طابعها المشاحنة فيما بينهم وأنهم لايتفقون، مع أن ظروف المنطقه كانت تقتضى اتحاد ملوكها، حتى ولو كانوا كثيرين؛ ما جعل السلطان الأيوبى فى مصر؛ يعتمد فى تثبيت حكمه فى مصر على عنصر آخر غير الكرد؛ يكون ملكًا له وتحت تصرفه فى كل وقت، وهو عنصر المماليك.

ولفظه «المماليك» أو «المملوكون»[1] ـ وإن كانت هذه الأخير غير مستعملة ـ ومفردها «مملوك»[2] فى أصلها اللغوى، مستخرجة من فعل «ملك»؛ لتعنى الرقيق الذى يشترى بقصد تربيته والاستعانة به كجند وحكام. هذه اللفظة حلت محل لفظة «عبيد»، ومفردها عبد ـ ومؤنثها جارية ـ التى استعملت فى العضر الإسلامى الأول؛ وذلك لأن الإسلام بميوله الإنسانية، كان يرفع من شأن الرقيق؛ إذ لفظة العبيد تعنى العبودية، والعبد يولد من الرقيق؛ بينما المملوك يولد من أبوين حرين، ويباع؛ كما أن العبد قد يعنى إنسانًا أسود اللون؛ بينما المملوك كان غالبًا إنسانًا أبيض اللون.

ولاشك أن أصل نظام المماليك عمومًا يتصل اتصالاً وثيقًا بحياة القصر الإسلامى منذ نشأته فى أيام الأمويين، وكان معظم مماليكهم فى أول الأمر من سبى الترك فى وسط آسيا؛ حيث يقول الكاتب الجاحظ عن هؤلاء: إن أجسامهم من دون أجسام سائر الناس؛ بنيت على تقبل اللحوم[3]، وأنهم أقرب الشعوب إلى العرب، حتى عُرفوا «بأعراب العجم»[4]. كذلك توسع العباسيون فى استخدام المماليك بعد الأمويين، وبذلت الأموال لشرائهم. فقد كان الخليفة المأمون العباسى يشتريهم ليجعلهم حراسه الأمناء، وتغالى فى شرائهم، حتى أنه قد يشترى الواحد منهم بمائتى ألف درهم[5]، وهو مبلغ كبير وقتذاك. وقد اقتدى به

---

(١) عن ذلك، انظر. لسان العرب، ١٢ص ٣٨٣؛انظر.
Ency of ISL, (art Mamlúk) 2cd, t3, p. 230 sqq;
ماجد، نظم المماليك ورسومهم فى مصر، ١ص ١١ مابعدها.

(٢) كلمة «مملوك»، وردت فى القرآن الكريم: سورة ١٦ : ٧٧.

(٣) الجاحظ، رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مدح الترك، تحقيق هارون، مصر ١٩٦٥، ص ٢٩؛ انظر. سعد زغلول، الترك والمجتمعات التركية، ص ٧٣؛ ماجد، دولة سلاطين المماليك، ص ٦٤ ومابعدها.

(٤) الجاحظ، رسالة، ص ٧.

(٥) مروج الذهب، ٣ص ٤٦٥.

أخوه المعتصم من بعده فاستخدمهم بكثرة فى جيشه(١)، وصاروا أغلب جنده، واعتمد عليهم فى حكم الولايات؛ حتى أنه أسقط عطاء العرب من الديوان(٢)، وجعل معظم العطاء لمماليك الترك؛ مما جعل قواد الترك من المماليك يلعبون دوراً هاماً فى سياسة العباسيين؛ وصل إلى حد التحكم فى تولية الخلفاء العباسيين أنفسهم.

ولاشك أن التحول عن العرب إلى العجم اتفق مع طابع الدولة العباسية التى قامت أصلاً على أكتاف الشعوب، ومع ذلك نقول: إن إبعاد العرب والاعتماد على غيرهم فى الجيش والحكم اعتبر ظاهرة لامفر منها؛ حيث لابن خلدون رأى فى ذلك، أورده فى مقدمته؛ وهو أن اختلاف العرب طابع فيهم، وأنهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأنه يفسدهم العمران؛ وإن وجدت لهم حواضر مبعثرة فى صحراواتهم، وهذا الاختلاف فيما بينهم هو نقطة الضعف فى قوميتهم؛ بحيث أصبحت لهم رءوسا كثيرة، ولم ينسوا قبليتهم.

وقد عرفت مصر الولاة من هؤلاء المماليك، مثل: أحمد بن طولون والإخشيد المصرى - وكان يحب هذه التسمية - ، اللذين استكثرا من استخدام المماليك فى جيوشهما، فابن طولون قد استكثر من مشترى المماليك؛ حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك، أما الأخشيد المصرى؛ فكان يسير فى موكبه ثمانية آلاف من المماليك(٣). ولما جاء السلاجقة إلى الشرق الإسلامى - وهم ترك من وسط آسيا - زادوا من استخدام المماليك؛ بحيث أصبح كل أمير سلجوقى يحيط نفسه بجماعة منهم. فيذكر الوزير السلجوقى والمفكر نظام الملك - فى كتابه: سياست نامه(٤) - ضرورة استعانة الأمير بالمماليك. وعلى العكس؛ فإنه لما جاء الفاطميون إلى مصر استكثروا من السودانيين - النوب فى أغلبهم - وسموهم عبيد الشراء أو الشرى(٥)؛ لشرائهم إياهم بالمال؛ ولايعتبر هؤلاء من المماليك، وإنما من العبيد.

---

(١) بلغ ما اشتراه منهم سبعين الف مملوك معجم البلدان، ٥ص ١٤ س ٢١ بينما أبو المحاسن يقول. إنهم بلغوا ثمانية عشر الفا .النجوم، ٢ص ٢٣٣. وانظر: ابن حسول، كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد، تحقيق عباس العزاوى، إستانبول ١٩٤٠.

(٢) الولاة، ص ١٩٣؛ الخطط، ١ص ١٥١، ١٥٢، ٢ص ١٠٠س ٢٤؛ النجوم، ٢ص ٢٣٣.

(٣) ابن إياس، بدائع، ١ص ٣٧؛ النجوم، ٤ص ٢٥٦.

(٤) انظر. Siassct Namch, trad. Schefer, p. 135

(٥) ابن إياس، بدائع، ١ص ٤٨؛ المقريزى، الخطط، ط. بولاق، ١ص ٣٣٥.

ولعل الذى ساعد على الإكثار من المماليك فى عصر الأيوبيين بالذات، التحركات المفاجئة لعناصر آسيوية، وهم المغول؛ مما جعل هذا النظام يتسع اتساعا كبيراً بسبب ماسببه المغول من دمار. فحينما هاجم جنكيز خان، زعيم المغول، فى وسط آسيا ـ مجال أمم الترك خاصة ـ كان الآسيويون يهربون أمامه، ورغبة فى الحصول على مايمسك رمقهم، كانوا يبيعون ذكور أولادهم وإناثهم[1]؛ بسبب قسوة بيئتهم، فقد كان من عادة الشعوب الآسيوية أن تبيع أبناءها، ولم يزل الصينيون على عهد قريب، يبيعون أبناءهم.

يُضاف على ذلك أن المغول فى تحركاتهم كانوا يستولون على أسرى كثيرين، ويبيعونهم كرقيق فى الأسواق. فقد كان المغول يوجدون فى كل مكان، ويملأون الوديان وسفوح الجبال بجموع كثيرة[2]، وخيولهم لاتتعب أبدًا، وليست فى حاجة إلى العلف؛ فهى تنقب الأرض بحوافرها بحثًا عن جذور النبات الذى تقتات به، وكأنهم السيل أو الجراد؛ حيث إنهم وهم يهبطون على المدن أو الأمكنة فيملأونها، ولم يعد الناس يجدون ملجأ لهم لافى الكهوف أو الغابات أو حتى فى أعماق الوديان، بل كان المغول يجمعون الأسرى فى حظائر وكأنهم أغنام أو حيوانات؛ فمن لايقتل يباع كرقيق.

كل هذا أوجد سوقًا لتجار الرقيق؛ بحيث إن هؤلاء زادت أعمالهم إلى حد أنهم لم يكن يخصصون الرقيق كما كانوا يفعلون من قبل؛ ليعملوا فى البلاط فى خدمة الحريم، أو ليكونوا خلصاء للأمير، الذى وضع حياته بين أيديهم، ولكنهم يبقون على رجولتهم ليكونوا جنودًا أقوياء. بل كانوا يبحثون لهم عن بنات جميلات؛ ليتناسلوا نسلاً قويًا.

فوجد تجار الرقيق فى مشاحنات ملوك الأيوبيين، وسيلة لزيادة دخلهم من بيع المماليك لهم، ولاسيما لسلطان مصر الأيوبى الغنى، الذى كان يشترى منهم الآلاف[3]، حتى أن المؤرخ ابن إياس يقول إنهم من كثرتهم ضاقت القاهرة بهم.

---

(١) معجم البلدان، ٢ص ٣٧٩س ١٢.

(٢) Dulaurier Guirgos: Fragments relatlif aux Mongolia, trad. J. A. 1828, p. 217 - 219.

سعد زغلول، الترك، فى عالم الفكر، ص ٤٢٣.

(٣) ابن إياس، بدائع، ١ص ٨٣.

ومع ذلك، فإن تجار المماليك لم يظهروا فى مصر؛ بدليل اللقب الذى كان يطلق عليهم، وهو: خواجة أو الخواجا أو الخواكجية، الذى يقول عنه القلقشندى: إنه يعنى التجار الأجانب[١]، وهو لفظ فارسى بمعنى السيد، وكان معظمهم من الأوربيين النصارى أو من اليهود[٢]، وإن كان بعضهم من الإيرانيين، فكان التجار الأجانب يأتون بالمماليك غالبًا عن طريق البحر؛ حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغرى دمياط والإسكندرية، بينما التجار المسلمون يأتون عن طريق البر، وقد كان سلاطين الأيوبيين، ومن بعدهم سلاطين المماليك يستقبلونهم كما يستقبلون كبار الشخصيات، ويستضيفونهم، ويمنحونهم الخلع والمال الكثير[٣].

ونحن نسمع فى القاهرة عن سوق لبيع المماليك منذ أيام صلاح الدين، وهى خان مسرور، الذى عاش فى أيامه[٤]؛ بحيث كانت فى شهرتها مثل سوق أخرى ظهرت فى أيام سلاطين المماليك وهى خان الخليلى[٥]. وربما كان يشرف على هذه الأسواق تجار آخرون يشترون المماليك منهم، ويسمى الواحد: تاجر المماليك، أو معلم تجار المماليك[٦]. كذلك وجد تاجر الخاص فى الرقيق، الذى تخصص فى بيعهم، وجمعهم للسلطان فى مصر[٧]، وربما كان يعاونه «دلال المماليك»[٨]، الذى يبحث عنهم ويشتريهم من بيت المال؛ بشهادة القضاة[٩]. وهذا لايعنى أن المماليك يباعون فى القاهرة وحدها، وإنما يباعون فى أماكن أخرى أيضًا، مثل: الإسكندرية[١٠]، أو فى أسواق البلاد العربية، وبخاصة فى دمشق.

---

(١) صبح الأعشى، ٦ص ١٣ س ١٦، ١٧، ص ٦٩س ١، ص ٧٣؛ وأيضًا:
Ayalon: L. Esclavage du Mamelouke, p. 137.

(٢) انظر: Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age (1637 - 1517), p. 60.
الخطط، ٣ص ٢٤٨ س ١٦

(٣) الخطط، ٣ص ٣٤٨ س ١٧، ١٨، ٣٧١ س ٥.

(٤) نفسه، ٣ص ١٤٩.

(٥) أنشاها جهاركس الخليلى، فى أيام الظاهر برقوق، السلطان المملوكى. نفسه، ٣ص ١٥٢، ١٥٣.

(٦) ابن إياس، ٣ص ٣ س ٢١.

(٧) الخطط، ٣ص ٦٩.

(٨) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٥س ١١

(٩) ابن إياس، ٣ص ١٦ س ١١.

(١٠) انظر. Heyd: OP. Cit, p. 443.

كـذلك كان يبـاع فى هذه الأسـواق الرقـيق ذكورًا وإناثًا، ليس فـقط من السـبى أوالاختطاف، ولكن الأب قد يبيع أولاده، أو الأخ أخاه، وإن كنا نستبعد ذلك فى أسـواق الرقـيق فى بلاد الإسـلام. ولدينا وصف من الرحـالة الأوربى طافـور[1] "Tafūr"؛ عن سوق الرقـيق: فالرقيق ذكـورًا وإناثًا يجردون من ثيـابهم تمامًا، ثم تطرح على الواحد منهم عباءة، ويعلن عن الثمن، وبعدئذ يخلعون العباءة عنهم، ويدعونهم يسيـرون جيئة وذهابًا؛ ليرى الناس أنه ليس بهم عيب جـسمانى. ومع ذلك، فكان من الآسيويـين أو من غيرهم من يأتى مقبلاً على المخاطرة برغبته، من غير تاجر المماليك؛ ليدخل فى زمرة المماليك.

* *

وقد بدأ يظهـر نفوذ المماليك فى مصـر منذ السلطان الكامل الأيوبى؛ الذى كون لنفسه فـرقة كبيرة منهم؛ عُرفت باسـمه: الكاملية[2]، وهم الذين أصبـحوا للعادل الأصـغر [الثـانى] من بعده. فلمـا طمع نجم الدين فى ملك أخيـه، وكان ذكيًا، فإنه اسـتطاع أن يستميل مماليك أخيه، وكانوا أعـدادًا كبيرة، وبهم تمكن من الاستيلاء على الشام ومصر، حيث نصّب نفـسه سلطانًا فيهما. إلا أنه لم يعد يثق فى مماليك أخيه، وقد خانوا سيدهم، فتخلى عنهم، وقطع أرزاقهم، واعتقلهم[3].

وفى الوقت ذاته فكر نجم الـدين فى تكوين فـرقة من المـماليك الطارجـة؛ جلب معظمهم من فئات الترك المسلمين، المسماة: التركمان، أو التركمانية، وحتى التراكمين[4]، أى أنهم ترك مـسلمـون، يؤمنون بحق بـدين الإسلام؛ فـقـد تميّـز إسلامهم بالإيمان، ولم يتعصبوا لديانة أخرى سابقة؛ ولم تظهر لهم زندقة فأصبحوا يؤلفون فى أكـثر جيوش المسلـمين قطاعًا رئيسيًـا فى تكوينه، وعرفوا فـيه باسم:

---

(١) رحلة طافور، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٣٤.

(٢) السلوك، ١ / ٢ ص ٢٩٦.

(٣) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤٠.

(٤) صبح الأعشى، ١ص ٣٦٧. بتفصيل: Wiet:

La Tourkènie et leTourkmène. Paris, 1880;

Ibrahim Kofesogly: A propos du Nom Turkman. Oriens Vol II, Leiden, 1939, p. 146 - 150;

بارتولد، الترك، ترجمة عربيـة من أحمد السيد، ص ١١٢؛ سعد زغلول، الترك أفضل المجتـمعات التركية،

«المشارقة»[١]. أما السلاجقة[٢]، وهم أصلاً من التركمان، فإنهم جلبوا منهم أعدادًا كبيرة. فيقول المؤرخ ابن تغرى بردى - أبو المحاسن - إن نجم الدين أيوب، هو الذى أنشأ المماليك الترك فى مصر[٣]، وإنهم زادوا فى عهده زيادة هائلة عن أى مماليك آخرين، بحيث كونوا فى جيشه أميزّ جنده. فهو فعل مافعله المعتصم العباسى من قبل؛ حينما جعلهم أكثر جنده، وأسقط العرب من الديوان[٤].

ومع ذلك؛ فإن التركمان لم يكونوا فى أى وقت تركًا خلصاء[٥]، وإنما اختلطوا بشعوب المناطق التى نزحوا إليها فى جنوب بلاد الروس؛ حيث عرفوا لهم باسم: الترك «Tork»؛ وذلك حينما استقروا حول نهر الفولجا، الذى سماه العرب: إتل[٦]، وربما تسميته على اسم مدينة خزرية، وجدت فى المناطق القوقازية التى سماها العرب: القَبج أو القَبْق[٧]، الممتدة من بحر قزوين إلى البحر الأسود. ففى هذه المناطق يذكر الجغرافى ياقوت أن فيها اثنين وسبعين لسانا، لايعرف كل لسان لغة صاحبه، مما يدل على كثرة الشعوب فيها.

كذلك اشتهر التركمان فى هذه النواحى بأسماء أخرى منها: بلاد القفْجَاق، أو القَبجْاق، أو القبجاى، أو الخفجاق[٨]، أو بدشت القبجاق، ودشت كلمة روسية تعنى الصحراء، أو ببلاد البُشنق أو البشناق[٩]، أو ببلاد البجناك أو البجنك[١٠]؛ ولكن المؤرخين البيزنطيين لايعتبرون البجناك «Pechengs»، من

(١) انظر. قبله.
(٢) مروج، ٣ص ٣٦٥.
(٣) انظر. قبله.
(٤) مورد اللطافة، ص ٣٢.
(٥) معجم البلدان، ٢ص ٣٧٨ - ٣٧٩؛ انظر.
Ency de L'Isl. (art Turks) T4, p. 947 sqq.
(٦) معجم البلدان، ١ص ١٠٣، ١٠٤.
(٧) نفسه، ٧ص ٢٧ - ٢٨.
(٨) العمرى، المصطلح الشريف، القاهرة ١٩٣١ - ١٩٣٣، ص ٤٣.
(٩) صبح الأعشى، ٤ص ٤٥٨. عن هذه التسميات، ايضـا: انظر. تلفيق الأخبار، وتلقيح الآثار، ط أو رينبورج، المجلد الأول، ص ٩٠.
(١٠) شرف الزمان (حوالى ٥١٤هـ / ١١٢٠م)؛ من أبواب الصين والترك والهند، منتخبة من كتاب طبائع الحيوان، تحقيق Minorsky، ص ٢٠ - ٢١؛
D. Hsson: Histoire des Mongols dépuis Tchinguiz Khan Jusqu'á Timour Beg. 4 Vols, 1852. cf.

عنصر الترك، وسموهم أيضاً: باتزيناك "Patzinak"[(١)]، وإنما اعتبروهم من سلالة الشيطان، بينما المسلمون يرون أنهم ترك[(٢)] مثل غيرهم، ربما لأن البجناك حاربوا الجميع فى هذه النواحى بمن فيهم البيزنطيون والجورجين، الذين سمى العرب بلادهم الكرج[(٣)]. وعلى كل حال؛ فإن التركمان بأصولهم المتعددة اعتبروا محاربون أشداء، ولعل ظروف معيشتهم السيئة فى مواطنهم؛ هى التى جعلتهم يعملون كجند مرتزقة فى أى مكان، حيث برز استخدامهم بكثرة فى ممالك الأيوبيين وإمارتهم، وبخاصة فى السلطنة الأيوبية فى مصر فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب.

فبنى نجم الدين لمماليكه الطارجة قلعة خاصة بهم؛ لتكون معسكراً دئماً لهم على ساحل النيل قبالة الفسطاط فى سنة ونصف، اشتهرت باسم: قلعة الروضة[(٤)]، أو المقياس أو الجزيرة أو الجيزة أو الصالحية، أو حتى الحصن؛ لأن أحمد بن طولون والى مصر كان قد بنى بها حصناً فى ٢٦٣هـ / ٨٧٦م، وأنشأ دار صناعة لبناء السفن؛ فسموا بالمماليك البحرية[(٥)]؛ بسبب سكناهم قلعة الروضة، والمقصود بالبحر النيل، أو ربما لأنهم كمماليك جاءوا مع التجار عن طريق البحر[(٦)]، وليس عن طريق البر؛ كما نسبوا إلى السلطان الملك الصالح فعرفوا: بالمماليك الصالحية[(٧)]، أو بالاسمين معًا: الصالحية البحرية. كذلك أنشأ لهم نجم الدين معسكرًا فى طريق مصر الشام، على طرف الصحراء عُرف باسمه: الصالحية[(٨)].

* *

(١) بورفيروجينيتوس، كتاب الإدارة De Administrato، ترجمة مع التصرف من عمران، بيروت ١٩٨٠، ص ٥٣ ومابعدها.

(٢) معجم البلدان، ٢ص ٣٧٨ س ١٧ ـ ١٨، ٥ص ٤٠٩ ومابعدها؛ وقبله.

(٣) نفسه، ٧ص ٢٣٠ ، ٢٣١.

(٤) السلوك، ١ ٢ ص ١ ٣٠١ وهامش (١)؛ الخطط؛ ٢ص ٢٩٧؛ أبو الفدا فى: ' (R. H. C. or, Tl,
P. 110. Ency de L'Isl, (art Rawda). cf

(٥) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٤١. وبتفصيل:
Ency of LIsl, (art al - Bahriyya), 2ed, tl, pp. 944 - 5'
Ayalon: Le Régiment Bahriyya dans l'armée Mamelouke. R. E. I, 1952, pp. 133 - 41

(٦) رضا نور، تاريخ الترك، ط. ١٩٢٦، ٩ص ١٩١. (أوردها: الشيال، مصر الإسلامية، ١٩٦٧، ٢ ص١٤٧).

(٧) الخطط، ٢ص ٢١٦، ٢١٧س ٨.

(٨) السلوك، ١ / ٢ ص ٢٤٢.

ومن اليقين يُعتبر نجم الدين أيوب أول سلطان فى مصر نظم تربية المماليك، حتى يؤهلوا لأعلى المناصب فى الدولة، وإن تطورت تربيتهم بعد ذلك فى عهد دولة سلاطين المماليك تطوراً كبيراً؛ بحيث أصبحت من نظم دولتهم. فينسب المؤرخون إليه أنه اقتنى من المماليك ألف مملوك أو ثمانمائة[1]، وأنه أسكنهم فى قلعة الروضة التى أصبحت لكثرة عددهم فيها أشبه بحى كبير؛ كما نسب إليه أنه أعطى مماليكه الإمريات[2]، أى تدرج المماليك فى الرتب العسكرية، كما رتب لهم الألقاب.

ومن المؤكد أيضًا أن مماليك نجم الدين كانوا يربون وهم صغار السن، فسموا أترابًا[3]، أو غلمانًا[4]، أى مماليك فرسًانا، ويقوم على تعليمهم الطواشى[5]، وهو الآخر من المماليك؛ بمعنى الأخ الكبير. ولكن الإشراف العام على معسكرهم كان لمقدّم المماليك[6]، أو الأمير جمدار وهو برتبة أمير، وله هيبة كبيرة عليهم. فكانوا أشبه بصبيان أو غُلمان الحجر[7]، أو صبيان الخاص، الذين كانوا يربون فى الحجر فى القصر الفاطمى، وإن كان هؤلاء من أولاد الناس «المصريين»، وليسوا من المماليك، أو أشبه بالمماليك الأجلاب أو الجلبان أو المشتراوات[8]، بمعنى جلبهم أو شرائهم، فى وقت دولة سلاطين المماليك؛ حيث كانوا يتعلمون فى المدارس

---

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤١.
(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٤٠.
(٣) نفسه، ١ / ٢ ص ٢٧٥. مفردها ترابى.
(٤) أنظر. El - Beheiry: OP. Cit, p. 49, 76.
(٥) هى كلمة تركية مفردة وجمع، أصلها طابوشى، ولعلها بمعنى الطاووس للتعبير عن الرجل الجميل. عنها بتفصيل:
Ency del L'Isl, (art Tawâshí) t4, p. 740; Dozy : Suppl, 2, p. 67; El - Beheiry: Op. Cit, p.49, 76.
(٦) صبح، ١ص ١٧٣؛ السلوك ١ / ٢ ص ٣٧٠، كان يطلق عليه ايضا: امير جاندار. أنظر: El- Beheiry p. 69، وجان تعنى الأخ، ودار بمعنى ممسك؛ فالمقصود هو الأمير الممسك بالروح، أي انه يقتل من يأمر السلطان به. بتفصيل: Dozy: Suppl, I,. 168; Ency de L'Isl ,(art Jandâr) tI, p. 1043 ؛ ماجد، نظم المماليك، ٢ ص ٤٨ ـ ٤٩ وهامش
(٧) الخطط، ٢ص ٣٠٩ ـ ٣١١؛ انظر. ماجد، نظم الفاطميين ـ الجزء الاول.
(٨) عن هذه التسميات: ابن شاهين، زبدة، ص ١١٦؛ وبتفصيل وهوامش: ماجد، نظم المماليك، الجزء الاول.

الحربية، التى سميت بالأطباق ومفردها طبق. ولايعنى هذا أن جميع المماليك كانوا يذهبون للتعليم، بل منهم من كان يلحق مباشرة بخدمة السلطان.

فكان أهم شىء يتعلمه المملوك الفروسية(١)، التى لدينا عنها مؤلفات من كبار شيوخ أساتذة الفروسية، فى وقت دولة سلاطين المماليك، وهى مكتوبة بالعربية، ومصحوبة برسومات حية ورائعة، ومعظمها لايزال يوجد مخطوطاً(٢). ولاشك أن أساس علم الفروسية هو الفرس، الذى اعتبر عربى الأصل؛ لأنه قيل: إن إسماعيل-وإليه ينتسب العرب-هو أول من ذلله(٣)؛ كما أن الفروسية اعتبرت من السنة النبوية، فينسب إلى النبى أنه مدح الخيل(٤). كذلك توافرت لخيول المماليك معداتها فى الركاب خاناه(٥) بالقلعة، وهى مختلفة الأسماء والألوان، ومنها مايدهش لجمالها ومتانتها وثمنها الغالى، وقد يوجد بها من الذهب والفضة مايكفى لسك العملة(٦)، وأصبحت لها أسواقها المتخصصة بالقاهرة مثل: سوق اللجميين، وسوق المهمازيين(٧).

---

(١) بتفصيل: Ency of Isl, (art Furúsiyya) 2 ed, t2, p. 951.

(٢) مثل: كتاب الفروسية، لنجم الدين حسن الرماح - المعروف بالأحدب، والملقب بالأستاذ (ت ٦٩٥هـ / ١٢٦٣م)، وهو مخطوط فى المكتبة الأهلية (B.N)، برقم 2825، ويوجد فى ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية، برقم ٣٨ فروسية، وكتاب نهاية السؤل والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية، لبكتوت الرماح (ت ٧١١هـ / ١٣١١م)، وهو مخطوط فى (B.N)، برقم 2828، ومصور فى معهد المخطوطات العربية؛ برقم ٥٠ مصادر عامة، وغاية المقصود فى العلم والعمل بالبنود، لمحمد بن لاجين المعروف بالطرابلسى، وهومخطوط فى(B.N)، برقم 2827

(٣) بتفصيل. نبيل، الخيل، القاهرة ١٩٧٦.

(٤) صبح الأعشى، ٤ص ١٢؛ زبدة، ص ١٥٤.

(٥) صبح الأعشى، ٤ص ٢١٢؛ انظر. ماجد، نظم المماليك، ٢ص ٢٨.

(٦) صبح الأعشى، ٣ص ٤٦٣.

(٧) الخطط، ٣ص ١٥٨، ١٥٩. فنذكر من أنواع معدات الخيل: القرابيس، ومفردها قربوس، وهى مقدمة السرج وخلفه، واللجم ومفردها لجام، والسيور وهى من الجلد، والركاب الحديد الذى هو من اختراع المهلب ابن أبى صفرة (ت ٨٣هـ / ٧٠٢م)، بعد أن كان من الخشب، والكنابيش ومفردها كنبوش، ويوضع على رأس الخيل، والمهماز وهو آلة من حديد تكون فى رجل الراكب فوق كعبه، والزنار، وهو مايوجد فى أسفل السرج، والعبى جمع عباءة، وهى البراذع، وغير ذلك. عنها: صبح الأعشى، ٣ص ٢٠٤؛ انظر.ماجد، نظم المماليك، الجزء الثانى على الخصوص. أنظر Dozy؛ فى قاموسه بجزئيه: Supplément .

ولم تكن الفروسية عند المماليك بالشجاعة فقط، أو المهارة فى ركوب الخيل والجرى بها بسرج أو من غير سرج، أو القتال من على ظهورها، وإنما كانت لها قوانينها العلمية وفنونها[١]، نتيجة للممارسة الحقيقية، والتدريب المستمر لها، وخاصة أنها تعنى لهم التفوق على الرغم من عقدة الرق، والحماية للوطن الذى على أرضه يعيشون، ولاسيما أن من شرب ماء النيل يُنسى الغريب وطنه، وحماية دين الإسلام على الخصوص. فكان أساس تعلم الفروسية، ما عرف اصطلاحًا بالناورد[٢]، وجمعها الناوردات، ومنها الناورد الصغير والكبير، أو ما كان يطلق عليه[٣] أيضًا بند، وجمعها بنود، ومن مظاهرها: المنازلة وهى المبارزة؛ حيث يكون الضرب على الأطراف والوجه وليس على الحديد، والمطاردة ولها ستة عشر وجهاً، وهى: المفارقة، والمقابلة، والملاصقة، والمضايقة، على حسب المسافة، التى قد تصل أحياناً إلى شبر واحد، فيكون هدف الفارس وضع رجله فى سرج خصمه حتى يسقط، أو قطع لجام فرسه، فإذا وقع، ينتظره حتى يتدلى، ويلحق به قبل أن يستوى، فيصرعه هو ودابته، أو بالكسرات التى تكون دقيقة وشديدة، بالنقل خلفه وقدامه، وعن يمينه ويساره وشماله. مستقيمًا أو معوجًا، حتى يوقع به؛ فإذا تلامس فعليه أن يستعمل كل أسلحته، أما إذا انقطع سرج الفارس نفسه أو لجامه أو ركابه؛ فإنه يدهش خصمه بأى شىء، ولو برميه بحجر، وإذا ما خرج له فارسان أو أكثر فيستعمل الحيل والعقل؛ فيحمل على أدناهما بأسرع مايمكن، ويرجع للآخر، ويستجاز الهرب أحيانًا.

كذلك على المملوك أن يستخدم سلاحه بمهارة، وبخاصة سيفه فى القتال، أو اللعب به[٤]، فهو أفضل الآلات الحربية وأجلها عنده، وشبهه بالأسد بين الوحوش، والفرس بين الدواب، فيتعلم الطعن به فى حائط طين ناعم، وقد يصل التدريب بسيفه الى ألف طعنة[٥]، فبه يكسر سيف عدوه ويهشم بيضته ـ خوذته ـ

---

(١) محمد بن منكلى، التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية. مخطوط بجامعة القاهرة، برقم ٢٦٣٣٨١.

(٢) عن هذه اللفظة: . Dozy: Suppl, 2,p. 638

(٣) حسن الرماح، مخطوط برقم: 2825, ; وانظر. قبله، مخطوط ابن لاجين العلم والعمل بالبنود، انظر.

(٤) السلوك، ١ / ٣ ص ٨٨٦.

(٥) إبن إياس، ٣ص ١٣ س ١.

وجميع سلاحه، ويكون ضروريًّا فى التلاقى والتخلص، ويضع سيفه عادة فى سرجه عند ركبته اليمنى. ويلى السيف الرمح، ويقارن به، ويطلق عليه الرمح المبارك، وهو أنواع منه: الرماح العسكرية وتسمى الموكبية، والرماح الطوال، وسنانها قد تكون رومانية أو حجازية، وتكون الرماح برأس أو برأسين، وعلى شكل زهورات غالبًا، فيمسكه الفارس باليد اليسرى، أما اليد اليمنى فتأخذ بالعنان، وقد ينقله من يد إلى يد، ويضعه تحت الإبط، أو على الكتف، فكان للرمح متخصصون فى تعليمه سموا: معلمى الرمح، ويرأسهم معلم المعلمين[١]؛ مما يؤكد أهمية الرمح كسلاح عند المملوك. ويكون التعامل بالرمح عن طريق الطعان[٢]، وله اثنتا عشرة نقلة، واثنتا عشرة طعنة، وأساسه ضرب رمح عدوه إلى فوق ليجرده منه، وهذه الطريقة فى استعماله كانت تستخدم من أيام الفراعنة.
ومن أسلحة المملوك الأخرى: الأعمدة، ومفردها عمود[٣]، ويهشم به سيف عدوه أو رمحه أوخوذته، وقد يوازى الرمح ويقارن بالسيف، ويستعمل معه عادة الخنجر. ويلى العمود السيف والرمح. والدبابيس[٤]، ومفردها دبوس، وهو عمود له رأس واحدة أو رأسان من الحديد؛ ومنها نوع دبوس الرش، وتوضع فيه النيران. والحراب، ومفردها حربة[٥]، وتستخدم فى شكل ثمان وخمسين حركة. والمزاريق ومُفردها مزراق[٦]، ورأسه تكون أغلظ من أطرافه. والنُشاب ومفردها نشابة[٧]، وهى سهام خشبية صغيرة، ذات نصول مثلثة الأركان. والقسىّ، ومفردها القوس[٨]، وأهمها قوس الركاب التى تشد من ركاب الخيل، وتتكون من عمود له مفتاح، والسهم يوضع فى القضيب، ويرمى به الفارس على الأهداف الثابتة والمتحركة، وغير ذلك.

---

(١) نفسه، ٢ص ٤١ س ٨، ٣ص ٣س ٢٥.
(٢) الخطط، ٣ص ١٨١س ١١ ومابعدها.
(٣) حسن الرماح، الفروسية، مخطوط برقم 2825 (B.N)، ورقة ٣٣.
(٤) صبح الأعشى، ٢ص ١٤٢؛ السلوك، ١ / ٣ ص ٨٨٦ س ٩؛ انظر. Dozy: Suppl, I, p. 423
(٥) أنظر حسن الرماح، انظر .Suppl, I,p. 264
(٦) حسين الرماح، ورقة ٤٨.
(٧) الخطط، ٢ص ٢٦٨ س ٢٤ ـ ٢٥؛ انظر . ماجد، نظم المماليك، ١ص ١٦٨، ٢ ص ٢٥.
(٨) عن وصفها، انظر. الخطط، ٢ص ٢٦٨؛ ابن هذيل، كتاب الفرسان وشعار الشجعان، تحقيق عبدالغنى، ص ٢١١؛ انظر ماجد، نظم المماليك، ١ص ١٦٨؛و Suppl, 2, p. 418.:Dozy

فكان المماليك يقيمون مباريات الفروسية بحضور السلطان الأيوبى؛ الذى أقام لها ميدانًا خاصًا[١] تنصب فيه أحيانًا خيمة كبيرة له «دهليزًا»، وخيامًا أخرى للاستراحة[٢]. ولعل أهم رياضة كان يمارسها المماليك؛ هى لعبة الكرة من على ظهور الخيل، وكان نجم الدين مغرمًا بلعبها، ويكون ضربها بالصولجان[٣]، وهى العصا، وتعرف هذه اللعبة حاليا باسم: البولو «Polo»، والصولجان يعنى المضرب، وكان أول من لعبها فى مصر ابن طولون[٤]؛ كما نسب للرشيد لعبها من قبل[٥]. كذلك انتشرت بين المماليك لعبة أخرى اسمها: القَبق، أو ماسمى القِباق، أو رمى القِبق أيضًا[٦]، ولها صور فى الكتب المملوكية[٧]،والقبَق هو اسم تركى لنبات القرعة الصلب؛ وإن أطلق فى العربية على الهدف، الذى استعمل فى الرماية، وتكون من ذهب أو فضة، ويوضع فيها طير مثل الحمام، ويرمونها بالنشاب، وهى السهام، من على ظهور الخيل؛ وقد خصص فى أيام دولة سلاطين المماليك للعبة القبق ميدانًا سمى: ميدان القبق. كذلك كان من ضمن الرياضة المملوكية اللعب بالرماح والمطاردة بها[٨]. ويقول الجاحظ: إنه لايوجد مثل التركى فى ركوب الخيل، ورميه السهام أو الحراب من على ظهورها، فإنه يصيب أى شىء حتى العصفور[٩] فالفروسية عند المماليك اعتبرت محك الرجولة والإقدام،

---

(١) أنظر. قبله

(٢) الخطط، ٣ص ١٥١ س ١٤؛ ١٨٣ س ١١

(٣) عرفت بأسماء فارسية متعددة، مثل: الصوالجة. (الصوالج)، والجوكان. بتفصيل. صبح الأعشى، ٥ص٤٥٨؛ انظر. Dozy Suppl, I. 30, 235.

(٤) الخطط، ١ص ٣١٣.

(٥) السلوك، ١ / ١ ص ١٦ س ٣.

(٦) بتفصيل· نفسه، ٢ / ٢ ص ٥١٨، ٥١٩ وهامش (١)؛ الخطط، ٣ص ١٨٠ س ١٨ ومابعدها، ١٨١ س ٨ ومابعدها، ١٨٢ س ٤، ومابعدها؛نظر. ماجد، نظم المماليك، ٢ ص ١٤٢، Dozy: Suppl, 2, p.303

(٧) أنظر. Abd ar - Ráziq Deux Jeux Sportifs en Egypte au temps de Mamlúks, Islamologique. Cf.

(٨) السلوك ١ / ٢ ص ٣٧٧.

(٩) المسعودى، مروج، ٣ص ٣٥٦.

ولاسيما أنهم كانوا يختلفون عن بقية سكان مصر بميزاتهم الجسدية، وبطابعهم العسكرى الصرف؛ فكانوا جميعًا ذوى قامة مديدة، وبنية شديدة، وتقاطيع خلقتهم متناسقة[١].

ويبدو أن إعتاق المملوك كان يتم بعد انتهائه من دراسته العسكرية، ويكون بالجملة، ويقام له احتفال كبير يحضره السلطان والأمراء؛ بمنحه شهادة تسمى: إعتاق أو عتاقة، ويسلّم للمملوك سلاحًا وفرسًا، ولباسًا خاصًّا «قماشًا» وإقطاعًا يبقى له مدى الحياة، وغلمانًا لخدمته[٢]؛ وحينئذ يسمى عتيقًا أو معتوقًا، وجمعها معاتيق؛ أو مستخرَجا[٣]، أى موظفًا فى الدولة، ويصبح السلطان أستاذه[٤]؛ أما رفاقه المتخرجون معه، فيسمون خشداشية، ومفردها خُشداش[٥].

وقد كان من المفروض أن المملوك لا يحصل على مرتبة الإمارة إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة؛ حيث يميّز من مرايتها من مراتبها فى وقت الأيوبيين أمير مقدم ألف[٦]، بمعنى أنه يقود ألفًا من العسكر، وأمير طبلخاناه، ويقود أربعين من العسكر[٧]. فلا يلى الواحد منهم الإمارة إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج بروح الإسلام، وبرع فى الفنون الحربية، فقد تميّز أمراء المماليك بالتربية العالية لأفرادها.

وقد كانت لغة المماليك هى اللغة التركية[٨] ـ وهى لغة مملوءة بالفارسية والعربية ـ حتى ولو لم يكونوا تركًا. ومع ذلك فإنه فى زمن الأيوبيين، ثم فى

---

(١) ابن تغرى بردى، منتخبات، ٢ص ٢٤٠ س ٣، ٣٣٥ س ٢٠.

(٢) ابن إياس، ٣ ص ٦٨.

(٣) نفسه؛ انظر. Dozy: Suppl I, P. 360

(٤) نفسه، ١ ص ١٥١ س ١٢، ١٧، ٢١٩ س ١٤.

(٥) مثلاً: ابن إياس، ١ ص ١١٤؛ حوادث، ص ٣٢٣ س ٢٠. هى كلمة معربة عن اللفظ الفارسى: خواجه تاش، أى زميل الخدمة. وهى الخشداشية، أو الخجداشية، ـ أو خشداشين، وانفرد خشداش. أنظر: Steingass: Pers; Ency Dict CF؛ السلوك، ٢ ص ٣٨٨ ـ ٣٨٩، وملاحظة(٣)

(٦) مفرج الكروب، ٣ص ١١٧؛ انظر. El - Beheiry Op. Cit, P. 14.

(٧) صبح الأعشى، ٤ ص ١٥، ١٩، ٢٠؛ انظر. El - Beheiry: Op. Cit, p 24.

(٨) زبدة، ص ٩٩.

دولة سلاطين المماليك من بعدهم، كان تعليمهم العربية إجباريًّا ؛ حتى أن كثيرًا منهم أتقن العربية، وأصبح فصيح اللسان بها، وله مسائل فى الفقه عويصة، يرجع له فيها العلماء[١].

* *

ولكن انتقال سلطة الحكم فى مصر إلى المماليك، نُسب على الخصوص إلى شجرة الدر؛ حينما أتيحت الفرصة قوية للمماليك بالتدخل فى الحكم، لما جاءت مصر الحملة الصليبية السابعة، ومات السلطان نجم الدين فى المنصورة، وهو يترقب نتائجها، فجمعت شجرة الدر مماليكه، وأغلبهم من التركمان، وتكتموا خبر موته. ولما قتل قائد الجيش المملوكى فخر الدين بن شيخ الشيوخ[٢] فى أثناء قتالهم، فإن شجرة الدر كفلت قيادته الجيش إلى أبرز المماليك البحرية، وهو الأمير بيبرس[٣]، الذى اسمه يعنى الفهد، ولد فى بلاد القفجاق فى عام ٦٢٠هـ / ١٢٣٣م، وبيع للملك الصالح بأربعين دينارًا ،(أو عشرين جنيهًا) فقط؛ ولأنه كان مجروحًا عند العين، ولأن سيده اسمه إيدكين بندقدار، الذى عمل فى خدمة الملك الصالح وهو فى الشام؛ فنسب بيبرس إلى الاثنين، فعرف بالصالحى والبندقدارى، أو بسبب مهارته فى رمى البندق، من البندقية؛ كما ذكرنا قبلاً. وكان بيبرس يمتاز بالذكاء والفروسية، وتدرّب على قتال أعداء المسلمين؛ فكان تعيينه فى قيادة الجيش الأيوبى إيذانا بوضع قوة الدولة الأيوبية الحربية بالفعل فى يد المماليك.

وفى الوقت ذاته أرسلت شجرة الدر إلى مقدّم المماليك البحرية ـ وله لقب الجمدار أيضًا واسمه فارس الدين أقطاى (أو اقطيا) الصالحى، نسبة إلى أستاذه الملك الصالح وكان قد اشتراه بألف دينار؛ ليدعو توران شاه ولىّ العهد من بلاد الجزيرة إذ كان خليل ابن شجرة الدر قد توفى وهو صغير، كما ذكرنا.

---

(١) ابن إياس، ٢ص ٣٤، ١٣٥؛ انظر. ماجد، نظم المماليك،١ ص ١٩.
(٢) أنظر. قبله.
(٣) صبح الأعشى، ٢ص ١٤٥، ص ٤٥٨؛ السلوك، ١ص ٦٣٧ س ١ ـ ١٤؛ انظر. جمال سرور، بيبرس، ١٩٣٨، ص ٢٩؛ Ency of ISI, (art Baybars I) 2ed, tI,P. 1124 sqq؛ وقبله.

كذلك مملوكًا ثالثًـا، وهو عز الدين أيبك ـ بمعنى الأمير القمـر ـ الجاشنكير الصالحى[1]، أى من كانت وظيفته تذوق الطعام قبل أن يتناوله السلطان، وكان مع الملك الصالح فى بلاد الجزيرة قبل مـجيئه مصر، وله جماعـه خاصة من المماليك الخوارزميـة، التى هربت من أيام المغول، وتزعمـهم مملوك منهم وهو قطز؛ وكان أخلص مماليكه، وعرف أيبك ومملوكه قطز بجـرأتهما فى القتال، وقد أصـبحا اليد اليمنى لشجرة الدر فى كل قراراتها.

ولما وصل توران شـاه إلى مصر، الذى لقّـب بالسلطان الملك المعظم، وهزم الفرنسيين هزيمة ساحـقة فى فارسكور؛ فإنه مع نجاحه الكبيـر؛ إلا أن تصرفه نحو مماليك أبيـه؛ حدد لمن سـتئـول السلطة والسـيطرة فى مصـر، سـتكون للأيوبيين الأكراد، أم لطبقة المماليك التركمان. وعلى كل حال، كان توران شاه، يقدّر لهذا الصراع مقداره، بحيث كان قد حضر ومعه الأكراد من بنى جنسه، مع أن أباه كان قد ترك له وصـية ولدينا نصـها[2] ؛ نصحـه فيها بضـرورة الاستمـاع إلى نصائح شجرة الدر زوجته، واستمالة قلوب مماليك أبيه.

ففى أول يوم وصوله إلى مصر، عمد إلى أن يقاوم سلطة المماليك التركمان المتزايدة فى الدولة. فمثلا تنكر لفـارس الدين أقطاى الجمدار، وهو مقدّم المماليك البـحرية، الذى أرسلتـه شـجرة الدر لاسـتدعـائه من بلاد الجـزيرة، فأبعـده عن مجالسه، وكان يضرب برءوس الشمع المشتعل حتى تتقطع، ويقول: هكذا سأفعل بالبحرية[3]، ويضرب بشمعة شمعة، بعد أن يسميها باسم: المملوك.

(١) صبح الأعشى، ٤ص ٢١، ٥ ص ٤٦٠؛ Corpus, I, P. 2؛ انظر. نظم المماليك، ٢ ص ٤٩. كلمة «الجاشنكير»؛ مكونـة من كلمة جاشي ومعناها ذوق؛ و«كيـر» ومعناها المتناول. أما أيبك، فهى كلمـة تركية بمعنى القمر السلوك، ١ / ٢ ص ٣٦٨ وهامش.
Qutremère:Htst des SultansMamlouksParis, I, p. t, no. 2, .

(٢) انظر تـفصيـل عنها فى رسـالة محمـد محـمـد أمين، نقـلاً عن النويرى فى نهايـة الأرب . . رسالة ماجستير الملك الصالح نجم الدين أيوب، صفحات ٢٢٩ ـ ٢٤٩ .

(٣) النجوم، ٦ ص ٣٧١.

ومع ذلك؛ فإن المماليك البحرية لم يثوروا عليه؛ إلا حينما تجرأ على شجرة الدر، وكانت هى التى رفعتهم إلى أعلى مراتب الدولة بعد موت زوجها، فأخذ يحاسبها على مال أبيه، ويطالبها به، وبالجواهر عندها[1]. فقرر المماليك البحرية قتله بفارسكور، وقيل: إن شجرة الدر نفسها، أمرتهم بذلك. فدبرت مؤامرة لقتله فى المأدبة التى أقيمت احتفالاً بالنصر على الفرنسيين، فى ليلة الإثنين ١٩ من المحرم سنة ٦٤٨هـ / ٢٣ أبريل ١٢٥٠م[2]؛ حيث وصف الفارس الفرنسى جوانفيل «Joinville»[3] قتله؛ بلغته الفرنسية الدارجة، بما يتفق مع المصادر الإسلامية. ولما رأى توران شاه السيوف تلمع أمام عينيه حاول الهرب، فعاجله بيبرس بضربة سيف قطعت أصابعه، فأسرع إلى البرج الخشبى الذى نصب بفارسكور، والدماء تنزف من أصابعه؛ فأشعل المماليك النيران فى البرج وأحرقوه، ومع أن النار اشتعلت بجسده؛ فإنه رمى بنفسه فى النيل، وهو يقول: لاتقتلونى، ولا أريد ملكًا. ولكن النُشاب، وهى السهام عاجلته، وسبح بعض البحرية وراءه، بما فيهم بيبرس قائد الجيش، وقطّعوه بالسيف؛ حتى مات جريحًا حريقًا غريقًا. فأخرج أقطاى قلبه، وقدّمه لملك فرنسا، الذى لم يكن غادر المنصورة بعد، حيث كان توران شاه قد أساء إليه بعد أسره، وبذلك انتهى حكم توران شاه، الذى لم يتم غير شهرين.

عندئذ وجد موقف سياسى دقيق؛ إذ وجد عدة أشخاص من كبار المماليك الترك أو طائفة البحرية، كل منهم يطمع فى حكم مصر، وهم: بيبرس قائد الجيش، وفارس الدين أقطاى الجمدار مقّدم المماليك البحرية، وعز الدين أيبك الجاشنكير، الذى كان قد حاز على مايظهر على قلب شجرة الدر. فكان خوف كل واحد من هؤلاء الطامحين من الآخر؛ ما جعلهم يتفقون على سلطنة شجرة

---

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك فى دولة الأتراك، مخطوط، ورقات ٥ أ ـ ٥ب.

(٢) نفسه، وقيل فى ٢ من صفر سنة ٦٤٨هـ / ٢ مايو ١٢٥٠م.

(٣) أنظر Joinville: Op. Cit, Lxix. cf

الدر. فاجتمعوا فى خيمة «دهليز» سلطانى، وحلفوا لها، حيث أخبرها أيبك باختيارها ملكة على مصر؛ فأعجبها ذلك بملاحظة المقريزى[١]، كما حلف لها الأجناد وهم ليسوا من المماليك، وإنما من الشعب المصرى، مما يدل على موافقة الجميع فى أن تكون شجرة الدر ملكة عليهم. وفى الوقت نفسه تقرر أن يكون عز الدين أيبك مدبرًا للمملكة، وأتابكًا للعسكر وهم الأجناد المصريون، وتكون شجرة الدر وحدها صاحبة القرار بتوقيع «العلامات السلطانية»[٢].

ولكى تبقى شجرة الدر على سلطانها، اعتمدت كلية على المماليك البحرية من دون المماليك الآخرين؛ إذ هى الأخرى كانت مثلهم من رقيق الترك؛ بحيث زادت قبضتهم على المملكة. وبالفعل، فإن عز الدين أيبك كان لايتصرف فى أى أمر إلا بعد مشورتها، فكانت توقع على المراسم بعلامتها السلطانية «والدة خليل». وقد نسبت شجرة الدر نفسها إلى الخليفة العباسى المستعصم؛ فأصبحت تلّقب بالمستعصمية، ملكة المسلمين ويدعى لها على منابر مصر بعد الدعاء للخليفة بألقابها النسائية فيقال[٣]: واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدين والدنيا، ذات الحجاب الجميل، والستر الجليل، والدة المرحوم خليل، وزوجة الملك الصالح نجم الدين، وغير ذلك من الصيغ المتشابهة أو المختصرة. كذلك نُقش اسمها على الدينار والدرهم[٤]، ويوجد دينار وحيد بالنقشين بألقاب الخليفة العباسى المستعصم معها، محفوظًا فى المتحف البريطانى "B.M" بلندن بتاريخ ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠م، فشجرة الدر تعتبر أول امرأة مسلمة تولت عرش مصر.

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٦٢.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه؛ انظر. Lane - Poole: A History, of of Egypt, p. 225.
(٤) انظر: Lane - Poole: Calalogue, iv, 136. يذكر هريدى فى فهرست خطط مصرفى Ann. Isl, xx / 2, 1983 P. 137;139؛ توجد تفاصيل عن سكة شجرة الدر ونقشها.

وعلى ما يظهر لم يجد حكم امرأة فى مصر معارضة من المصريين، ولاسيما امرأة قوية الشخصية مثلها، فهى وصفت بأنها صعبة الخلق، قوية البأس[1]. بل وبعض المؤرخين مثل السيوطى يقول صراحة: إن المصريين هم الذين ولوها، وقاتلوا توران شاه، الملقب بالمعظّم من قبل، وقتل من المصريين طائفة كبيرة؛ بسبب ذلك. كذلك نصوص أخرى تذكر أنه ولاها أعيان الدولة، وأهل المشورة فى البلاد. وهم العلماء أهل الحل والعقد؛ لتكون ملكة على مصر[2]. فما من شك أن شجرة الدر قد أصبحت مصرية بحكم الإقامة فى مصر؛ وأن المصريين أحبوها وأحبتهم. وعلى كل حال، هذا يدل على حيوية الرأى العام فى مصر وإيجابيته فى أحداث بلده الهامة.

فالمصريون كان لاضير عليهم من أن تحكمهم امرأة، وهم الذين تعودوا على أن يروا النساء بجانب الرجال فى المُلك طوال زمن تاريخهم؛ فقد حكمتهم بعض النساء فى العصر الفرعونى، وفى الإسلام، وجدت ملكات قويات فى مصر فى وقت الفاطميين، سيطرن على الحكم، مثل: ست الملك أخت الحاكم بأمر الله، والملكة سلطانة أخت الظاهر لدين الله، والملكة رصد أم المستنصر بالله، التى كانت لها مثل أخت الظاهر، علامة خاصة، توقع بها على المكاتبات الرسمية، وهى عبارة: «الحمد لله ولىّ كل نعمة»[3]، وأن الملكة الحرّة السيدة أروى حكمت للفاطميين فى اليمن، وهذه البلاد مثل مصر كانت قد تعودت على أن يحكمها ملكات؛ عرفن فى التاريخ باسم: «سبأ» فى العصر القديم. بل قبل شجرة الدر فى وقت الأيوبيين؛ وجدت الست السوداء، وكانت مصرية صميمة، وأبوها الشيخ نصر، وكان الملك الكامل الأيوبى يؤثرها على جميع جواريه ونسائه، بحيث أصبحت تدير شئون المملكة بعد موته لابنها العادل الصغير [الثانى]، وهو أخو الملك الصالح، زوج شجرة الدر.

---

(١) ابن إياس، ١ ص ٩١.
(٢) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٦٨.
(٣) السجلات المستنصرية، تقديم وتحقيق ماجد، ط٢؛ سجل ٥١ و ٥٢.

ولكن المعارضة لحكم امـرأة فى مصر، جاءت من خارج مصـر، من الخليفة العراقى، المتـربع على سرير الخلافـة فى بغداد؛ والغارق لأذنـيه فى الملذات، فلم يعجـبه أن تحكم الرجال امـرأة. ويذكر المؤرخون أن الخـليفة العـباسى المستـعصم وقتـذاك، عاتب أهل مـصر فى ذلك، وقال لهم: «إن كـانت الرجال قـد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً»[١]. كذلك الأيوبيون فى الشام، رفضوا الاعتراف بشجرة الدر ملكة فى مصر، وهى من رقيق المماليك التركمان، خوفاً من أن تضيع مصر من الأيوبيين. وهنا جدير بالذكر نقل رأى الفيلسوف الأندلسى ابن رشد بشأن توليّة النساء الحكم، نقله عن الفـقيه والمؤرخ الطبرى؛ فى أنه يجوز أن تكون المرأة حـاكمة، وأنـه وغيّره أجـازوا لها تولى القـضاء أيضـًا، وهو نوع من الحكم. وعلى العكس؛ فإن أمراء المماليك وغيرهم ـ ويقصد فى النص المصريين ـ جددوا الإيمان بالبيعة لشجرة الدر[٢]، التى تفـوقت بإرادتها على إرادة بقـية ملوك بلاد الإسلام فى وقتها، بمن فيهم خليفة المسلمين فى بغداد.

عندئذ خلعت شجرة الدر نفسها، بعد حكم دام أقل من ثلاثة أشهر (ثمانين يوما)، وإن أبقت على السلطة الفعلـية فى يدها؛ لأنها تزوجت من أحد الطامحين الثلاثة وهم من كبار المماليك البحرية، هو عز الدين أيبك الصالحى[٣]، الذى كان مقربًا لها، ويمثل طبقة المماليك التركمان فى مصر؛ فعرف لذلك بالتركمانى أيضًا، إلا أنه لم يستطـع أن يستولى على السلطـة الكاملة للممالـيك فى الحكم؛ لوجود ملوك الأيوبيين فى الشام فى معظم مدنها الهامة، فى: حلب، وحمص، ودمشق، وكَرك، وكلـهم يرى أن مصر جـزء من دولة الأيوبيين، ولاسـيما أظهـرهم الملك

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٨٦

(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٦٧

(٣) عن حياته، انظر ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، ط ١، تحقيق نجاتى، القاهرة ١٩٥٦، ١ ص ٥ ومابعدها.

الناصر يوسف، عم الملك الصالح أيوب، كما لم يعجبهم قتل توران شاه[1]، وهو واحد منهم، فهم على عكس المماليك، لهم نبل الأصل، ويتقلدون حكمهم من الخليفة العباسى، الذى أيد شرعية حكمهم.

لذلك؛ فإن أيبك التركمانى اختار طفلاً صغيراً من الأيوبيين، عمره ست سنوات، هو حفيد من ستة أحفاد للملك الكامل الأيوبى، ولقبه بالملك الأشرف موسى[2]، وجعل نفسه أتابكًا له[3]، حيث لدينا عملة باسم أيبك الأتابك، والملك الأشرف، بتاريخى ٦٥١ و ٦٥٢هـ / ١٢٥٣، ١٢٥٤م[4]. فكان يُخطب لهما معًا مع الخليفة، وصارت التواقيع تخرج باسميهما[5]. ولكن ملوك الأيوبيين فى الشام، رفضوا تصرف أيبك، واجتمعوا بقيادة الملك الناصر يوسف لمهاجمة فى مصر، وربما كان الناصر يوسف يريد أن يكون أيبك نائبًا له فى مصر وأن تكون له الخطبة فيها. كذلك ظهر لأيبك عدو آخر من الأيوبيين، منافسا للأشرف موسى فى مصر، هو الملك المغيث عمر، وهو حفيد آخر للكامل، مثل الأشرف موسى، وأعلن نفسه ملكًا فى كَرك والشوبك.

فيخرج أيبك لقتال الأيوبيين على رأس المماليك التركمانية من طائفة البحرية، ويهزمهم فى بِلْبيس قرب الصالحية، التى أقامها الملك الصالح بجوارها، حيث كان فى جيش الأيوبيين قائد اسمه لؤلؤ، من أصل أرمنى، وصف مماليك مصر سخرية بأنهم: «مخانيث»، وأنه قادر على استرجاع مصر بمائتى قناع، أى امرأة. فقد كان الأيوبيون هم الذين استخدموا المماليك التركمان. فينضم مماليك الناصر يوسف إلى أيبك، وينهزم الناصر يوسف، ويتراجع إلى الشام، ولاسيما أن

---

(١) ابن حبيب، درة الإسلاك، اورقات أ ـ ٢ب.
(٢) هو موسى، ابن المسعود يوسف كان يحكم فى اليمن وهو ابن الكامل.
(٣) عن اللفظة؛ قبله.
(٤) أنظر Lane - Poole: H. of Egytrt, p. 256.
(٥) المنهل، ١ ص ٧.

الملك المغيث عـمر، الذى طالب بعرش مصـر، تصالح مع أيبك[1]. وقد استمر النزاع بين أيبك والناصر ست سنوات، واضطر الخليفة العبـاسى المستعصم للتدخل بينهما بالمصـالحة؛ بسبب أن المغول كانت تزحف مـن إيران. واتفق نهائياً على أن تبقى مصر وغزة وعقبة والقدس إلى الأردن، ضمن أملاك الأشرف موسى ووصيه أيبك، وأن يضم الناصر باقى الشام وبلاد الجزيرة[2].

ولكن لما يصل المغول إلى العراق، يعزل أيبك الأشـرف موسى، وينفيه إلى بلاد آسية الصغرى عند الترك السلاجقة، وقتل عددًا كبيرًا من أنصاره من الأيوبيين فى مصـر، وأعلن نفســه نائبًا للخليـفة المسـتعصم، وتلّقب بالسلطـان المعز لدين الله[3]، وطلب التقليد الخليفى من الخليفـة أسوة بملوك الأيوبيين، وبذلك قد يعتبر أيبك أول سلطان لمماليك الترك فى مصر[4]، إذا اعتبرت شجرة الدر من الأيوبيين وإن كان بعـض المؤرخين اعتـبروها أول سلاطين الـترك. والملاحظ أن قـيام دولة الأيوبيين فى مصر، جـاءت نتيجة من نتائج الحمـلات الصليبية، كمـا أن استيلاء المماليك البحرية على زمام الحكم فيها، جاء نتيجة للحملات الصليبية أيضًا.

حقًـا إن شجرة الدر كـانت قد عـزلت نفسهـا، وتنازلت لأيبك عن الحكم ظاهريًا، ووافق أمـراء المماليك على سلطنتـه، بمن فيهم شـجرة الدر ملكة مـصر السابقة؛ ربما لأنه على حسب قـولهم كان من أواسط المماليك[5]، أى من السهل إزالته فى الوقت المناسب. إلا أن أيبك بعد تسلطنه، ووصول التقليد الخلافى؛ فإنه اشتـد ساعده، وسعى إلى أن يكون صـاحب القرار من دون زوجته شـجرة الدر،

---

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٧٣.
(٢) نفسه، ١ / ٢ ص ٣٨٥.
(٣) قيل إنه أعلن سلطنته فى ربيع الأول سنة ٦٤٨هـ / ٤ يوليو ١٢٥٠م، ربما باعـتبار أن سلطنته منذ تولية شجرة الدر الحكم؛ حـيث كان مدبرًا لمملكتها. ولكن من وجـود عملة بتاريخى ٦٥١ و ٦٥٢هـ / ١٢٥٣و ١٢٥٤م؛ باسمى أيبك والأشرف موسى، نرى أن إعلان سلطنته بمفرده كان بعد هذين التاريخين، ولعله قبل سقوط بغداد فى يد المغول فى ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م.
(٤) ابن حبيب، درة الإسلاك، ١ ورقة ٢.
(٥) المنهل، ص ٦.

التى كانت لهـا فرقة خـاصة بها من المـاليك تثق فيـهم. ولذلك لانظن أن عداء شجرة الدر الطارئ لزوجـها أيبك ـ كما تذكر المصادر ـ بسـبب أنه خطب عروسًا أخرى من الأسرة الأيوبيـة، وهى ابنة لؤلؤ أمير الموصل[1]، أو بسبب غيرة نسائية أو مشكلة زوجـية أو وجفاف فى العـواطف، إذ كان لأيبك جوار كثـيرات، وإنما عداؤهـا له أتى من التنافس بينهمـا على السلطة حـتى أصبح كل منهـما يتـربص بالآخر، وبخاصة أن أيبك أصبح ينفرد بالسلطة من دونها، وهى التى كانت طامعة فيها.

حقاً إن أيبك اسـتطاع أن يتخلص من أقطاى الجمدار، مـقدّم المماليك الذى نافسـه منافسة شديـدة على حكم مصر، وكان يـعتزم الزواج هو الآخر من أمـيرة أيوبية، وطالب أيبك أن يُسكنه وعروسه فى القلعة، ولاسيما أنه كان له خشداشية كثيرون[2]، وهم زمـلاؤه فى الطباق. ويبـدو أن أقطاى هذا هو الذى أجبـر أيبك على أن يولى الأشرف موسى الأيوبى معـه فى الحكم؛ حتى لايستقل أيبك بحكم مصـر. ولكن أيبك استـدرج أقطاى إلى القلعة بقصـد مشـاورته وقتله[3]. فلما حاصـر مماليك أقطاى القلعة بقـصد إسقـاط أيبك، رمى لهم أيبك برأس أقطاى، حيث هبره قطز وهو من المماليك الخوارزمية وغيره بالسيوف. فتفرق مماليك أقطاى على رأسـهم بيبـرس، وهربوا جـميـعًا إلى الشـام عند الأيوبيين، أو عند أمـراء السلاجقة الروم فى آسيـة الصغرى؛ فأرسل أيبك وراءهم من حذر ملوك الأيوبيين وأمراء السلاجقة منهم.

إلا أن أيبك عجز عن إحـباط المؤامرة التى دبرتها له شـجرة الدر لقتله على الرغم من أنه أحس بقصـدها، وعمد هو الآخر إلى تدبيـر مؤامرة لقتلـها، وكان لأيبك منجم أخبره بأنه سيقتل على يد امرأة[4]، وقد ظهر تدبيره أيبك لقتل شجرة الدر حينمـا أنزلها من القلعة مـركز الحكم إلى دار الوزارة[5]، غير أن شجرة الدر

---

(١) السلوك، ١ / ٢ ص ٤٠٢؛ ابن حبيب، درة الأسلاك، ١ ورقـة ٢٢ ب؛ انظر . ماجد، دولة سلاطين المماليك ٢ ص ٨٤

(٢) عن هذه اللفظة، انظر . قبله.

(٣) السلوك، ١ / ٢ ص ٣٨٧ ومابعدها. فى ٦٤٩هـ / ١٢٥١م.

(٤) المنهل، ١ ص ١٢

(٥) السلوك، ١ / ٢ ص ٣ ٤

كانت أسرع منه، وربما كاتبت الناصر يوسف فى دمشق وهو أكبر ملك أيوبى، بأنها عزمت على قتل أيبك، وتمليكه مصر(١). وبالفعل عمدت شجرة الدر تخبئة خمسة من خدمها المخلصين فى الحمام لخنق أيبك، وربما كان منهم بعض خدم لأقطاى الذى قتله أيبك. وعلى الرغم من توسلاته لشجرة الدر، التى كاد قلبها يلين، لولا أن القتلة قالوا لها إن خرج حيًّا فلن يبق عليهم أو عليها؛ فقتلوه خنقًا، وادعوا أنه مات بالصرع؛ كما قيل فى موته أن الخدم وثبوا عليه وأمسكوه، وصارت هى تضربه بالقبقاب إلى أن فارق الحياة(٢)، أو أنه لما دخل الحمام قفلته عليه، فبقى فيه إلى أن مات، وكان ذلك فى ليلة الأربعاء ١٤ من ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ / ٢٨ فبراير ١٢٦٠.

ولكن كان لأيبك مماليك خاصة به كما ذكرنا، كان اشتراهم من جماعة الخوارزمية، التى هربت من أمام المغول بعد هزيمتها؛ تزعمهم المملوك قطز، الذى كان خاله جلال الدين خوارزم شاه، استرق وبيع فى دمشق، ثم فى القاهرة لأيبك، حيث اعتبر من أخلص مماليكه. فولى قطز علىّ بن أيبك، وكان صبيًّا عمره حوالى خمس عشرة سنة، ولقب باسم: الملك المنصور، وعين نفسه أتابكًا له - أى وصيًّا عليه - وسك العملة باسمه(٣). فأمر علىّ بن أيبك بقتل شجرة الدر، قاتلة أبيه؛ بأن سلَّمها لجوارى أم علىّ، اللاتى قتلنها بالقباقيب(٤)، بحيث سحقت تحتها كحشرة، وألقوا بجسدها للكلاب، وليس عليها سوى سروال وقميص؛ وذلك بعد ثلاثة أيام من قتل أيبك. وكان من قوة نفسها لما علمت بأنها قد أحيط بها، أن أتلفت كل مجوهراتها واللآلى، وكسرتها فى الهاون، وذرتها فى الريح. وقد أحب المصريون شجرة الدر من دون زوجها أيبك، الذى قتل خلقًا كثيرًا منهم، وشنق عالمًا من الناس بغير ذنب؛ ليوقع فى القلوب مهابته؛ بينما هى كانت رمزًا عندهم للمرأة العطوفة عليهم؛ ولايزال قبرها ويوجد فى مسجدها، الذى بنته بجوار مسجد السيدة نفيسة بالقاهرة يزار للآن.

---

(١) نفسه، ١ / ٢ ص ٤٠٢.

(٢) مورد اللطافة، ص ٢٤

(٣) أنظر. Lavoix: Cataiogue des Monnaies Musulmanes. Egypte. Paris, 1887 - 91, p. 275.

(٤) السلوك، ١ / ٢ ص ٣ ٤ ومابعدها

ولكن قطز[١] هو الآخر طمع فى أن يتولى السلطنة، من دون علىّ بن أيبك، ولعله لم يعجبه قسوة علىّ المبكرة، التى ظهرت له؛ بأمره بقتل شجرة الدر، ولاسيما أن الموقف الحربى كان خطيرًا بوصول المغول إلى الشام، بعد اجتياح العراق، وقتل المستعصم خليفة المسلمين. فنجد قطز يخبر علماء مصر ومشايخها وأعيانها أن مصر والإسلام فى حاجة إلى سلطان قوى، له خبرة فى القتال، وليس صبيًّا مراهقًا، حتى ولو كان ابن أستاذه. فمنحهُ علماء مصر وأعيانها ـ وهم يمثلون مصر أمام الحكام المماليك ـ الإذن بعزله، وبتوليه السلطنة من دونه، ولقّب بالملك المظفر سيف الدين، وسك العملة باسمه[٢]. وهكذا كانت البداية الحقيقية لدولة سلاطين المماليك الفتية فى مصر.

* * *

ولابد لنا هنا من أن نعترف بأن دولة سلاطين المماليك فى أول نشأتها فى مصر، قامت على أسس من قيم عظيمة جدًّا، من إيمان عميق بالدين، لتكون دولة فرسان المسلمين، وحماتهم ضد الطامعين والغزاة. فهذا ثابت بما يتناقله واقع التاريخ من انتصاراتهم الكبيرة على أعداء المسلمين، حيث يعتبر قطز المؤسس الحقيقى لدولتهم، جمع فى شخصه هذه القيم العظيمة، كما أن بيبرس الذى جاء من بعده مباشرة، فإن القصص الشعبى فى مصر لايزال يتغنى بمآثره وبطولاته، وفروسيته ونبله ودهائه فى سبيل نصرة المسلمين.

---

(١) اسمه الأول محمود، وأبوه هو مودود، ابن عم جلال الدين خوارزم شاه. بتفصيل· السلوك، ١ / ٢ ص ٤٣٥؛
انظر Ency of Isl, (art Kutuz) 2ed, p. 261, no (2).

(٢) انظر . Lane - Poole: Egypt, p. 261, no (2). بتاريخ ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ ـ ١٢٦٠م.

الخاتمة

من اليـقين أنه توجـد فى تاريخ الشعـوب ثوابت لاتنفـصل عنهـا؛ أبرزها الوطنيـة التى تكمن وقـتذاك عند المسلمين فـى الروح الإسلامـية، بعـد أن تمكن الإسلام من شـعوبهم - بما فيـهم شعب مصـر - بعد إسلامـه واستعـرابه؛ بحيث اختفت العصبيات والقوميات، وجعلت المسلمين أخوة لافرق بين عربى وعجمى، حيث كانت مـصر فى الفترة الأيوبية قـاعدة للوطنية الإسلاميـة، التى تـقوم على أساس الروح الإسلامية، والإيمان العميق بها، ولـم تكن الوطنية مثلما هى فى وقتنا تقوم أساسًا على الانتـساب للأرض أو صلة الدم؛ فهى وطنية مركبـة من مقومات متعددة، وليست من مقوم واحد، أميزّها الروح الإسلامية.

ولاشك أن الدولة الأيوبية تعـتبر حـقبة هامة فـى تاريخ مصر الإسلامـية، غطت مساحة من الزمن، ناهزت الثمانين عامًـا، وهى مدة قصيرة فى تاريخ مصر المديد الطويل؛ إلا أنها حـافلة بالإيمان والكرامة والصمود والأمجـاد والإشراقات. فعلى يد السمر المصريين وحدهم، كما تقول نصوص التاريخ، بقيادة صلاح الدين المؤسس الأول للدولة الأيوبية وكبير البـيت الأيوبى، استردت القدس بعد أن يأس المسلمون من استردادها، ووضعوا حـدًا لأطماع الفرنجة وهم أهل أوربا فى الشرق الإسلامى بهزيمتـهم مرتين فى مصر، حينمـا غزوها فى حملات شرسـة ومكثفة؛ حيث فهم الصليبيون أن القوة الرابضة فى مصر قد أصبحت حائلاً دون أطماعهم، وأن لمصر الريادة فى الدفاع عن العرب والمسلمين، وكأن الأقدار قد أرسلت الأسرة الأيوبية الكردية الأصل لتحكم فى مصر لتحقيق ذلك؛ مما جعلها بمثابة توجيه لدفع الحاضر والمستقبل فى مصر والبلاد العربية.

حقًّا إن الدولة الأيوبية فى البداية نشأت على أسس من قيم وطنية إسلامية عظيمة جداً، بسعيها لوحدة العرب والمسلمين؛ غير أن شهوة الحكم غلبت على ملوكها بعد موت صلاح الدين؛ بحيث دبت بينهم الفرقة، وأصبح الطابع الأول للحكم الأيوبى بعامة فى أى قطر عربى المنازعات والدسائس والمشاحنات والمشاجرات؛ مما ترتب عليه البعد عن قيمها وأهدافها، ومهد لسقوطها فى يد مماليك مصر، لتبدأ بهم حقبة جديدة فى تاريخ مصر الإسلامية.

الكـــشاف

١ ـ جدول المصادر والمراجع

(أ) كتب عربية مخطوطة ومطبوعة

ابن الأثير(عز الدين) ، الكامل فى التاريخ، تصـحيح عبد الله النجـار، مصر ١٣٤٨ ومابعدها.

، التاريخ البـاهر فى الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحـقيق طليـمـات، القـاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م، وأيضًـا بعنوان: تـاريخ الدولة الأتابكـيـة ملـوك الموصل، فى مجموعة: R.H. des Hist de Crois. Or Vol II lèr. Paris, 1869.

ابن إياس ، تاريخ مـصـر، المشـهـور ببـدائـع الزهور فى وقـائع الدهور، فى٣ أجزاء، بولاق ١٣١١ ـ ١٣١٢هـ (الجزء الأول).

أسد رستم ، الروم فى سيـاستهم وحـضارتهم ودينهم وثقافـتهم، وصـلاتهم بالعـرب، فى جـزئين، بيـروت ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦.

باركر (أرنست) ، الحروب الصليـبية، نقله إلـى العربية البـاز العرينى، القاهرة ١٩٦٠.

البار ، مصر فى عصر الأيوبيين، القاهرة ١٩٦٠.

الشـرق الأوسط والحروب الصلـيـبـية، الجـزء الأول، القاهرة ١٩٦٣.

ابن بهادر البندارى ، الفـتح بن عـلىّ (ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م) ـ تاريخ آل سلجوق، مصر ١٩٠٠.

، سنا البرق الشامى؛ تحقيق فتحية النبراوى، القاهرة ١٩٧٩.

، فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٣٢٩ تاريخ، وبمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٦١٦٦.

بيلى ، حياة صلاح الدين الأيوبى، القاهرة ١٩٢٦.

بيومى قيام الدولة الأيوبية، القاهرة، ١٩٥٢.

ابن تغرى بردى ، (أبو المحاسن)، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ط. دار الكتب ١٩٢٩ـ ١٩٥٦)، وتحقيق Popper، ط. California.

، منتخبات من حوادث الدهور، تحقيق Popper، فى ٤ أجزاء، ط. Barkeley ١٩٣٠ - ١٩٣١.

، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، الجزء الأول، تحقيق يوسف نجاتى، القاهرة ١٩٥٦؛ وتحقيق محمد محمد أمين، فى جزئين، القاهرة ١٩٨٤، ١٩٨٥، وله ملخص بالفرنسية من Wiet: Les Biographies بعنوان: du Manhal Safi, 1932

بدر الدين ، الدر الثمين فى سيرة نور الدين، مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية، برقم ١٣٣٦ب.

ابن جبير ، رحلة، تحقيق حسين نصار، مصر ١٩٥٥، وط. Leyden، ١٩٠٧.

جمال الدين الشيال ، مصر والشام بين دولتين، القاهرة ١٩٤٥.

، مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية ١٩٤٩.

، تاريخ مصر الإسلامية، الجزء الثانى، العصران الأيوبى والمملوكى، الإسكندرية ١٩٦٧.

ابن الجوزى ، (أبو الفرج)، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد ١٣٥٩هـ.

جوزيف نسيم ، الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية، لسنة ١٩٦٢ - ١٩٦٣، ص ١٨٣ ومابعدها.

، العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، الإسكندرية ١٩٦٣.

، دراسة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى، المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين فى سيناء، فصلة، الإسكندرية ١٩٦٥.

ابن الجيعان ، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، نشره Moritz، القاهرة ١٨٩٨.

حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية، القاهرة ١٩٧٣.

الجوينى ، (إمام الحرمين) (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م)، العقيدة النظامية، تحقيق محمد زاهد والكوثرى، مصر ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨.

ابن حبيب ، (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م)، درة الأسلاك فى دولة (ملك) الأتراك، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٢٩٦١، وفى المكتبه الأهلية (B.N) برقم 4680 و 4681، ومقتبسات من WeijerS، ١٨٤٠.

أبو حديد ، صلاح الدين وعصره، القاهرة ١٩٢٧.

الحريرى ، الأخبار السنية فى الحروب الصليبية، مصر ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩.

حسن إبراهيم ، مصر فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٧ .

حسن حبشى ، الحروب الصليبية الأولى، القاهرة ١٩٤٧، وطبعة ثانية ١٩٥٨.

، نور الدين والصليبيون، حركة الإفاقة والتجمع الإسلامى فى القرن السادس الهجرى، القاهرة ١٩٥٨.

، أعمال الفرنجة «Gesta»، ترجمه وعلق عليه، حسن حبشى ١٩٥٨.

، جوانقيل القديس ولويس وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨.

، الحروب الصليبية، تأليف وليم الصورى، ترجمة وتقديم، القاهرة ١٩٩١ ـ ١٩٩٤، ظهرت منه ثلاثة أجزاء.

حسن الرماح ، (نجم الدين) (ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م) فى علم الفروسية والمنازلة مع الفرسان، مخطوط بالمكتبة الأهلية (B.N)، برقم 2825.

حسنى ، صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين، (رسالة ماجستير).

حسنين ربيع ، النظم المالية فى العصر الأيوبى، القاهرة ١٩٤٦. الصليبيين، رسالة ماجستير ١٩٥٩.

حسين مؤنس ، نور الدين محمود، سيرة مجاهد صادق، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٥٩.

الحسينى ، (صدر الدين)، أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق إقبال، لاهور ١٩٣٧.

حمزة ، صلاح الدين، مصر ١٩٤٢

، حكم قراقوش، القاهرة ١٩٤٥ .

الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة، برقم ٢٤٠٣١ تاريخ .

خدورى ، الصلات الدبلوماطقية بين هرون الرشيد وشارلمان، بغداد ١٩٣٩ .

ابن خلدون ، المقدمة، القاهرة ١٣٢٢هـ .

ابن خلكان ، وفيات الأعيان، بولاق، فى مجلدين، وفى ٣ أجزاء، القاهرة ١٢٩٩هـ، وتحقيق إحسان عباس، ١ - ٨، بيروت١٩٦٨ .

الراوندى ، راحة الصدور، تحقيق إقبال، ط. Lonon، ١٩٢١ .

رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة البار، ط٢، ١٩٨١ .

روبرت كلارى ، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمها من الفرنسية القديمة وقدّم لها حسن حبشى، ١٩٦٤ .

زابروف ، الصليبيون فى الشرق، ترجمة إلياس، موسكو ١٩٨٦ .

زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ترجمة عربية، فى جزئين، ١٩٥١ - ١٩٥٢ .

زبيدة عطا ، الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية، زمن الأيوبيين، ماجستير ١٩٦٩ .

زكار ، الحروب الصليبية، دمشق ١٩٨٤ .

السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، فى ١٢ سفراً، القاهرة ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦.

سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين، القاهرة ١٩٥٧.

سعيد العريان ، شجرة الدر، قضية تاريخية، دار المعارف.

سعد زغلول عبد الحميد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب ابن منصور الموحدى، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ٦، ٧، ١٩٥٣، ص ٨٤ ـ ١٠١.

سوفاجيه ، الآثار الإسلامية التاريخية فى حلب، عرّبها وعلق عليها محمد أسعد أطلس؛ دمشق ١٩٥٦.

السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة، فى جزئين، القاهرة ١٣٢٧ ـ ١٩٠٩.

ابن شاهنشاه بن أيوب ، (صاحب حماة)، مضمار الحقائق وسر الخلائق، ويشتمل على السنوات بين ٥٧٥هـ و٥٨٢هـ، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٨.

أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين، فى جزئين، القاهرة ١٢٨٧ ـ ١٢٨٨هـ.

ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، المعروفة بسيرة صلاح الدين، القاهرة ١٣١٧هـ.

ابن صاعد ، طبقات الأمم، نشر شيخو، بيروت ١٩١٢.

صدر الدين ، أخبار الدولة السلجوقية، صححه إقبال، طبعة لاهور، ١٩٣٣.

عادل حمزة ، رسالة صلاح الدين الأيوبى إلى بلدوين الرابع، ملك بيت المقدس٥٦٩هـ / ١١٧٤م، مجلة المؤرخ العربى، ، ١٩٩٦، ٤، ١٩٩٦ ص ٢٤٩ ومابعدها.

، الحركة الصليبية، فى جزءين، القاهرة ١٩٦٣ .

عاشور ، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة ١٩٧٠ .

ابن عبد الظاهر ، سيرة الملك الظاهر، تحقيق الخويطر، الرياض، ١٩٧٦، وترجمة فاطمة صادق، Oxford, 1956,

ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، فى R. des Hist. des Crois. Or t III.

عماد الدين الأصفهانى ، كتاب تاريخ دولة آل سلجوق، مصر ١٣١٨ / ١٩٠٠

، كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى، مصر ١٣٢١هـ.

، خريدة القصر وجريدة العصر، نشر أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس، القاهرة ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ .

عمر كمال توفيق ، الحملة الصليبية الخامسة، ١٩٥٨ .

عنان ، مملكة بيت المقدس الصليبية، ١٩٥٨ .

، مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٣١ .

أبو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر، الطبعة الأولى، الحسينية .

ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٤٧ .

ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨ .

القلقشندى ، صبح الأعشى، طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧؛ وطبعة ثانية، القاهرة من وزارة الثقافة.

ماجد ، الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٩.

، العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، بيروت ١٩٦٦.

، الناصر صلاح الدين الأيوبى، ط٢، بيروت ١٩٦٧ (وطبعة ثالثة شعبية).

، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر، الطبعة الرابعة ١٩٩٤، فى جزئين، ١٩٩٤.

، التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، القاهرة ١٩٨٨.

، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، فى جزءين، القاهرة، ١٩٨٦.

محمد أمين ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، رسالة ماجستير ١٩٦٨.

مختار العبادى ، البحرية الإسلامية فى مصر والشام، فى عصرى الأيوبيين والمماليك، مجلة كلية الآداب. جامعة الإسكندرية، ٦ ، ٧، ١٩٥٣، ص ٢٨.

المخزومى (أبو الحسن على) (ت ٥٨٥هـ / ١١٨٩م) ، المنتقى من كتاب المنهاج فى علم خراج مصر، تحقيق Cahen، ومراجعة راغب، فى ملحق Ann Islamo، القاهرة ١٩٨٦، العدد (٨).

المسعودى ، التنبيه والإشراف، تحقيق de Goeje، ١٨٩٤ .

المقريزى ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، الطبعة الثانية، ١ / ٢ ، تحقيق زيادة ١٩٥٦ .

الخطط المقريزية، ٤ أجزاء، القاهرة ١٣٢٦هـ.

مكسيموس ، تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب، ترجمة من الفرنسية، فى مجلدين، أورشليم، ١٨٦٥ .

ابن مماتى ، قوانين الدواوين، القاهرة ١٩٤٣ .

نجاح القابسى ، اتجاهات البحث فى تاريخ الغزو الصليبى، - دراسة - المؤرخ العربى، العدد ٣٤، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨، ص ٤٨ ومابعدها.

النعيمى ، الدارس فى تاريخ المدارس، دمشق ١٩٤٨ .

النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق فى ١٨ جزءاً، ١٩٢٨ - ١٩٣٨ .

هريدى ، فهرست خطط مصر، المجلد الثانى فى: Ann Islamo; xx / 2, 1983.

ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق الشيال، فى ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠، وحسنين ربيع، فى ٤ - ٥، القاهرة ١٩٧٢م - ١٩٧٧م.

، التاريخ الصالحى، تصوير بمكتبة جامعة الإسكندرية، برقم ٢٣١١ .

وليام الصور (وليم) ،الحروب الصلـيبيـة، ترجمـة وتعليق حسن حـبشى، فى٤ أجزاء، القاهرة ١٩٩١ ومابعدها.

ياسين الحموى ،دمشق فى العصر الأيوبى، دمشق ١٩٤٦ .

ياقوت ،معجم البلدان، تحقيق الخالجى، فى ٨ أجزاء، القاهرة ١٢٣٢هـ / ١٩٠٦م.

اليعقوبى ، كتاب البلدان، تحقيق Houtsama، ١٨٩٣ .

يحيى بن سعيد ،تاريخ، تحقيق وترجمة، ١٩٢٤ .

اليونينى ،ذيل مرآة الزمـان وتاريخ الأعيـان، نشر حـيدر آباد، ١٩٥٤ _ ١٩٦٦ .

ب - المراجع الأوربية

Alphandery (Paul): La Chrétiénté et l'Idée de Croisades. Paris, 1954.

Angelo : Histoire de la Palestine. Paris, 1932.

Archer : The Crusade Of Richard. London, 1888.

Aube : Godefroy de Bouillon. Fayard, 1982.

Ayalon : Les Eaclavaes du Mameloulk. Jerusalem, 1951.

Bassietti : Mohammed et Saint François. Ottowá, 1959.

Bernhardi : Konrad III, 2 Vols. Leipzig, 1883.

Bardonove : Saint Louis. Paris, 1984.

Cahen : La Campagne De Mantzikert d'après Les Sources Musulmancs. Ext. de Byzantion. T LX. fasc2, Bruxelles. 1934.

: La Syrie du Nord A l'époque des Croisades, 1940.

: Contribution a` l'Histoire de Diyár Bakr ;au xive` Siècle, J.A, 1955.

: Douanes et Commerce ... de L,Egypte Mediévale d,après le Minhadj d,al - Makhzúmi, JEsho Vol 7 / 1964, y 218 - 313.

:Les Marchands Etrangers au Caire, sous les Fatimides et les Ayyoubides. Colloque Inter. le Caire, 1969.Grafhenaininden, 1972, p. 97 - 102.

Castries : La Conquéte de La Terre Sainte, 1973.

Cedrenus : Synopsis Historiae Corpus Scriptionum. Historiae byzantinae, ed. Bekker (C.S.H.B) 1838 - 9.

Champdor : Saladin. Le Plus Pur Héros de l'Islam. Paris 1956.

De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes. 2 Vols. Paris, 1838.

Dodu : Histoire des Institutions monarchiques dans Le Royaume Latin de Jerusalem, 1844.

Dolger : Regesten der Kaiserrukunden des Ostromischen Reiches. Berlin - Munich, 1924.

Elisséeff : Núr al - Dín. 1950.

Enan : Decisive Moments in the History of Islam, 3ed. Cairo, 1948.

Encylopedia: Of Isl, 2ed, art Ayyúbides, TI,P. 796 sqq.

Gabrielli : Saladino Encyclopedia Italiana, t XX.X. p. 485 - 486.

: Storici Arabi delle Croicianste, 1957.

Gesta : Francorum et Alionorum Hierosolymitanoium, transl. into Englih for the first time by Somerset de Chair. England, 1945.

ولها ترجمة عربية من حسن حبشى

Gibb : The amies of Saladin, in.C.H.E. 111 / 4, 1951, 304 - 326.

: The Achievement of Saladin, in Bull Of the John Libary, XXX V I, 1952, 46 - 60.

: the Arabic. sources for the life of Saladin.Speculum, XXV, 1950.

: The carear of Núr ad - Din. Pensylvania, 1955.

: The rise of Saladin 1169 - 1187. Pensyl, 1955.

Gottschalk : al Malik al Kámil, Wiesbaden, von Egypten und Seine Zeit 1958.

Grousset : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 Vols. Paris. 1934 - 1936.

Heyd :Histoire du Cormmerce du Levant, I, 1882.

Houtsama : Recueil de textes relatifs á l'histoire des Seldjoucides. Leyden, 1886 - 1902.

Joinville :Histoire de Saint Louis. Ed Natalis de Wailly Paris, 1874 وله ترجمة من حسن حبشي.

Lamb : The Crusades. London, 1931.

Lane - Poole : Saladin and the fall of the Kingdom of Jersualem London, 1898.

: The Coinage of Egypt. London, 1879

: Catalogue Of the Collection of arabic Coins. Preserved in the Khedivial Libray. London, 1897.

: History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.

Lavoix : Catalogue des Monnaes Musulmanes. 3 Vols. Paris 1887 - 1897. Egypte - Syrie.

Le Fèbvre : Pierre L' Ermite et La Croisade. Paris, 1940.

Le Strange : Palestine under The Moslems. London, 1890.

: The Lands Of Eastern Califate, Cambridge, 1905.

Lewis : The Source For the History of the Syrian Assassins. Speculum. XXVII, 1959.

Marin : Histoire de Saladin. 2, Tomes. Paris, 1758.

Mathieu d,Eesse : Chroique Continuée par Grégoire Le Prétre, trad Dulaurier. Paris, 1858.

Mawlawi : The decline of Suljukid empire. Calcutta, 1938.

Michaud : Histoire des Croisades. 4 Vols. Paris,1953.

Michel LeSyrien : Chronique, ed et trad. Chabot. (VOL3). Paris, 1899 - 1910.

Minorsky : Prehistory of Saladin, in Studies Caucasian History. Cambridge, 1953, p. 127 - 129.

Norgate : Richard the Lion Heart. London, 1924.

Prawer : The Latin Kingdom of Jerusalem. 1972

وله ترجمة من قاسم ومحمد خليفة ١٩٨١ .

Recueil :des Historiens des Croisades: Historiens Orientaux t I - V. Paris, 1872 - 1906. Historiens Occidentaux t I - VI.Paris, 1844 - 86. Historiens Armeniens 1 - 2. Paris, 1969. Historiens Grecs 1 - 2. Paris.

Reinaud A. M :Notice Sur la Vie de Saladin. Paris, 1824.

Répertoire Chronologique d'épigraphie arabe, 17 Vols.

Rey : Histoire des Princes D'Antioch. Paris.

Riant : Inventaire Critique des Lettres Historiques des Croisades. Paris, 1986.

Róhricht : Geschichte des Konigreichs. Jerusalem, 1160 - 1291.

Rousset : Histoire des Croisades, Paris, 1981.

Roy : Histoire des Templiers. Tours, 1851.

Runcinan : AHistory Of the Crusades 3 Vols. London, 1951 -4.

وله ترجمة من البار.

Salah Elbeheiry : Les Institutions de l, Egypte au temps des Ayyúbides (Thèse). Paris

Schlumberger : Les Campagnes du roi Amaury Ie`r de Jerusalem en Egypte au XIle` Siécle. Paris, 1906.

Setton : A History Of the Crusades. 2 Vols. Pensylvania, 1958.

Tritton : The first and Second Crusades From an anonymous Syriac Chronicle. Translated by Tritton. With notes by Gibb. J.R.A.S. January 1933, p. 66 - 102, April 1933, p. 273 - 305.

Van Berchem : Notes sur Les Croisades. J. A. 9 e`me Série, XiX 1902, p. 385 suiv.

Wiet : L'Egypte et Les Lieux Saints deL'Islam, dans Mélange Offerts a` René Grozel. Poitiers, 1966, p. 119 - 130.

: Histoire de la Nation Egyptienne, ed Hanotaux IV.

Wilken : Geschichte der Kreuzziige. 7 Vols. Leipzig, 1807 - 1832.

٢- جدول الأعلام والأماكن

أ- الأعلام

ابن الأثير ٣١، ٤٤، ٧٧، ٩٦، ١١٢
أحمد بن بويه ٢٤
أحمد بن طولون ١٢٠، ١٤٤، ١٤٥
أحمد بن المشطوب ١٢٥
الإخشيد المصرى ١٤٤
الإدريسى ١٢٦
إربانوس ٣٩
أرناط ٩٥، ٩٦، ٩٧
أسامة بن منقذ ١٢
الإسبتارية ٥٠، ٩٧، ١٠٧
إسماعيل (الملك الصالح) ٨٩، ٩٠
إسماعيل بن بورى ٦١، ٦٨
الأشرف موسى ١٦٢، ١٦٣
الأفضل (الوزير الفاطمى) ٣٠، ٤٩، ٥٨، ٦٠، ١٦١
آق سنقر ٦٧، ٦٨
ابن أيبك (مؤرخ) ١٧
أيبك (عزّ الدين، معز الدين) ١٥٣، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥
إيزار بيلا ١٢٦
إيلغازى ٦٧
أيوب ٧٠، ٧١، ٧٧، ٨٨
باسيل (الثانى) ٣٨
بدر الجمالى ٣٠
بطرس الراهب ٣٩، ٤٠
بودوان (بغدوين، بردويل) ٤١، ٥٨، ٦٥، ٧٢، ٧٩، ١١٦.
بورى ٦٠، ٦٨
بوهيمند (البيمند) ٤١
بيبرس ١٣٢، ١٣٣، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٤، ١٦٦
ابن البيطار (الصيدلانى) ١٣٠
الأقسيس (أتسز) ٢٩، ٣٠، ٣٩
اقطاى (أقطيا) ١٤٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٤
ألب أرسلان ٢٧، ٢٨
أم علىّ ١٦٥، ١٦٦

أنر (معين الدين) ٦٥، ٧٠
أنّا كومنينوس ٤٠
أنوشتكين ٥٨
ابن إياس ١٣١، ١٤٥
إليكسيوس ٤٠، ٤٢، ٧٣، ١٢٢
البيجوا ١٢٨
تُتش ٢٩، ٣٩، ٤١
ابن تغرى بردى (أبو المحاسن) ١٨، ٨٧
تشرشل ٩٤، ٩٦
تانكرد ٤٢
توران شاه ٢١، ٨٥، ٨٦، ١٢٧، ١٣١، ما بعدها، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٢ وما بعدها، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦، ١٥٨
الجاحظ ١٩، ١٣٩، ١٤٣، ١٥٤
ابن جبير ١٦، ٨٥، ٩٣، ١١٢
جلال الدين خوارزم شاه ١٣٩
جوانفيل ١٢٨ وما بعدها، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ١٥٨
جودفروا ٤١، ٤٢
ابن الجوزى ١٣، ٨٧، ١٣٤
جى (جوى - كى) ٩٢ وما بعدها، ٩٦
الحافظ لدين الله ٦١
الحاكم بأمر الله ٣٧، ٣٨، ١٦٠
الحسن الأبرقى ١٠٤
حنادى بريين ١١٩ وما بعدها، ١٢٤، ١٣٠
الحسين بن علىّ ٦٥، ٦٦، ٨٤
الخاتون (عصمة الدين) ٨٨
ابن خلدون ١٤٤
ابن خلكان ١٨، ٧٥
دانتى ١٢٧
الداوية (الديوية) ٥١، ١٠٧
الست السوداء ١٦٠
ست المُلك ١٦٠
سفر نيوس ٣٥
سكمان (سقمان) ٣٠
ابن السلار ٦٥، ١٠٨
سلجوق ٢٤، ٢٥
سليمان بن قُتلمس ٤١
السهرورى (المقتول) ١٧، ٨٥
سيبيلا (الملكة) ٦١، ٩٣

السيدة الحرّة ١٦٠
سيف الدين غازى ٦٩، ٧٠
السيوطى ١٨، ١٦٠
شادى ٧٤، ٧٥
شاور ٧٧، ٨٠، ٨١
شجرة الدر (أو شجرة الدر، والدة خليل) ٢١، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٦، ١٤٠، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣ وما بعدها
دقاق بن تُتش ٦٠
الذهبى ١٧
راشد الدين سنان ٨٩
ابن رشد ١٢٧، ١٦١
رصد ١٦٠
رومانوس (الرابع) ٢٨
رضوان بن ولخشى ٦٠، ٦١
ريتشارد (قلب الأسد) ١٠٨، ١١١، ١١٥
ريموند (القمص) ٩٥.
زنكى ٦٧، ٦٩ وما بعدها ٧٢، ٧٥، ٧٩
ابن سبعين ١٢٧
شرف المعالى (ابن الأفضل) ٥٨
شيركوه ٧٦، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٦، ٧٨
الشيزرى ١٥، ٨٥
الصالح إسماعيل ٨٨، ٩٠، ١٤١
الصالح نجم الدين ٢٠، ١٢٦ وما بعدها، ١٣٠، ١٣٨، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٦، ١٥٤
صلاح الدين ٧، ٢٩، ١٢، ١٣، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٠، ٧٤ وما بعدها، ٧٧، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٢ وما بعدها، ٩٦، ١٠٤، ١١٧، ١١٩، ١٣٣، ١٣٧، ١٤٢، ١٤٦
ضرغام ٧٧، ٧٨
طافور ١٤٧
طغتكين (طغدكين) ٥٩، ٦٠، ٦٧
طغرلبك ٢٥
طلائع بن رزيك ٦٦
الظاهر لدين الله ١٦٠
العادل (سيف الدين) ٢٠، ٩٧، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٨

العادل (الصغير) ٢٠، ١٣٨ وما بعدها، العاضد لدين الله ٨١، ٨٦، ٨٧، ٩٠
أبو العباس المرسى ١٢٠، ١٢٥
عبد الملك بن مروان ٩٦، ٩٨
ابن العبرى ١٧
عثمان النابلسى ١٥، ١٠٥
ابن العديم ١٤
عز الدين عبد السلام ١٣٧، ١٤١
العزيز عثمان ٢٠، ١٣٣، ١٣٤
ابن العميد ٩
العينى ١٨
ابن الفارض ١٢٥
الفتح البنداوى ١٦
فان برشم ١٠
فخر الدين شيخ الشيوخ ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٢
فخر الدين بن لقمان ١٣٤
ابن الفرات ١٨
فرانشيكسو داسيسى ١٢٥
فردريك بربروسا ١١١
فردريك الثانى ١١٨، ١٢٢ وما بعدها ١٢٧، ١٢٨
ابن فضل الله العمرى ١٢٩
فيليب أعسطس ١١١
القائم بأمر الله ٢٥
القاضى الفضل ٩، ١٢، ١٧
قراقوش التقوى ١١٣
العزيز بالله ٣٧
علىّ بن أريبك (الملك المنصور) ١٥٨، ١٦١، ١٦٢
ابن العماد ١٨
ابن العماد عماد الدين الكاتب ١٢، ١٧، ١٠٩
عمر بن الخطاب ٣٥، ٣٧، ٥١، ٩٨، ١٠٣
عمورى (أملريك - مرى) ٦٤، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ١١٣
قراقوش (بهاء الدين) ٨٥، ٨٦، ١٠٩، ١١٢، ١١٩
قراقوش بن أيبك ١٠٤
قسطنطين الأكبر ٣٤

قطز ١٥٣، ١٥٨، ١٦٥ وما بعدها
فلج أرسلان ٤٢
القلقشندى ١٨، ٦٨، ٨٤، ١١٣
الكامل محمد ١٦، ٢٠، ٩٨ وما بعدها، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٧، ١٦٠، ١٦٢
كربوقا ٤٤
كمشتكين ٩٠
كونراد الثالث ٧٣
لؤلؤ التاسع ١٢٨ وما بعدها
لويس السابع ٧٣ وما بعدها
ابن مماتى ١٥
المأمون البطائحى ٥٩
مانويل ٤٦، ٧٩
متى الرهاوى ١٩
مجير الدين ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٧
مروان بن محمد ٧٥
المخزومى ٧٥
المستنصر بالله ٨٧
المستعصم بالله ١٥٩، ١٦١، ١٦٣، ١٦٦
المشطوب (سيف الدين) ١٢٥
المعتصم بالله ١٤٤
المعز لدين الله ٥٥، ٥٩
المغيث عمر ١٦٢
المقريزى ١٨، ٧٥، ٧٦، ٨٦، ١٥٩
مؤتمن الدولة ٨٦
مودود (قطب الدين) ٦٦
الناصر لدين الله (خليفة) ١٠٩
الناصر يوسف ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢
نظام الملك ٢٧، ٣٠، ٣١، ١٤٤
نور الدين ٦٩، ٧٣، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٦، ٨٩، ٩٠
هارون ٣٦، ٣٧، ٣٨
ابن هيلانة ١٤
ابن واصل ١٥، ٧٧، ٨١
الوليد بن عميد الملك ٩٩
وليم الصورى (وليام) ١٩، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٤٨، ٤٩، ٥٢، ٦١، ٦٣، ٧١، ٧٧، ٨٢، ٨٣
ياغى سيان ٤٣
يوحنا الثانى ٤٦، ٧٢
أبو يعقوب المنصور ١١٣

ب - الأماكن

إتل ١٤٨
أذربيجان ٣١
الإسكندرية ٥٥، ٥٨، ٩١، ٩٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٩، ١١٦، ١١٧، ١٢٠، ١٢٧، ١٤٦
آسية الصغرى ٢٨، ٣١، ٤٢، ١١٠
أشموم طناح ١٣١
أقريطش ١٠٦
اللُد ٦٤
أنطاكية ٣٧، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٦٨، ٦٩، ٧٣
إيران ١٥٩
إيلياء ٣٤
بعلبك ٦٠، ٧٧
بغداد ٢٣، ٢٩، ٣١، ٥٣، ٧٢، ١٣٩
بلاد الجزيرة ١٨، ١٣٣
بيروت ٥٢، ٥٨
بيزة ١١٥
تكريت ٧٥
تل العجول ١٤٢
تونس ١٣٥
جنوة ١٠٦، ١٢٥
حطين ٩٥ وما بعدها، ١٠٧
حلب ٣٠، ٤٣، ٥٣، ٧٢، ٧٥، ٩٠، ١٣٧، ١٦١
حماه ١٣٧
حمص ١٣٧، ١٥٧
خوارزم ٣١، ١٣٨، ١٣٩
دمشق ٢٩، ٤٣، ٥٣، ٥٩، ٦٧، ٧٠، ٧٣، ٧٧، ٨٩، ١٢٣، ١٣٣، ١٣٧، ١٣٨، ١٥٧، ١٦١
دمياط ٥٥، ٨٣، ١٠٤، ١١٦ وما بعدها، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٠، ١٣١
بلبيس ٧٩، ١٥٨، ١٦٢
بلخ ٣١
البندقية ١٠٦، ١١٨، ١٢٢
بيت المقدس (القدس) ١٧، ١٩، ٣٠، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٦١، ٦٤، ٩٧ وما بعدها - ١٠٠، ١١١، ١١٤، ١٢٢، ١٢٤
بئر سبع ٦٤
دوين (دبيل) ٧٦
الرمله ٩٥

الُرها ٣١، ٤٧، ٦٧، ٦٨، ٦٩ وما بعدها
الشام ١٨ ١٨، ٣٠، ٣١، ٤٧، ٥٢، ٥٧، ٧٢، ٨٠، ١٠٠، ١١٠، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٥٧، ١٦٢
الصالحية ١٤١، ١٦٢
صقلّية ١٢٦
صور ٥٢، ٥٥، ٥٨، ٥٩، ٦٠
صيدا ٥٨
طرابُلس ٥٨، ٧٧، ٩٣
العراق ٣٠، ٣١، ١٠٩، ١٦٢
عَسقلان ٦١ وما بعدها، ٦٥، ٧٧، ٨٢، ٩٧، ١١٠
عكّة (أو عكاء) ٥٠، ٥٥، ١١١ ما بعدها ١٢١، ١٢٣، ١٣١، ١٣٥
الفسطاط ٨٠، ٨١، ٨٤، ١٢١، ١٢٥، ١٤١
فراسكور ١٢٨، ١٣٢، ١٥٧
الفرما ١١٧
فلسطين ١٧، ٣٤، ٥٧، ٦٣ وما بعدها، ٩٥ وما بعدها
القاهرة (المحروسة) ١٨، ٥٥، ٥٩، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٤، ٨٦، ١١٩، ١٢١، ١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٤٦، ١٦١
القبج (القَبق) ١٤
القسطنطينية ٣٧، ٤٠، ٤٢، ١٢٢
القُلزم ١٠٤، ١١٦
الكرج ١٤٩
الكرك (كرك) ٩٣، ١٦١
كليرمون فران ٤٠
كيفا (حصن) ١٣٢، ١٣٨
ليون ١٢٥
مصر ١٨ ١٨، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٥٧، ٧٧، ٨٠، ٨٩، ١٠٤، ١٠٧، ١١٥، ١١٩، ١٢٨ وما بعدها، ١٣٣، ١٤٦، ١٦٢
المِقس ٥٥، ١١٩
مكة ٥٥، ٩٦
ملاذكرد (أو منازكرد) ٢٨، ٤١
المنصورة ٢٠، ١٢٤، ١٢٧، ١٥٤
الموصل ٣١، ٤٤، ٦٦، ٧٠، ٧٥، ١٣٩، ١٦٠
نابلس ٩٥
نابلى ٩٧، ١٠٦
نيقية (أو أنيقية) ٤٢
يافا ٥٨، ٦٤
اليمن ١٣٥

رقم الإيداع	٥٩٥٨ / ١٩٩٧
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 -1004 - 2

LES AYYÚBIDES.

Dans L'Histoire de LEgypte Musulmane .

Histoire Politique.

A.M.MAGUED.

Professeur d,Histoire Islamique.

Expert National du Centre des Etudes Papyrologiques.

Université de Ain Shams - Le Caire.

2e`me Edition.

1417H. / 1997.

Le Caire.

Publié par la Librairie. Dár al - Fikr al -' Arabí

94. Rue Abbás al - 'Akád. Madinat Nasr.Téléphone:

2752794 -2752984.

هذا الكتاب

تاريخ الدولة الأيوبية السياسى فى مصر له عطر؛ بسبب دور أهلها وفاعليتهم فى المنطقة العربية والإسلامية؛ نتيجة لوقوع العبء الأكبر على عاتقهم، فى كفاحهم لموجات الفرنجة المكثفة والمتعددة فى الشرق الإسلامى، فهم جاءوه ليس فقط بهدف الاستعمار فيه، وإنما بمشروع مبيّت للاستيطان فى فلسطين، التى اغتصبوها بالحديد والنار؛ لتحقيق رجحان أوربى فى الميزان السكانى فيها.

وفى ظلها برز أيضًا دور المصريين الوحدوى فى جمع كلمة العرب والمسلمين، الذين كانوا جسمًا برءوس كثيرة، ولم يعودوا أمة واحدة، كما أراد الإسلام لهم. فقد كانت الوطنية المصرية وقتذاك مركبة من مقومات متعددة، أميزها روح الإسلام والانتماء العربى، مما مهد للعمل الموحد، والانتصار على الغزاة الصليبيين للشرق.

إضافة إلى أنه فى ظلها زاد ارتباط المصريين بمدينة القدس، وهى قضية فلسطين، التى وصفها القرآن المجيد بأنها أرض مباركة، فأصبحت لها عندهم محبة وجدانية عميقة، وكأنها أغنية فى قلوبهم. فكان للعسكر المصرى بالذات دور مميز فى عودة الأرض العربية فى فلسطين، وانتزاع القدس من غزاتها؛ بعد أن عمَّ المسلمين اليأس من استردادها، فيقول عماد الدين الكاتب الأصفهانى، وكان شاهد عيان لهذا الفتح الكبير: ولتفخر مصر بعسكرها على باقى الأمصار.

فحكم الدولة الأيوبية فى مصر، ما كان يعود بمصر إلى الوراء؛ لتكون مجرد ولاية فى ظل وحدة الحكم الخلافى العباسى، حيث كان للسلطان الأيوبى المصرى، وهو كبير البيت الأيوبى، الدور الحاسم فى السياسة العربية الإسلامية. فالتاريخ لسان صدق يعبر عن دور مصر فى الحقبة الأيوبية فى تاريخ مصر الإسلامية، والتاريخ والقومية هما غصنان فى شجرة واحدة.

أ. د. عبد المنعم ماجد.

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بدولة الكويت دار الكتاب الحديث